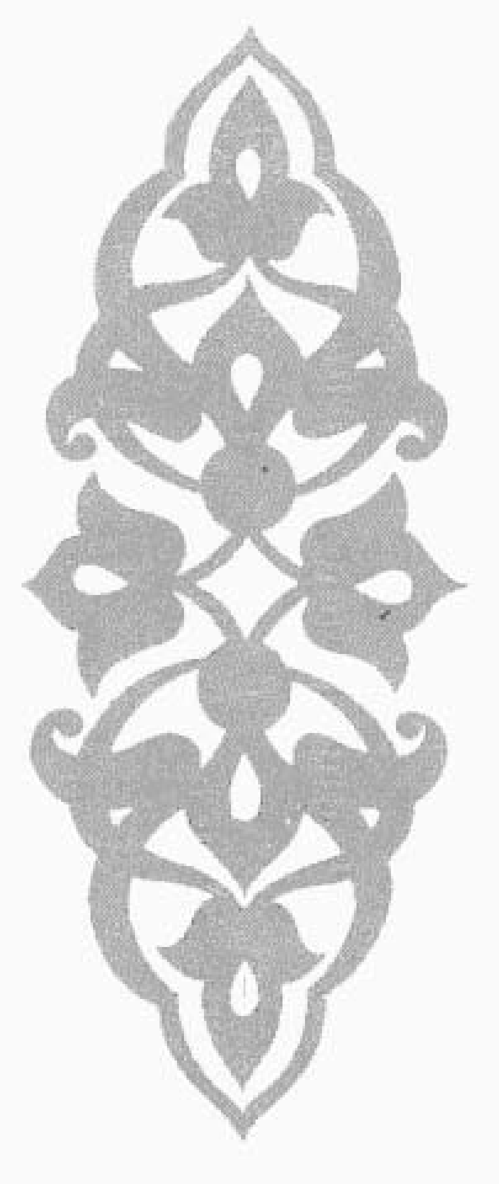




أبو الأنبياء

الخليل إبراهيم

عباس محمود العقاد

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم سعده

تصميم الغلاف وخطوط : محمد هلال

خليل الرحمن وخليل الإنسان

خليل الرحمن وخليل الإنسان
خليل الرحمن وخليل الإنسان
خليل الرحمن وخليل الإنسان
خليل الرحمن وخليل الإنسان



فى العالم اليوم أكثر من ألف إنسان يدينون بالموسوية والمسيحية والإسلام ، وهى الأديان التى جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين ينتمون جميعًا إلى الخليل إبراهيم .

لا جرم يسمى خليل الرحمن .

ولا جرم تتجمع الجهود كلها للبحث عن تاريخه المجهول فى أغوار الأرض ، فإن علم الأحافير لم ينحصر فى البحث عن تاريخ أحد قط كما انحصر فى البحث عن تاريخ أبى الأنبياء ، وما تجردت البعوث إلى العراق وفلسطين ومصر لسؤال الأرض عن مكنون من أسرارها كذلك السر المكنون ، الذى ينطوى على أعمق أسرار الروح والضمير .

قال منقب من أولئك المنقبين الذين عرفوا باسم الحفريين : إن الناس قد بدأوا بالحفر فى الآثار طلبا للذهب ولقايا الحلى والجوهر ، ثم عرف الناس شيئًا أنفس من تلك المعادن يبحثون عنه ويتهافتون على استخراجه وتحصيله : وهو التاريخ المقدس ، أو تاريخ المعانى العليا التى ترتفع به إلى السماء ، ولها مستودع فى جوف الرغام وكل شىء يغليه الإنسان يحفزه إلى ذلك السر الذى تقسمته الأرض والسماء .

فإلى جانب البحث عن أصول العقائد يبحث المنقبون فى تاريخ الخليل عن فتوح لا نظير لها فى تاريخ الإنسان .

وقد أكثر المؤرخون من القول فى أنباء الفتوح التى غيرت مجرى التاريخ أو غيرت علاقة الإنسان كله بالعالم الذى يحيط به ويحتويه .

ولكن المؤرخين لا يستطيعون أن يذكروا فتحا من تلك الفتوح أعظم عملاً وأبقى أثراً فى تاريخ الإنسان من تلك الفتوح التى اقترنت بدعوة الخليل .

إن دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد ، واقترنت بميزان العدل الإلهى ، واقترنت بإعلاء العبادة إلى ما فوق الطبيعة والجثمان .

وهذه هى الفتوح التى لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الإنسانية ، منذ أقدم عصورها إلى العصر الحديث .

ولا نظير لها فيما فتحه الإنسان من هذا العالم حين سخر النار أو سخر الحيوان أو سخر الكهرباء ، أو سخر الذرة على جلالة فعلها وضآلة قدرها ، وهى أقوى المسخرات فيما عرفه إلى اليوم .

هذه فتوح فيما يملكه الإنسان .

أما تلك الفتوح ففيها ملاك الإنسان كله ، فيما يعلمه ومالا يعلمه ، وفيما يبديه وفيما يخفيه .

تلك فتوح غيرت عالم الإنسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادات سبقتها ، وإن كانت العبادة الفضلى غنما يغليه من يقتنيه ، ويفديه بكل ما يعيه ومالا يعيه .

كلا . بل هى عبادة فضلى وفكر فاضل ونظر جديد إلى الكون وإلى الإنسان وبنى نوعه فى وحدته وفى اجتماعه .

هى فتوح تصحح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الإنسان بنفسه وبدنياه ، وتحسب من أجل ذلك فى سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع .

إن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادة ، ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضى بها إلى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية ، وإن لم تبلغه دعوة الأنبياء .

أما ميزان العدل الإلهى فهو الذى أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة ، وكل ما عداه من دعامة فإنما هى دعائم القوة ممن يقدر عليها ، سواء اقتدر عليها بسطوته الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات .

وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم إلى بعض ، ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء .

فإذا ارتفع الميزان إلى اليد الإلهية فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ، ندان متساويان ، ومخلوقان أمام خالق واحد . ما زاد من قوة أحدهما ، فهو من عطاء ذلك الخالق ، وما نقص من قوة الآخر ، فهو من قضائه ومن دواعى رحمته وبلائه ، وإليه

المرجع فى حسابه أو جزائه ، فلا يدخله أحد فى حساب غير ذلك الحساب ، ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان .

وقد ارتفع الإنسان كله حين رفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، وحين أصبحت حاجته إلى المعبود شيئاً أرفع من مطالب الأبدان وضرورات الغرائز والطباع .

كان أقل من الطبيعة فأصبح أعظم منها .

كان مسلوب الحيلة أمامها ، فأصبح له من فوقها مرجع لا يعنيه غضبها ورضاها .

لم يكن له إلا أن يخضع لها أو يحتال عليها .

فأصبح له أن يواجهها ويقف أمامها ، بل على أكتافها ، أصبح له كيانه الأدبى فى وجهها .

وليس الفتح المبين فى هذا أنه يسخرها ويستفيد منها ، بل الفتح المبين أنه يدينها ويدين سلطانها ، وأنه يرى فيها ما يحسن وما لا يحسن ، وما يرضاه ضميره وما لا يرضاه .

وإن الواقع الذى لا مرية فيه أن الإنسان قد ملك الذرة الصغرى فملك من الطبيعة قوتها الكبرى ، وأنه خليق بهذه القوة أن يضل ويطغى ، ولكن اليقين الحق أنه لن يكبح ذلك الطغيان من نفسه بقوة الطبيعة ، صغراها وكبراها ، وإنما يكبح « إذا قدر له أن يكبحه » بسلطان من ذلك الفتح المبين ، ما بقى له وما زاد عليه بعد آلاف السنين .

* * *

هذه الفتوح قد عرفت جميعاً قبل عصر الخليل . ولكنها لم تقترن بدعوة قط فى عالم النبوة قبل دعوته عليه السلام .

وهذا هو الفارق المهم فى العواقب وفى مراحل التاريخ ، أو هو الفارق بين دعوة النبى وبين غيرها من الدعوات ، فالتوحيد لم يكن مجهولاً قبل عصر إبراهيم ، وكذلك ميزان العدل الإلهى ، وكذلك عبادة « الحق » فوق الطبيعة وفوق مطالب الأبدان .

كان المصريون الأقدمون يؤمنون بالإله الواحد ، وكان من معتقداتهم أن للروح فى العالم الآخر ميزانا يقدر لها الحسنات والسيئات ، وكانت كلمة الله هى القوة التى تفعل ما تريد .

ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلها جاءت فى زمن لم تتهيأ فيه النفوس للعلم بالوحدانية ونبذ الشرك وتعدد الأرباب .

وكانت في جملتها دعوة كهان يسترون ما يعلمون ولا يبوحون للناس بأسرار الديانة إلا بمقدار .

وكان ميزان السماء يزن لكل روح حسناتها وسيئاتها ، ويحسب الملوك من الأرباب الذين يتصرفون فى الأرواح خلال الحياة وبعد الممات .

ولما جهر « إخناتون » بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله ، صدرت دعوته من قصر الدولة كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث أن بطلت فى قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وقوانين يطيعها الناس أشد من طاعتهم لتلك القوانين ، لأنها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة .

وكان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلا مقنعا لمسألة الوجود ، أو كأنهم يعرفونه خالقا للكون ، ولا يزيدون .

ومما لاريب فيه أن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر فى صورة من الصور إلى بلاد المشرق ، ومنها إلى بلاد البحر الأبيض ووادى النهرين ، ومما لا ريب فيه أنها كانت سر الخاصة وذوى الرئاسة فى المحاريب والقصور ، وأن تعدد الأرباب قد سرى كذلك إلى الشعوب سريان العرف والمحاكاة .

أما الإله الواحد الذى اقترن بدعوة إبراهيم ، فلم يكن حل مسألة ، ولم يكن سر أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد .

بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، وإليه المرجع والمآب .

كانت عبادته « مسألة حية » تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوى زاوية فى الكون ولا فى ضمير الإنسان .

كانت دعوته صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزا يخفى وتتحاجى به العقول .

كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء .

ولم تصبح كذلك قبل رسالة النبوة حين انبعث بها النبى أبو الأنبياء ..

حين بشر بها إبراهيم .

وما كان لنبوة واحدة أن تؤدى رسالة التوحيد وتفرغ منها فى عمر رجل أو عمر جيل .

وإنما هى نبوة بعدها نبوات .

ولو كانت دون ذلك خطراً لكفى أن تقوم بها دعوة واحدة ، وأن تتكفل لها ببقائها ، ولكان بها الغنى عن التعقيب والتذكير .

ولكنها على خطرها هذا لا تتم فى رسالة واحدة ، ولا تستغنى عن مرتقى بعد مرتقى ، ثم عن قرار بعد قرار .

وعاش الخليل ما عاش والتوحيد فى قومه مشوب بالشرك والضلال ، وفارق الدنيا والخلفاء من بعده يتقدمون وينكسون ، ويستقيمون وينحرفون ، ولم ينقض من بعده عهد إلا وهو ينبىء الناس أنها نبوة تتلوها نبوات ، وأنها أمانة موروثة فى أعقابه لا تنقطع فى جيل ، ولا بد لها من ورثة أبرار .

ومن شك فى ذلك فإنما هو شاك فى بداهة العقل ، وضرورة الزمن وحكم التاريخ ، وفوق الشك فى الكتب والأنباء .

وإنما المستحيل فى العقول أن تنفرد رسالة إبراهيم فى أعقابه فلا تأتى بعدها رسالة فى أولئك الأعقاب .

ولا دليل فى العقول على نسب الأعقاب أقرب من هذا الدليل ، ولا دليل على المرسلين منهم أثبت منه عند النظر القويم .

فلو مضت رسالة إبراهيم بغير رسالة بعدها لكان هذا هو العجب المردود ، ولو قام بتلك الرسالات التالية فرع من غير أصله ، ونبت من غير معدنه لكان هذا أعجب وأولى بالرد والارتياب .

ولا يعقل العقل إلا أنه نبى أبو أنبياء ، كما كان وكما ينبغى لا محالة أن يكون .

وكم بين توحيد الأعقاب وبين التوحيد كما تلقاه عصر الخليل من بون بعيد !

إنه لأبعد من مسافة الزمن بينهما ، وليست مسافة الزمن بينهما بالشوط القريب .

ولكن الذى يبدأ لابد أن يبدأ ، ولابد أن يبدأ من خطوته الأولى ولا يبدأ من منتهاه .

وإلى ذلك المبدأ يرجع اليوم ألف مليون من بنى الإنسان أو يزيدون ، لا أول لهم فى قداسة الحياة غير ذلك الأول ، ولا رائد لهم فى موازين العدل والصلاح قبل ذلك الرائد ، ومن خلف على أعقابه من الرواد .

ومن ذلك المبدأ شخص ذلك الركب الحاشد فى طريقه إلى الله ، وتقدم من اسم الله ذى العرش إلى اسم الله الرحمن الرحيم .

إنه لا جرم خليل الرحمن .

وإنه لا جرم خليل الإنسان .

وسيرته فى الصفحات التالية هى سيرة الخليلين ، على هدى الأسلاف وعلى هدى الأعقاب .

وعلى هدى الأسلاف والأعقاب ينبغى أن تكذب كل دعوة عامة ، وأن توصم كل بعثة نبوية خوطب بها الناس على اختلاف المدارك والمعارف والطباع .

فنحن لا نتصور الدعوة فى صورتها الحقيقية الشاملة إلا إذا عرفنا صورتها فى نفوس المخاطبين بها ، سواء منهم من فهم أو من لم يفهم ، ومن أحسن الاعتقاد أو أساء .

وعلى قدر العلم بالضلالة نفهم عمل الهداية التى أزالتها أو عالجت أن تزيلها بما كان لها من الجهد والوسيلة .

فلا غنى فى دراسة تاريخ الخليل عن الإحاطة بما ورد عنه وقيل فيه من شتى المصادر فى مختلف البيئات والعصور ، وينفعنا الخطأ هنا كما ينفعنا الصواب .

بل الخطأ هنا من الصواب أنفع ، لأن رسالة النبى قائمة على إزالة خطأ وتبيين الضلالة فيه ، فعلى قدر ما نعلمه من جوانب الخطأ وخباياه نعلم القوة التى تتصدى له وتصلح لعلاجه والغلبة عليه .

ولهذا نود أن نلم في كتابة هذه السيرة بكل طرف ، وأن نذهب فيها إلى كل وجهة ، ولا نقتصر علي المعتمد منها في مذهب واحد أو نحلة واحدة ، سواء عرضنا لها من ناحية الأديان أو من ناحية المباحث والآراء التى رددتها التواريخ ، وكشفت عنها البعوث الحفرية من القرن الثامن عشر إلى الآن .

إن منهج البحث تمليه علينا طبيعة البحث نفسه فى الزمن الذى نكتبه فيه .

ونحن ندرس سيرة الخليل إبراهيم كما وضحت لنا منذ فاتحة القرن العشرين .

ولقد أثار القرن العشرون فى هذه السيرة مشكلات لم يعرفها الأقدمون ، وأتى فيها بمعلومات من بطون الحفائر وخفايا الآثار لم تكن في حساب أحد ممن عرضوا لهذه السيرة ، قبل مائة سنة .

من هذه المشكلات التى أثارها القرن العشرون وجود إبراهيم في التاريخ : هل هو شخصية تاريخية ؟ أو هو صورة من صور الخيال تجمعت حولها متفرقات العقائد من هنا وهناك ؟

ومن المشكلات التى أثارها هذا القرن علاقة إبراهيم بمكة وببيت الله الحرام : هل ذهب إبراهيم إلى مكة ؟ وهل كانت له علاقة ببيت الله الحرام فيها ؟ أو تلك علاقة لم تقم على سند صحيح من الواقع ولم تنجل الدراسات العصرية عما يؤيدها بالدليل المقبول .

ونحن نكتب هذه السيرة وأمامنا هذه المشكلات من مصادرها القوية ، وأمامنا كذلك أسبابها وأسباب الإعراض عنها والرد عليها .

ونجملها بداءة فنقول : إنها لا تقوم على سند من العلم سواء كان الباحث الحديث ينفى وجود إبراهيم جزما ويقينا أو يشك فى وجوده ولا يقطع باليقين إلى جانب النفى أو جانب الإثبات ، فالذى ينفى وجود إبراهيم جزما ويقينا لا يستند إلى حجة واحدة من حجج العلم ولا يزيد على مجرد الإنكار .

والذى يشك يبنى شكه على أسباب لا يعتبرها العلم ولا العقل من أسباب الشك فى وجود شىء .

لأنه يستند فى شكه إلى كثرة الأعاجيب والخوارق والأساطير التى تخللت سيرة إبراهيم كما رواها الأقدمون .

ومثل هذا السبب لم يبطل وجود شىء قط وإن كانت أعاجيبه وخوارقه وأساطيره مما ترفضه جميع العقول فى العصر الحديث .

فهذه الشمس يضرب بها المثل فى الظهور والثبوت ، وليس أكثر من الخرافات التى رويت عن مشرقها ومغربها وعن نشأتها وحركتها ، وعن الديانات التى تقدسها وتفرض عبادتها ، وليس أكثر فى العصر الحاضر من الخلاف على عمرها وحقيقة تكوينها وأسباب حرارتها وطبيعة مادتها ، لأنها هى طبيعة المادة على العموم .

والهرم الأكبر لا يمترى فى وجوده أحد ، ولم يذكر عن إبراهيم بعض ما ذكر عنه من الأسرار .

ومن الزراية بالعلم أن يقوم الشك على غير أساس .

فليست الحقيقة خصما لنا فى محكمة نقول له : تقدم أنت بجميع أسانيدك وإلا أنكرنا عليك دعواك .

وإنما الحقيقة قضيتنا نحن وليست بدعوى خصم يلزمه الدليل ولا يلزمنا .

فما لم يكن للشك سبب فهو زراية بالعلم وزراية بالعقل وزراية بأمانة التفكير .

ومن السخف أن نلزم الأقدمين بالبرهان على سيرة إبراهيم ولا نلزم به أنفسنا ، كأنهم أصحاب الشأن كله ونحن ثمة غرباء متفرجون .

فلا موجب للجزم بانكار وجود إبراهيم ولا للشك في وجوده ، اعتماداً على كشف جديد من كشوف العلم فى القرن العشرين .

أما علاقته بمكة والبيت الحرام فالأمر فيها أعجب من أمر المختلفين على « شخصيته التاريخية » .

لأن الذين ينكرون تلك العلاقة لم يدعوا لها سنداً من العلم ولا من الكشوف العصرية ، بل هم يعتمدون على بعض المصادر الدينية للجزم ببطلان المصادر الأخرى .

أو هم يعتمدون على المصادر الإسرائيلية للجزم ببطلان المصادر الإسلامية ، ولا شأن للعلم الحديث هنا .. بل هو تمييز رواية دينية على رواية دينية تخالفها ، ولا محل لإقحام العلم العصرى بين الروايتين .

بل هناك محل للتحفظ الشديد فى قبول الرواية الإسرائيلية ، لأنها امتزجت بسياسة الملك والتنازع عليه ، وكل دعوى المملكة الإسرائيلية فى الزمن القديم قائمة على الأسلوب الذى كتبت به سيرة الخليل فى أيامه الأخيرة على التخصيص .

هذه نظرتنا إلى المشكلات التى طرأت على سيرة إبراهيم فى القرن العشرين ، وهذه نظرتنا إلى المعلومات التى أتى بها من كشوفه وأحافيره وتعليقاته ، ومبلغ حقها فى تمحيص السيرة أنها تفسر بعض الغوامض ولكنها لا تنفى « الشخصية التاريخية » ولا توجب الشك فيها بحجة

علمية . وسنرى أن المقابلة بين المعلومات الحديثة وروايات الكتب الدينية وروايات الأقدمين تؤدى لنا عملاً غير النفى والإنكار والتردد بين الشك واليقين : تؤدى لنا عمل الغربال والمصفاة ، ولا تنفى غير الحثالات والقشور .

ولهذا سنرجع فى سيرة الخليل إلى جميع مراجعها . سنرجع إلى كتب الأديان التى لها علاقة بسيرة الخليل ، وإلى كتب التواريخ وروايات الأقدمين ، وإلى كتب الباحثين فى الحفائر والآثار ، ولا سيما الكتب التى تعمد مؤلفوها أن يبحثوا فى مواطن السيرة ومظانها من الألف الثالثة قبل الميلاد ، بين آثار العراق وفلسطين ومصر والجزيرة العربية ، وغيرها من مظان السيرة التى تتاخم تلك الأقطار .

والأديان التى نرجع إلى كتبها ومصادرها هى الإسرائيلية والمسيحية والإسلام والصابئة ، وهذه الديانة الأخيرة أقل الديانات ذكرا للخليل فى كتبها ، ولكنها احتفظت ببقايا كثيرة من عقائد البابليين وأخذت من الديانات الوثنية والكتابية فى فارس والعراق وفلسطين وجزيرة العرب ، فهى مرجع لا يهمل عنه الكلام على دعوة تتصل بجميع هذه الديانات .

ومنهجنا فى الأخذ من المراجع أن نقتبس ما جاء فى كتب الدين ثم نردفه بتفسيره من كلام أهله وكلام الثقات عند أصحابها ، حتى نستخلص منها جميعًا لباب السيرة فيها ، ونستوفى منها ما تعطيه فى موضوعها .

وننتقل من كتب الأديان إلى التواريخ التى تعتمد عليها وعلى المأثورات المروية ، ثم نشفع ذلك بمحصول التاريخ الحديث الذى استنبطه الحفريون وعلماء الآثار من البحث فى المراجع الأثرية .

ولا ننوى أن نقحم على هذه المراجع تعليقًا لا يستلزمه سياقها ، بل نمشى مع كل مرجع مقبول أو غير مقبول حتى يقيم لنا معلما هاديا من معالم الطريق ، وقد يجيء المعلم الهادىء من طريق الرفض كما يجيء من طريق القبول ، فإن الذى يقول لنا : لا تسيروا من هنا ، كالذى يقول لنا سيروا من هناك ، وكلها صالح للهداية واجتناب الضلال .

فإذا أوضحت هذه المعالم آخر الأمر لم تبق إلا الخلاصة التى يصح التعويل عليها ، وعلى قدر طول الطريق يكون القصد فى ختامه ، لأنه الختام الذى تعددت من أجله المعالم والأعلام .

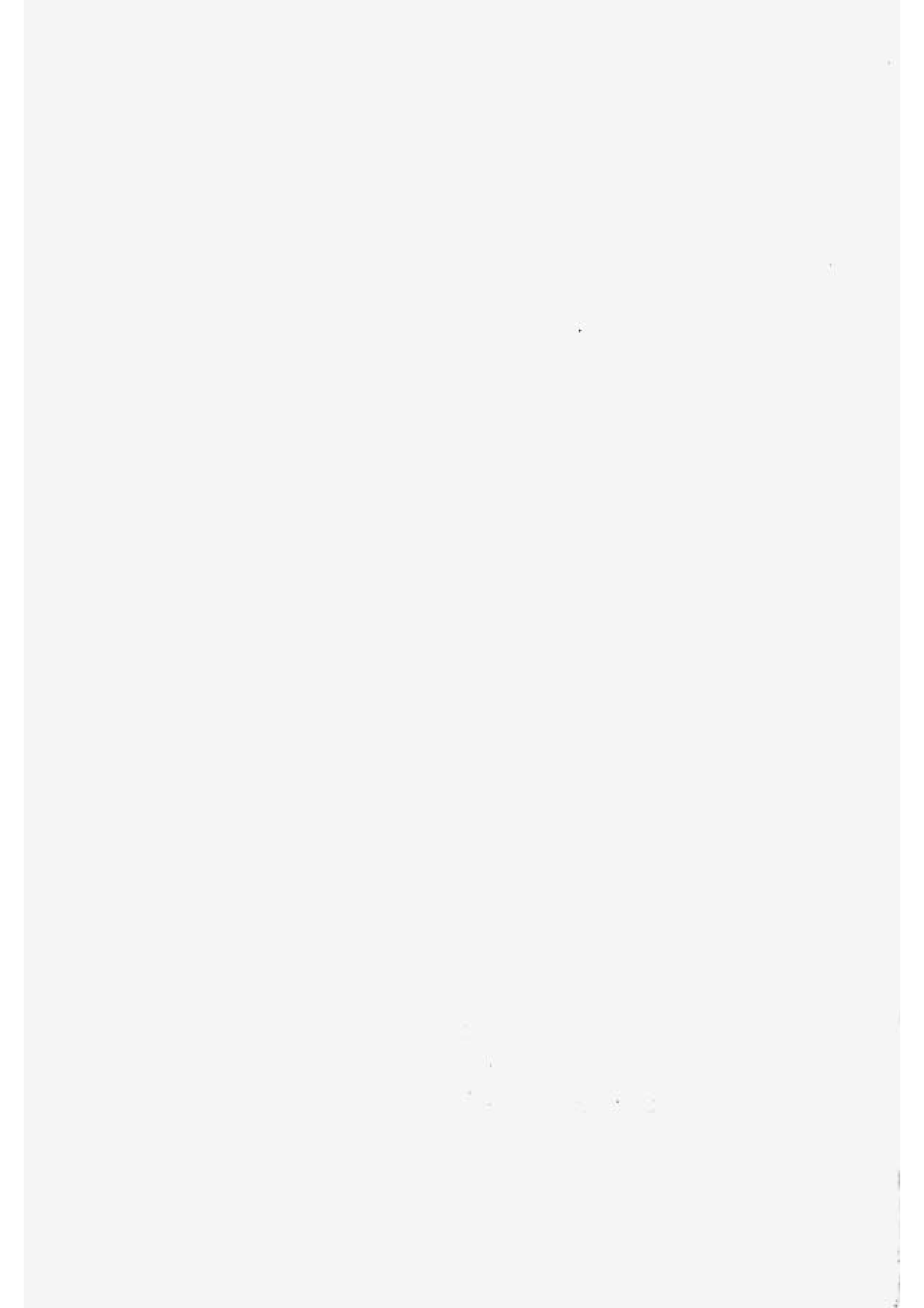
ونحن على رجاء مع القارىء أن تأتى هذه الخلاصة مصفاة من الشوائب والدخائل ، وأن نستخرج منها صفة الخليل كما صحت في النظر بعد المقابلة بين مصادرها وأجزائها ، ونترك منها مالا سبيل إلي القول فيه على بينة وعلي ضوء هذه المعلومات مجتمعات .

ونحن مبتدئون بالباب الأول فيما يؤخذ من كتب العهد القديم ، ثم نشفعه بما يؤخذ من كتب الأديان على الترتيب .

* * *

الباب الأول

المراجع الإسرائيلية



آفاض سفر التكوين فى سيرة إبراهيم عليه السلام ، وأثبت مولده فى « أور » الكلدانيين ، ورفع نسبه إلى سام بن نوح ، فهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح .

وذكر أبناء تارح فقال : إنه ولد « إبرام وناحور وحاران ، وإن حاران ولد لوطا ومات قبل أبيه فى أرض ميلاده « أور الكلدانيين » .

وإن إبرام وناحور اتخذا لهما زوجتين ، اسمهما ساراى وملكة بنت حاران . أما ساراى فهى بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء فى الإصحاح العشرين على لسان إبراهيم : « وبالحقيقة أيضاً هى أختى ابنة أبى غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجة » .

وجاء فى الإصحاح الحادى عشر .. أن « تارح أخذ إبرام ابنه ولوطا ابن حاران ، وساراى ، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان ، فأتوا إلى أرض حاران [1] وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات فى حاران » .

وجاء بعد هذا فى الإصحاح الثانى عشر أن الرب قال لإبرام : « اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه ، وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض .

---

(١) موقعها الآن بين حابور ونهر الفرات فى شمال العراق .

« فذهب إبرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط » .

« وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران فأتوا إلى أرض كنعان ومعهم ذخائر وعبيد وماشية ، واختار إبرام سكنه من شكيم [1] إلى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون » .

« وظهر الرب لإبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض ، فبنى هناك مذبحاً للرب الذى ظهر له ، ثم انتقل من هناك إلى الجبل ونصب خيمته شرقاً من بيت أيل بين بيت أيل من المغرب ولماى من الشرق ، ثم وإلى رحلته إلى الجنوب » .

« وحدثت مجاعة فى الأرض ، فانحدر إبرام إلى مصر ، وقال لساراى امرأته وهو على مقربة من مصر : إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فإذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك » .

« فلما دخل إبرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جداً ، ومدحها رؤساء فرعون لديه ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيراً بسببها وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء واتن وجمال ».

« فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة .. ودعا فرعون إبرام وقال له : ما هذا الذى صنعت بى ؟ لماذا لم تخبرنى إنها امرأتك ؟ لماذا قلت لى

---

(١) فى موقع نابلس الآن على الأرجح .

هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى ؟ .. خذها واذهب ، ووكل به أناساً شيعوه إلى خارج الديار » .

« وعاد إبرام إلى بيت أيل حيث كانت خيمته قبل انحداره إلى مصر ، ولم تحتمل الأرض إبرام ولوطا ومن معهما من حاشية وماشية ، واشتجر رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون »[1] .

فقال إبرام لابن أخيه : « لا تكن مخاصمة بينى وبينك ، وبين رعاتى ورعاتك . إننا إخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . إن ذهبت شمالا ذهبت أنا إلى اليمين ، وإن ذهبت يمينا ذهبت أنا إلى الشمال .

ونظر لوط فرأى أمامه أرضا مخصبة كأرض مصر ، فاختار دائرة الأردن وارتحل مشرقاً ونقل خيامه إلى سدوم ، وأهلها جد أشرار » .

وبقى إبرام فى كنعان فقال له الرب : « ارفع عينيك وانظر فى الموضع الذى أنت فيه من مشرقه إلى مغربه ومن شماله إلى جنوبه ، فإننى معطيك جميع الأرض التى تراها ولنسلك من بعدك ، واجعل لك نسلا كتراب الأرض لا يحصيه إلا من استطاع أن يحصى ترابها ، فاضرب فى الأرض طولا وعرضا كما تشاء .

فنقل إبرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التى هى جبرون[2] وبنى فيها مذبحا للرب .

---

(١) لعلهم قبيلة من الكنعانيين كان تسكن العراء فى قرى غير مسورة .

(٢) هى اليوم الخليل .

ونشب قتال بين أمراء البادية والحضر فى تلك البقاع « فخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبويم وملك بالع التى هى صوغر ، ونظموا حربا معهم فى عمق السديم [1] مع كدر لعومر ملك عيلام ، وتدعال ملك جوييم ، وأمرافل ملك شنعار ، وأريوك ملك الأسار ؟ أربعة ملوك مع خمسة .

« وعمق السديم كان فيه آبار حمر كثيرة » .

« فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك ، والباقون هربوا إلى الجبل فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة ، وجميع أطعمتهم ومضوا » .

« وأخذوا لوطا ابن أخى إبرام ومضوا ، إذ كان ساكنا فى سدوم » .

« فأتى من نجا وأخبر إبرام العبرانى ، وكان ساكنا عند بلوطات ممرا الأمورى ، أخى أشكول وأخى عانر ، وكانوا أصحاب عهد مع إبرام » .

« فلما سمع إبرام أن أخاه سبى ، جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ، وعدتهم ثلثمائة وثمانية عشر ، وتبعهم دان ، ودهمهم ليلا هو وعبده فكسرهم ، وتبعهم إلى حوبه إلى الشمال من دمشق واسترجع ما أخذوه ، واسترجع لوطا أخاه أيضا وسبى النساء والرجال .

فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه ، وأخرج (ملكى صادق) ملك شاليم خبزا وخمرا ، وكان كاهنا لله العلى ، فبارك إبرام وقال : مبارك إبرام من الله العلى مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلى الذى

---

(١) هى بحر الملح .

أسلم أعداءك إلى يديك . فأعطاه إبرام عشرا من كل شيء ، وقال ملك سدوم : أعطنى النفوس . أما الأملاك فخذها لنفسك .

فقال إبرام لملك سدوم : رفعت يدى إلى الرب الإله العلى ، مالك السماء والأرض ، لا آخذن خيطا ولا شراك نعل ولا شيئاً مما هولك ، فلا تقل إننى أغنيت إبرام . ليس لى إلا ما أكله الغلمان ، وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معى : عانر وأشكول وممرا ، فلهم نصيبهم يأخذونه .

ثم خاطب الرب إبرام فى الرؤيا قائلا : لا تخف يا إبرام . أنا ترس لك وأجرك عظيم .

قال إبرام : أيها السيد الرب . ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ، ومالك بيتى هو اليعزر الدمشقى [1] .

وقال إبرام أيضا : « إنك لم تعطنى نسلا ، وها هوذا ابن بيتى وارث لى .. » .

« فكان كلام الرب له : لا يرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو وارثك » .

« ثم قاده إلى خارج وقال : انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت .. هكذا يكون نسلك » .

---

(١) هو بمثابة أمين الدار الموكل بشونه ، ويلاحظ أن جملة حروف الأسهم ـ وهو يكتب بالعبرية بغير ألف بعد العين ـ تساوى ٣١٨ عدد الغلمان ، ولهذا يقول بعض المفسرين إن الاسم كناية من العدد .

فآمن بالرب ، فحسبه له حسنة ، وقال له : أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض ترثها .

فقال : أيها السيد الرب ! بماذا أعلم أننى أرثها ؟ .

قال : « خذ عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية ، وكبشا ثلاثيا ، ويمامة وحمامة » .

فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل كل شق مقابل صاحبه ، وأما الطير فلم يشقه . وجعل إبرام يزجر الجوارح التى تهبط عليها .

ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبرام سبات ونزلت عليه رعبة عظيمة ، فقال لإبرام : أعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم يستعبدون فيها ويستذلون أربعمائة سنة ، ثم أدين الأمة التى تستعبدهم ، فيخرجون بأملاك جزيلة ، وتمضى أنت إلى آبائك بسلام ، وتدفن بشيبة صالحة . ثم يرجع نسلك فى الجيل الرابع إلى هاهنا ، إذ لم يتم بعد ذنب الأموريين .

« ثم غابت الشمس ورانت العتمة على الأفق ، وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك الشطور .

« وفى ذلك اليوم قطع الرب [(١)] مع إبرام ميثاقه قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين

---

(١) من العادات المرعية فى كثير من أمم الرعاة أن يمر المتعاهدون بين شقتين من ذبيحة ، ويرد بعضهم قولهم « قطع عهدا إلى هذه العادة » .

والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين » .

* * *

ورجع الإصحاح السادس عشر إلى ساراى فجاء فيه إنها لما لم تلد ودفعت جاريتها المصرية « هاجر » إلى إبرام وقالت له : هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة . فادخل إلى جاريتى لعلى أرزق منها بنين .

فلما رأت هاجر إنها حبلت « صغرت مولاتها فى عينيها ، فقالت ساراى لإبراهيم : ظلمى عليك ! دفعت جاريتى إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت فى عينيها . يقضى الرب بينى وبينك .

فقال إبرام لساراى : « هو ذا جاريتك فى يدك . افعلى بها ما يحسن فى عينيك ، فأذلتها ساراى ، فهربت من وجهها » .

« فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية ، على العين التى فى طريق شور [1] ، وقال : يا هاجر جارية ساراى ! من أين أتيت ؟ وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى . فقال لها ملاك الرب : ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها . وقال لها ملاك الرب : تكثيراً أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب : ها أنت حبلى وتلدين ابنا وتدعينه اسمعيل . لأن الرب قد سمع لضراعتك . وإنه يكون إنسانا

---

(١) كانت فى الجنوب الغربى من فلسطين بين مصر وكنعان .

وحشياً [1] . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع أخوته يسكن .

وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل .

ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة (الإصحاح السابع عشر) ظهر الرب لإبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملاً . فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جداً . فخر إبرام ساجداً ، وتكلم الله معه قائلاً : أما أنا فهو ذا عهدى معك ، وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد اليوم أبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم . لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم ، وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمما ، ومنك ملوك يخرجون وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبديا ، لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك ، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا وأكون إلههم .

وقال اللّه لإبراهيم : وأما أنت فتحفظ عهدى . أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر .. فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك .. فيكون عهدى فى لحمكم عهداً أبديًا . وأما الذكر الأغلف .. فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه نكث عهدى .

---

(١) الكلمة العبرية تفيد . معنى الشدة والخشونة « فرأ آدم » وقد تفيد فى معناها كلمة متأبد العربية .

وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لا تدعوا اسمها ساراى ، بل سمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابنا .. فخر إبراهيم ساجداً وضحك ، وقال فى قلبه : هل يولد لابن مائة سنة ! وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال إبراهيم لله : ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدى له عهداً أبدياً لنسله من بعد .

وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً . إثنى عشر رئيساً يلد . وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدى أقيمه لإسحاق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت من السنة الآتية ، فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم .

« فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته ، وجميع المبتاعين بفضة وختنهم .. وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن ، وإسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة .

« وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض ، وقال : يا سيد ! إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عهدك ، ليؤتيه قليل من ماء . واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون . لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت .

« فأسرع إبراهيم إلى الخيمة ، إلى سارة ، وقال : اسرعى بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً . اعجنى واصنعى خبز ملة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصا جيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم ، وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا .

« وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هى فى الخيمة . فقال : إنى أرجع إليك نحو زمان الحياة - أى الربيع - ويكون لسارة امرأتك ابن .

« وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة ، وهى وراءه . وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام . وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء . فضحكت سارة فى باطنها قائلة : أبعد فنائى يكون لى متعة وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب لإبراهيم : لماذا ضحكت سارة ؟ إنها قائلة بالحقيقة : أترانى ألد وأنا قد شخت ؟ فهل يستحيل على الرب شىء ؟ فى الميعاد ارجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن !

فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ! لأنها خافت . فقال : لا بل ضحكت .

« ثم قال الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم ، وكان إبراهيم ماشيا معهم ليشيعهم ، فقال الرب : هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله ، وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض ! إنى عرفته

لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب وليعملوا برا وعدلا ويوفى الرب إبراهيم ما وعد .

« وقال الرب : إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظمت جداً . إنى نازل أرى هل فعلوا حقا حسب صراخها الآتى إلىّ . وإلا فاعلم .

« وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم .

« وإما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب .

« فتقدم إبراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين . ؟ حاشا لك أن تفعل هذا الأمر .. أديَّان كل الأرض لا يصنع عدلاً ؟

« فقال الرب إن وجدت فى المكان خمسين بارا فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم .

« فأجاب إبراهيم وقال : إنى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد وربما نقص الخمسون بارا خمسة . أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال : لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين « فعاد يكلمه أيضاً وقال : أن يوجد هناك أربعون . فقال : لا أفعل من أجل الأربعين ، فقال : لا يسخط المولى فأتكلم . عسى أن يوجد هناك عشرون . فقال لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط : عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة !

« وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ، ورجع إبراهيم إلى مكانه .

« فجاء الملكان إلى سدوم مساء ، وكان لوط جالسا فى باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وخر ساجداً ، وقال : يا سيدى . ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان فى طريقكما ، فقالا : لا . بل بالسياحة نبيت » .

وتم الإصحاح التاسع عشر بقصة هلاك سدوم ، ثم عاد الإصحاح العشرون إلى قصة إبراهيم فجاء فيه أنه انتقل من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار « وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى ، فأرسل (ابيمالك) ملك جرار وأخذ سارة . فجاء الله إلى أبيمالك فى الحلم وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها ، فإنها ذات بعل . ولم يكن أبيمالك قد اقترب منها ، فقال : يا سيد ! أتقتل أمة بارة ؟ ألم يقل لى هو أنها أختى ؟ ألم تقل هى نفسها أنه هو أخى ؟ بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا ، فقال الله له فى الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا ، وأنا أيضاً أمسكتك أن تخطىء إلى . لذلك لم أدعك تمسها ، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبى ، وسيصلى لأجلك فتحيا ، وإن كنت لا تردها فإنك ومن لك ميتون .

« .. وأخذ أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وأماء وأعطاها لإبراهيم ، ورد إليه سارة امرأته ، وقال أبيمالك : هوذا أرضى قدامك ، تسكن منها ما حسن فى عينيك . وقال لسارة : إنى قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة . ها هو لك غطاء عينى .

« .. وصلى إبراهيم إلى الله وشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن . لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم » .

ثم جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين أن سارة ولدت اسحاق وختنه إبراهيم وهو ابن ثمانية أيام ، وكان إبراهيم قد أوفى على المائة ، وقالت سارة : وقد جعل الله لى ضحكا وجعل كل من يسمع بأمرى يضحك .

« .. ورأت ابن هاجر المصرية يمزح .. فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق . فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم ..

« قال الله لإبراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك ، واسمع كل ما تقوله سارة . لأنه باسحاق يدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك .

« فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء ، وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها وصرفها .

« فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيداً على مرمى القوس . لأنها قالت لا أنظر موت الولد .. فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر ! لا تخافى . لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به . لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت

وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

وحدث فى ذلك الزمان أن أبيمالك وفيكول رئيس جيشه كلما إبراهيم قائلين : « الله معك فى كل ما أنت صانع . فالآن أحلف لى بالله هاهنا أنك لا تغدر بى ولا بنسلى وذريتى ، وكالمعروف الذى صنعت إليك تصنع إلى والى الأرض التى تغربت فيها .

« فقال إبراهيم : أنا أحلف ، وعاتب أبيمالك فى بئر الماء التى اغتصبها عبيده . فقال أبيمالك : لم أعلم من فعل هذا الأمر . أنت لم تخبرنى وأنا ما سمعت سوى اليوم .

« فأخذ إبراهيم غنما وبقرا وأعطى أبيمالك فقطع كلاهما ميثاقا وأقام إبراهيم سبع نعاج وحدها . فقال أبيمالك لإبراهيم : ما هى هذه النعاج التى أقمتها وحدها ؟ فقال : إنك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر . لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع . لأنهما هناك حلفا كلاهما .

« فقطعا ميثاقا فى بئر سبع ، ثم قام أبيمالك وفيكول رئيس جيشه ، ورجعا إلى أرض الفلسطينيين ، وغرس إبراهيم أثلا فى بئر سبع ، ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدى . وتغرب إبراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة » .

* * *

وتأتى بعد ذلك قصة الفداء بإسحاق .

« وإن الله امتحن إبراهيم .

« فقال له : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه - اسحاق - واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك .. فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه ، واسحاق ابنه ، وشقق حطبا لمحرقة ، وقام وذهب إلى الموضع الذى قال له الله .

« وفى اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال لغلاميه : اجلسا أنتما هاهنا مع الحمار . وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما .

« فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحاق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين . فذهبا كلاهما معا .

« وكلم اسحاق إبراهيم أباه وقال : ياأبى ! فقال : هأنذا يا بنى . فقال : هو ذا النار والحطب ، ولكن أين الخروف للمحرقة . فقال إبراهيم : الله يرى له خروف المحرقة يا بنى . فذهبا كلاهما معا .

« فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله ، بنى إبراهيم هناك المذبح ورتب الحطب ، وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ، ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء . وقال : إبراهيم ! إبراهيم ! فقال : هأنذا . فقال : لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئًا ، لأنى الآن علمت أنك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عنى .

« ورفع إبراهيم عينيه ، ونظر ، وإذا كبش وراءه ممسكًا فى الغابة بقرنية ، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه . فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع (يهوه يراه) حتى إنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى .

« ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء ، وقال : بذاتى أقسمت . إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء ، وكالرمل الذى على شاطىء البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ، من أجل أنك سمعت لقولى .

ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا جميعا إلى بئر سبع .

وجدت بعد هذه الأمور أن إبراهيم أخبر وقيل له : هو ذا ملكة قد ولدت هى أيضاً بنين لناحور أخيك : عوصا بكرة ، وبوز أخاه ، وقموئيل أبا أرام ، وكاسدو وحزنوا وفلداش ويدلاف وبتوئيل ، وولد بتوئيل رفقته .. هؤلاء الثمانية ولدتهم ملكة لناحور أخى إبراهيم . وأما سريته - واسمها رومة - فولدت هى أيضاً طابح وجاحم وتاحش ومعكة » .

وأنبأ الإصحاح الثالث والعشرون بموت سارة وهى فى السابعة والعشرين بعد المائة . ماتت فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان . فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكى عليها ، وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بنى حث قائلاً : أنا غريب ونزيل عندكم . أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى . فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له : أسمعنا

يا سيدى . أنت رئيس من الله بيننا . فى أفضل قبورنا ادفن ميتك . لا يمنع أحد منا قبره عنك .. فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض ، لبنى حث ، وكلمهم قائلا : إن كان فى نفوسكم أن أدفن ميتى أمامى فاسمعونى والتمسوا لى من عفرون ابن صوحر أن يعطينى مغارة المكفيلة التى له فى طرف حقله ، وبثمن كامل يعطينى إياها .. وكان عفرون جالسا بين بنى حث ، فأجابه على مسمع من قومه لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً : لا يا سيدى .. اسمعنى . الحقل وهبتك إياه ، والمغارة التى فيه لك وهبتها .. فسجد إبراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون فى مسامع شعب الأرض قائلاً : بل إن كنت أنت إياه فليتك تسمعنى . أعطيك ثمن الحقل فأدفن ميتى هناك . فأجاب عفرون إبراهيم قائلاً : يا سيدى ! اسمعنى أرض بأربعمائة شاقل فضة ، ما هى بينى وبينك؟ ؟ فادفن ميتك . فسمع إبراهيم لعفرون ووزن إبراهيم لعفرون الفضة التى ذكرها فى مسامع بنى حث : أربعمائة شاقل فضة جائزة عند التجار » .

* * *

وشاخ إبراهيم وتقدم فى الأيام[1] ، وباركه الرب فى كل شيء وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولى على ما كان له : ضع يدك تحت فخذى ، فاستحلفك بالرب إله السماء ، وإله الأرض ، ألا تأخذ زوجة لابن من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق . فقال له العبد : ربما لا تشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض من أرجع بابنك إلى الأرض التى خرجت منها ؟ فقال

(١) الإصحاح الرابع والعشرون .

إبراهيم : احترز من أن ترجع بابنى إلى هناك : الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ، ومن أرض ميلادى ، والذى كلمنى ، والذى أقسم لى قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملائكة أمامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك ، وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفى هذا . أما ابنى فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه ، وحلف له على هذا الأمر .

« ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ، ومضى وجميع خيرات مولاه فى يده ، فقام وذهب إلى أرام النهرين ، إلى مدينة ناحور ، وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء ، وقت خروج المستقيات ، وقال : أيها الرب إله سيدى إبراهيم ! يسر لى اليوم واصنع لطفا إلى سيدى إبراهيم . ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء ، فليكن أن الفتاة التى أقول لها أميلى جرتك لأشرب فتقول اشرب ، وأنا أسقى جمالك ، وهى التى عينتها لعبدك اسحاق ، وبها أعلم أنك صنعت لطفا إلى سيدى .

وإذ كان لم يفرغ بعد الكلام إذا رفقة التى ولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخى إبراهيم خارجة وجرتها على كتفها ، وكانت الفتاة حسنة المنظر جداً وعذراء لم يعرفها رجل ، فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت . فركض العبد للقائها وقال : اسقينى قليل ماء من جرتك . فقالت : إشرب يا سيدى ! وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته ، ولما فرغت من سقيه قالت : استقى لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب ، فأسرعت وأفرغت جرتها فى المسقاة وركضت أيضاً إلى البئر لتستقى ،

فاستقت لكل جماله ، والرجل يتفرس فيها صامتا ليعلم أأنجح الرب طريقه أم لا . وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزانة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب ، وقال : بنت من أنت ؟ أخبريني . هل في بيت أبيك مكان لنبيت ؟ فقالت : أنا بنت بتوئيل بن ملكة الذى ولدته لناحور ، وقالت له : عندنا تبن وعلف كثير ، ومكان لتبيتوا أيضاً . فخر الرجل وسجد للرب وقال : مبارك الرب إله سيدى إبراهيم ، الذى لم يمنع لطفه وحقه عن سيدى ، إذ كنت أنا فى الطريق ، هدانى الرب إلى أخوة سيدى فركضت الفتاة وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور .

« وكان لرفقة أخ اسمه لابان ، فخرج لابان إلى الرجل خارجاً إلى العين .. » .

* * *

ويلى هذا (فى الإصحاح الرابع والعشرين) وصف العبد ما حدث له حتى التقى بالفتاة « فأجاب لابان وبتوئيل وقالا : من عند الرب خرج الأمر . لا نقدر أن نكلمك بشر أو خير . هو ذا رفقة قدامك . خذها واذهب فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب ، وكان عندما سمع عبد إبراهيم كلامهم أن سجد للرب إلى الأرض ، وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثيابا وأعطاها لرفقة ، وأعطى تحفا لأخيها ولأمها ، فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا .، ثم قاموا صباحاً فقال : اصرفوني إلى سيدى ، فقال أخوها وأمها : لتمكث الفتاة عندنا أياما أو عشرة ، وبعد ذلك تمضى » .

واستشيرت الفتاة فقبلت أن تذهب مع العبد « فصرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبد إبراهيم ورجاله ، وباركوا رفقة ، وقالوا لها : أنت أختنا . صيرى ألوف ربوات ، وليرث نسلك باب مبغضيه .

« فقامت رفقة وفتياتها وركبن على الجمال وتبعن الرجل فأخذ العبد رفقة ومضى .

« وكان اسحاق قد أتى من ورود بئر لحى رئى . إذ كان ساكنا فى أرض الجنوب ، وخرج ليتأمل فى الحقل عند إقبال المساء ، فرفع عينيه ونظر وإذ جمال مقبلة ، ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل ، وقالت للعبد : من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا ؟ فقال العبد : هو سيدى ! فأخذت البرقع وتغطت ، ثم حدث العبد اسحاق بكل ما جرى ، فأدخلها اسحاق إلى خباء سارة أمه ، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها ، فتعزى اسحاق بعد موت أمه .

« وعاد إبراهيم – الإصحاح الخامس والعشرون – فأخذ زوجة اسمها قطورة ، فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا ، وولد يقشان شباوددان ، وكان بنو ددان اشوريم ولوشيطم ولأميم ، وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيدا ع وألدعة : جميع هؤلاء بنو قطورة .

« وأعطى إبراهيم اسحاق كل ما كان له ، وأما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن اسحاق ابنه شرقا ، إلى أرض المشرق ، وهو بعد بقيد الحياة .

« وهذه أيام سنى حياة إبراهيم التى عاشها : مائة وخمس وسبعون سنة ، وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبه صالحة ، شيخًا سبعان أياما ،

وانضم إلى قومه ، ودفنه اسحاق واسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا .

« وهذه مواليد اسماعيل بن إبراهيم الذين ولدت هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم .. ! نبايوث بكر اسماعيل ، وقيدار ، وأدبئيل ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، ويطور ، وناقيش ، وقدمة .. هؤلاء هم بنو اسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم : اثنى عشر رئيسا حسب قبائلهم ، وهذه سنو حياة اسماعيل : مائة وسبع وثلاثون سنة . وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه وسكنوا من حويله إلى شور التى أمام مصر.

« وهذه مواليد اسحاق بن إبراهيم .. ولد إبراهيم اسحاق ، وكان اسحاق ابن أربعين سنة لمَّا اتخذ لنفسه زوجته رفقة بنت بتوئيل الأرامى أخت لابان الأرامى ، من فدان أرام .

« وصلى اسحاق إلى الرب لأجل امرأته ، لأنها كانت عاقرا ، فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته ، وتزاحم الولدان فى بطنها ، فقالت : إن كان هكذا فلم أنا عائشة ؟ .. ومضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب : فى بطنك امتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير .

« فلما أكملت أيامها لتلد إذ فى بطنها توأمان ، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر ، فدعوا اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه يعقوب ، وكان اسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما .

« فكبر الغلامان ، وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد : إنسان البرية ، ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام .

« فأحب اسحاق عيسو لأن فى فمه صيدا .

« وأما رفقة فكانت تحب يعقوب .

« وطبخ يعقوب طبيخًا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا ، فقال عيسو ليعقوب : أطعمنى من هذا الأحمر ، لأنى قد أعييت . لذلك دعى اسمه أدوم .

« فقال يعقوب بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض إلى الموت . فما جدوى البكورية ؟ فقال يعقوب : أحلف لى اليوم ، فحلف له فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس ، فأكل وشرب وقام ومضى .

وتكرر فى الإصحاح السادس والعشرين وصف الحادث الذى جرى لإبراهيم مع إبيمالك ، فجاء فيه أنه حدث جوع غير الجوع الأول الذى كان فى أيام إبراهيم فذهب اسحاق إلى إبيمالك ملك الفلسطينيين .

« وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى أختى ، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث إذ طالت الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر ، وإذا اسحاق يلاعب رفقة امرأته ، فدعا أبيمالك اسحاق وقال : إنما هى امرأتك . فكيف قلت هى أختى ؟ فقال له اسحاق لأنى قلت لعلى أموت بسببها ، فقال أبيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا ؟ لولا

قليل لأضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا ، فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلا : الذى يمس هذا الرجل وامرأته موتا يموت » .

وفى الإصحاح التاسع والعشرين أن يعقوب تزوج راحيل بنت خاله لأبان ، وكانت عاقرا كما جاء فى الإصحاح الثلاثين ، فقالت : هى ذا جاريتى بلهة . ادخل عليها فتلد على ركبتى وأرزق أنا أيضا منها بنين ، فأعطته بلهة جاريتها زوجة ، فدخل عليها يعقوب .

« .. وذكر الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها ، فحبلت وولدت ابنا ، فقالت قد نزع الله عاري ودعت اسمه يوسف .

* * *

وفى الإصحاح الثانى والثلاثين يسمى يعقوب إسرائيل ، وذاك أنه بعد أن عاد من رحلته إلى العراق « بقي وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه ، وقال : أطلقنى لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى . فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ! فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : أخبرنى باسمك ، فقال : لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلا : لأنى نظرت الله وجها لوجه .

* * *

وتذكر الإصحاحات التالية خبر المجاعة التى عمت الأرض ، وتروى هجرة يعقوب وأبنائه إلى مصر ، حيث بيع يوسف وولى عملا من أعمال الدولة فى الجيل التالى لجيل إبراهيم كما يؤخذ من هذا السياق ، وقد انقسمت ذريته إلى أدوميين وإسرائيليين .

* * *

وفى العهد القديم عدا هذه السيرة المفصلة ، أشارات كثيرة إلى إبراهيم عليه السلام ، منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ، ومنها ما يصفه ويصف بعض أخباره .

فمن الإشارات التى لها شأن فى سيرته ما جاء فى كتاب يشوع أو الرسل بعد موسى عليه السلام ، ففى الإصحاح الرابع والعشرين من هذا الكتاب يقول صاحبه عن ديانة الآباء :

« قال يشوع لجميع الشعب : هكذا قال الرب إله إسرائيل : آباؤكم سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا ألهة أخرى ، فأخذت إبراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به فى كل أرض كنعان » .

ووصف إبراهيم بخليل الله فى كتاب الأيام الثانى – وهو على الأرجح من جمع النبى عزرا – حيث يقول فى الإصحاح العشرين :

« ألست أنت الهنا الذى طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك إيسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد » .

ووصف بهذه الصفة فى الإصحاح الحادى والأربعين من كتاب أشعيا حيث يقول :

« وأما أنت يا إسرائيل عبدى ، يا يعقوب الذى اخترته ، نسل إبراهيم خليلى » .

* * *

وتلك هى جملة العبارات التى تدخل فى سيرة الخليل من كتب العهد القديم ، وأكثرها تفصيلا ما ورد فى سفر التكوين من الكتب الخمسة التى يطلق عليها فى الغالب اسم التوراة .

وقبل الانتقال إلى ما ورد عن الخليل فى المراجع الإسرائيلية الأخرى ، كالتلمود والمدراش وما إليهما ، نشفع ما تقدم بكلمة لازمة عن تعليقات الشراح على سفر التكوين والكتب الخمسة ، فإن هذه التعليقات لا غنى عنها للباحث المستقصى عند مراجعة الأسانيد المتعددة ، ولها علاقة وثيقة بفهم السيرة كلها فيما تستمده من تلك الأسانيد .

اتفق شراح العهد القديم على تعدد النسخ التى جمعت منها كتبه الخمسة ، بصفة خاصة .

وأهم هذه النسخ هى نسخة الوهيم ونسخة يهوا ونسخة الكهنة أو المسجلين ، ولا داعى فى هذا الصدد لإضافة النسخة المسماة بنسخة التثنية ، لأنها تتناول الأسلوب اللغوى الذى لا يسهل التبسط فى خصائصه عند الكتابة عنه بلغتنا العربية .

سميت نسخة « الوهيم » بهذا الاسم لأن « الوهيم » هى الكلمة التى تطلق فيها على الآلة .

وسميت النسخة الأخرى باسم « يهوا » لأنه اسم الإله فيها ، وتسمى النسخة الثالثة باسم الكهنة أو المسجلين ، لأنهم جمعوا كتب الشريعة وعنوا فيها عناية خاصة بالشعائر والمراسم وأخبار الهيكل والعبادة .

ومن هذه النسخ ما كتب على أيام المملكة الإسرائيلية ، ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، وأقدمها عهدا بينها وبين عصر الخليل ما يبلغ ألف سنة .

وقد اجتهد الكهنة فى تكملة الأجزاء التى بين أيديهم ، فقابلوا بين الأخبار المتعددة وتمموا بعضها ببعض ، وبقيت آثار المراجع المتعددة فى مواضع نشير إلى بعضها بما فيه الكفاية للمقابلة بين أخبار السيرة فى جملتها .

ففى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم بئر سبع بما دار من الحديث بين الخليل وأبيمالك .

سأل أبيمالك : ما هى هذه السبع نعاج التى أقمتها وحدها ؟

قال الخليل : إنك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون شهادة لى بحفر البئر . لذلك دعا الموضع بئر سبع .

وفى الإصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان بما يلى :

« وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد اسحاق جاءوا وأخبروه عن البئر التى حفروا وقالوا له : قد وجدنا ماء . فدعاها شبعة ، لذلك اسم المدينة بئر سبع اليوم » .

وفى الإصحاح الأول عن خلق الحيوان والإنسان : « فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب عليها » .

وفى الإصحاح الثانى : « وجبل الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية ، وغرس الإله جنة فى عدن شرقا ، ووضع هناك آدم الذى جبله ، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر جيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة » .

ونص الإصحاح الثامن عشر من سفر اللاوين على تحريم الزواج بالأخت من الأب أو من الأم « المولودة فى البيت أو المولودة خارجا .. »

وفى الإصحاح الثالث عشر من سفر صموبل الثانى تقول تامار لأخيها أمنون : « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك » .

* * *

وقد أطال الشراح مقابلة المراجع ولا سيما المراجع التى تذكر الأماكن والإعلام والأعمار وما يعنينا فى هذا السياق هو ملاحظتهم التى خرجوا بها من المقابلة والموازنة فيما يتعلق بسيرة الخليل .

فمنها أن اسم البلد الذى ولد فيه الخليل قد ورد فى بعض النسخ ولم يكن موجودا فى نسخ أخرى فأضيف إليها للمضاهاة بينها .

ومن النسخ ما ورد فيه عهد الميراث لإبراهيم ، ومنها ما لم يرد فيه هذا العهد قبل مولد اسماعيل .

ويرى كثيرون من الشراح أن الإعلام قد تطلق على القبائل كما تطلق على رؤسها وأبائها ، ومن هنا ينعت إبراهيم بالعبرانى وينعت ابن أخيه بالآرامى ، أو يختلف الفرعان من أصل واحد ، فتعمل إحدى القبائل فى الصيد بالبادية ، وتعمل أختها فى الزرع والمدن حول الحاضرة .

وقد بين الشراح على العموم أن الأعمار تناقصت فى الكتب الأخيرة ، وإن الوحى بالرؤيا فى هذه الكتب أعم من الوحى بالمشاهدة والمخاطبة .

وسنعود إلى استخلاص الفائدة من هذه المقابلات والتعليقات عند الكلام على تفصيلات السيرة ، بعد استيفاء مراجعها من الكتب الدينية والمصادر التاريخية وغيرها .

المشنا

أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة هو كتب المشنا القديمة « فالمقرأ » هو ما يحفظ بالقراءة فى الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة .

و « المشنا » هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ، ومنه التلمود على نشأته الأولى .

وأصل مادة الكلمة من شنا أى كرر ، وهى تقابل فى العربية مادة ثنى بمعنى أعاد ثانية ، واستعيرت للإعادة التى يراد بها حفظ الكلام المعاد .

وترجع مأثورات « المشنا » إلى أيام النفى فى بابل ، حيث أقامت عشائر من اليهود منفية عن فلسطين .

وكان الغرض من « المشنا » تفسير التوراة والتعليق عليها ، وتشتمل هذه التفسيرات على عظات المعابد وتأويلات الفقهاء وشروح المفسرين ممن بلغوا مرتبة الرئاسة فى التعليم .

وقد حصرت المشنا فى القرن الثانى للميلاد ، ودنت بعد الاعتماد على الرواية أو التعليقات المتفرقة ، ومعظمها محفوظ بالعبرية العامية التى يفهمها المستعمرون إلى مواعظ البيع وأحاديث الفقهاء .

واشتملت عند جمعها على ستة أقسام ، واشتملت هذه الأقسام على ثلاثة وستين فصلاً واشتملت الفصول على نبذ تبلغ خمسمائة وثلاثا وعشرين ، أضيفت إليها نبذة بعد ذلك فبلغت خمسمائة وأربعا وعشرين .

أما الأقسام الستة فهى قسم الزرع وهو خاص بالمزروعات والمحصولات ومعاملاتها ، وقسم الموعد وهو خاص بأوقات المواسم والأعياد ، وقسم النساء وهو خاص بالزواج والطلاق وما يتصل بهما من الأحوال الشخصية ، وقسم العروض والتعويضات وهو خاص بسائر المعاملات والمحاكمات وقسم المقدسات وهو خاص بشعائر العبادة ، وقسم الطهارة وهو خاص بالغسل والتطهر من النجاسات التى حرم معها القيام بالفرائض الدينية .

وزيدت على المشنا فى العصور الحديثة كتب من قبيلها تسمى با « لتصافوت » من مادة يصاف أى يضاف ، ومعناها الإضافات ، وأكثر هذه الإضافات من وضع الكهان الأوروبيين إلى القرن الثانى عشر للميلاد .

ولم تشتمل المشنا على جميع المأثورات ، بل بقيت خارجا منها أحكام تنقل بالرواية ، وتعرف « بالبرايتا » أى البرانية .

وانتهى تمحيص المشنا القديمة إلى اختيار طائفة من الأحكام المتفق عليها تسمى الجمارة أى التكملة .

ومن مرويات المشنا والجمارة تجتمع كتب التلمود ، وهى قسمان : تلمود بابل ، وتلمود فلسطين ، ولكن التلمود لا يحتوى كل ما فى المشنا والجمارة .

ويعرف بعض المأثورات الإسرائيلية باسم « المدراش » أو الدراسات ، وتلك تتضمن أقوال الفقهاء وحواشيهم على النصوص والمحفوظات وأشهرها مدراش رباه التى تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة ، وقد تمت عند القرن السادس للميلاد ، وترجع فى أسانيدها كما جاء فيها إلى أيام إبراهيم ، ولكنها عند اليهود على الدرجات ، فمنها ما يعول عليه ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية والأمثال الوعظية ، تساق للاعتبار ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد .

ويظن بعض شراح المان مثل جرنبوم Grunbaum إن من المدراش نبذا منقولة عن اللغة العربية ، ولكن المقابلة بين رواياتها والروايات الإسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قريبة ، وأنها على كل حال من مصادر غير إسلامية .

بل يظن حرنبوم أن بعض العبارات ترجمة حرفية من القرآن الكريم ، كما جاء فى كتاب من المدراش أن الله قال : « ليوهب البرد والعزاء لخادمى إبراهيم » والكلمة فيها معنى العزاء والراحة والسلام .

وسنشير إلى هذه الملاحظات فى مواضعها ، ونكتفى فيما يلى بالمراجع الضرورية على سبيل التمثيل لكل أسلوب من أساليب الرواية والتدوين فى المصادر الإسرائيلية ، ونبدأ بماله علاقة بسيرة الخليل من عهد الطوفان .

* * *

يطلق اسم خليل الله وحبيب الله فى الكتب الإسرائيلية على أنبياء غير إبراهيم ، أشهرهم موسى ويعقوب وسليمان ، ويغلب على الكتب المتأخرة وصفه بالحبيب ، ويعتقدون أنه هو المقصود بقول أرميا فى الإصحاح الحادى عشر « حبيبى فى بيتى » .

وفى كثير من كتب المدراش والتعليم يقال إن الدنيا خلقت من أجله ، وإن أبناء نوح ضلوا عن سواء السبيل وعبدوا الأصنام وكان جد إبراهيم يدعى (رو) فسمى ابنه (سيروج) أى ذهبوا بعيداً ، وصدق فى هذه التسمية ، لأن سيروج حين كبر وولد له ابن سماه ناحور وعلمه السحر والتنجيم وعبادة الأصنام ، وكان الشيطان (مسطيما) يرسل أعوانه لكيد البشر ويطلقهم على البذور وهى على وجه الأرض كأنهم الغربان لتلتقطها وتفسدها . لهذا سمى ناحور ابنه تيرج أو تارح . ويقول شراح كتاب « اليوبيل » أحد هذه الكتب التعليمية : إن الاسم بهذا المعنى غامض ، ولكنه قد يرجع إلى كلمة آرامية بمعنى المحو والشحوب .

وتزوج تارح من ايتمالى بنت كرناب ، فرزقا إبراهيم . وكان مولده مرصودا فى الكواكب فاطلع عليه النمرود واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات وإغداق العطايا والجوائز على أهليهم ليفرحوا بمولد البنات وأحس تارح أن امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق ذلك صعد الجنين إلى صدر أمه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل ، وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت إلى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة وهى تدعو له ، فبقى ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث فى الكهف أقل من ذلك على روايات أخرى ، وأرسل الله

جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان .

وخرج من الكهف ليلا وهو فى الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هى الأرباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا ! بل هذه هى الرب . فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا .. فلما أفل قال : ما هذه بأرباب . إنما الرب المعبود هو الذى يديرها ويسيرها ويبديها ويخفيها .

وفى بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد العشرين يوما حيث تركته فوجدت فى طريقها صبيا ناميا فسألها :

ماذا جاء بك إلى الصحراء ؟

فأنبأته بقصتها ، عرفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ويتكلم ولما يمض على مولده شهر واحد .

قال لها : إنها قدرة الله الذى يرى ولا يرى .

ويظن جامعو الأساطير اليهودية أن وصف الله بهذه الصفة منقول من أصل عربى إطلع عليه يهود الأندلس ، ثم اختلفت تفصيلاته عند نقلها إلى العبرية .

قالت أمه وقد ازداد عجبها : أاله غير النمرود ؟

قال نعم يا أماه : ورب السماوات والأرض ، ورب النمرود بن كنعان . فاذهبى وبلغى النمرود ما سمعت .

وأنبات زوجها تارح وكان أميرا من أمراء الملك ، فذهب إليه يطلب لقاءه ، فأذن له باللقاء فسجد بين يديه ، ولم يكن من عادتهم إذا سجد أحدهم بين يدى الملك أن يرفع رأسه بغير أمره ، فلما أمره الملك أن ينهض ويتكلم روى له القصة ففزع وفزع أعوانه ووزراؤه ، ثم ملكوا جأشهم وقالوا له : علام هذا الفزع من صبى لا حول له ولا قوة ومن أمثاله فى المملكة ألوف وألوف .

قال لهم النمرود : هل رأيتم صبيا فى العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان ؟

وخشى الشيطان أن يسبق الإيمان إلى قلب الملك فبرز لهم وأزال ما بهم من الروع ، وحرض على قتل الصبى ، فحشد له جندا من القادة الفرسان وخرجوا إلى الكهف الذى قيل لهم أن الصبى مختبىء فيه ، فإذا بينه وبينهم سحب لا ينفذ النظر إلى ما وراءها ، وإذا بهم مجفلون لا يقدرون على الثبات .

فلما عادوا إلى النمرود شرحوا له ما عاينوه قال لهم : لا مقام لنا بهذه الديار ! وخرج من بلده إلى أرض بابل فلحق به إبراهيم على جناح جبريل ، ولقى هناك أبويه ، ثم بدأ بالدعوة إلى الله :

الإله الأحد الذى لا إله غيره : رب السماوات ورب الأرباب ، ورب النمرود . وأنذرهم أن يتركوا عبادة الصنم الذى صنعوه على مثال النمرود ، فإن له فما ولكنه لا ينطق ، وعينا ولكنه لا يبصر ، وأذنا ولكنه لا يسمع ، وقدما ولكنه لا يسعى ولا ينفع نفسه ولا يغنى عن غيره شيئًا .

وأسرع أبوه إلى الملك يبلغه أن ابنه إبراهيم طوى مسيرة أربعين يوما فى أقل من يوم ، ثم لحق به إبراهيم إلى قصر الملك فهز عرشه بيديه وصاح به : « أيها الشقى ! إنك تنكر الحق ، وتنكر الله الحى الصمد ، وتنكر عبده إبراهيم خادم بيته الأمين » .

ويخاف النمرود فيأمر تارح أن يعود بابنه إلى موطنه ، ثم تتكاثر الروايات فى عشرات من المصادر من كتب المدراش والتفسيرات حول ما حدث بعد ذلك بين إبراهيم وقومه وبينه وبين الملأ والملك وكهنة الأرباب ، مما تغنى هذه الأمثلة عن تفصيله واستقصائه ، وبعضه كما تقدم معول عليه عند اليهود ، وبعضه من قبيل ضرب الأمثال بالنوادر والأعاجيب .

وليس من المطلوب أن نتتبع هذه القصص والنوادر لأنها تستوعب ألوف الصفحات ، ولكننا نأخذ منها ما ينتظم فى أغراض هذا الكتاب ، ومنها ما يدل على تفكير واضعيه ، أو يفيد عند المقابلة بين المصادر المتعارضة ، أو يلاحظ فيه الوضع لطرافته الأدبية والفنية ، أو يتمم صورة أخرى ناقصة فى خبر من الأخبار ، فمما ورد فى « مدراش رباه » أن أباه حنق عليه حين كسر الأصنام فخاصمه إلى النمرود ، فسأله النمرود : إن كنت لا تعبد الصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟

قال إبراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها . قال النمرود : فاعبد الماء إذن ؟

قال إبراهيم : وأولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله .

قال النمرود : فمالك إذن لا تعبد السحاب .

قال إبراهيم : وأولى من السحاب بالعبادة ريح تبدده وتسير به من فضاء إلى فضاء .

قال النمرود : فمالك لا تعبد الريح ؟

قال إبراهيم : إن الإنسان يحتويها بأنفاسه فهو إذن أحق منها بالعبادة .

ومغزى الحوار أن عقل الإنسان قادر بالنظر فى خلق الله أن يصل إلى معرفة الخالق وينكر عبادة الأوثان .

فلما أعيا النمرود أن يخضعه سجنه ومنع عنه الطعام والماء ، ومضى عليه عام فى غيابته فأيقن الحارس أنه قد مات ، ولكنه ناداه : يا إبراهيم ! أأنت بقيد الحياة ؟ فسمع جوابه : نعم أنا بقيد الحياة .

فأمر الملك بضرب عنقه . فلم يعمل فيه السيف ، فأوقد له نارا ودفع به إلى أحد أعوانه ليقذف به فيها ، فلما قاربها خرج من الأتون لسان من النار والتهم الجلاد ولم يقترب من إبراهيم .

فتشاور الملأ عند الملك فى أمره ، فاتفقوا على إحراقه وإلقائه فى النار من منجنيق بعيد مخافة من ألسنة النار . وضرع الملائكة إلى الله أن ينجيه ، فأذن لهم أن يعملوا لنجاته ما يستطيعون ، ولكنه أبى أن يعتمد فى نجاته على أحد غير الله ، وإذا بالجمر من حوله كأنه فراش من الورد والريحان .

ولم يصدق النمرود أنها معجزة من الله ، بل قال لإبراهيم : إنها من سحرك وحيلتك .. أما الأمراء والوزراء فخذلوا الملك وآمنوا برب إبراهيم .

ولم تذكر التوراة أن إبراهيم ألقى فى النار ، وإنما ورد فى سفر دانيال من أخبار بابل أن نبو خذ نصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لأنهم لم يسجدوا لصنم من الذهب .. « حينئذ امتلأ نبو خذ نصر غيظا وتغير منظر وجهه على شدرخ ، وميشخ وعبد نغو .. وأمر بأن يحمى الأتون سبعة أضعاف .. وأمر جبابرة القوة فى جيشه بأن يوثقوا شدرخ ، وميشخ ، وعبد نغو ، ويلقوهم فى أتون النار المتقدة ، ثم أوثق هؤلاء الرجال فى سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم وألقوا فى وسط أتون النار المتقدة .. والأتون قد حمى جدا فقتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ ، وميشخ ، وعبد نغو .. هؤلاء الثلاثة سقطوا موثقين فى وسط الأتون .. حينئذ تحير (نبو خذ نصر) الملك وقام مسرعا وسأل مشيرته : ألم نلق ثلاثة رجال موثقين فى وسط النار ؟ فأجابوا وقالوا : نعم أيها الملك ! . قال : ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون فى وسط النار وما بهم ضرر ، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة .

ثم اقترب نبو خذ نصر إلى باب أتون النار المتقدة ونادى فقال : يا شدرخ وميشخ وعبد نغو ، يا عبيد الله العلى . اخرجوا وتعالوا ! .. فخرجوا ، واجتمعت المرازبة والشحن والولاة مشيرو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم ولم تحترق شعرة من رؤوسهم ولم تتغير سراويلهم ورائحة النار لم تأت عليهم ، فأجاب نبو خذ نصر وقال تبارك إله شدرخ وميشخ وعبد نغو الذى أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه » .

والشبه بين هذه القصة وقصة إبراهيم ظاهر ، وسماع دانيال بها في بابل له دلالته في هذا الصدد ، ولكن بعض الشراح يزعم أن القصة لم تكن معروفة قبل يوناثان بن عزبيل الذي كان يجهل البابلية فالتبس عليه معنى (أور) لأنها بالكلدانية تعنى النار وبالعبرية تعنى النور ، وظن أن نجاة إبرهيم من « أور الكلدانيين » يعنى نجاته من نار الكلدانيين .

ولكن هؤلاء الشراح ينسون أن القصة قديمة وردت في باب الفصحيات من القسم الثاني من المشنا ، وهو قسم المواعيد والمواقيت[١] ، وأنها أطول أصولا وفروعا من أن تبنى على خطأ في ترجمة كلمة ، ولا سيما الكلمة التي يعرفها كل يهودي يذكر « أورشليم » ويفهم معنى أور ومعنى شليم ، وهما معروفان لأجهل القوم بالعبرية ، ومن معانيها الشعبية الشائعة دار السلام ، على صواب أو على خطأ .

وزعم شابيرا Shapira أن القصة من وضع كعب الأحبار ، ولا تعويل على أقوال شابيرا هذا لأنه زور بعض الوثائق على المتحف البريطاني ، وانكشف تزويره فبخع نفسه في روتردام (١٨٨٤) .

ومن المعلوم أن ترجوم يوناثان - أي ترجمته - كان المعتمد الأكبر فيها على شروح الربانيين ، ولم تكن نقلا مباشرا من نصص التوراة .

ولابد أن يلاحظ هنا أن الكنيسة السريانية التي يعيش أتباعها في بلاد الكلدان القديمة بين سورية والعراق ، والتي اشتهر آباؤها بدراسة السريانية - وهي الآرامية بعينها - لا تعتبر أن القصة ناشئة من غلطة في

---

(١) صحيفة ٢١٢ من المجلد الخامس من أساطير اليهود المتقدم ذكره .

الترجمة وتقيم لنجاة الخليل من النار حفلا سنويا فى الخامس والعشرين من شهر كانون الثانى .

على أنه من الراجح جداً أن اليهود رجعوا إلى المصادر العربية فى رواية قصص المدراش وما إليها ، لأنهم كادوا أن ينحصروا فى بلاد الدولة العربية من صدر الإسلام إلى القرن الثالث للهجرة وكادت بحوثهم الفقهية فى ديانتهم أن تكون اقتباسا من بحوث علماء الكلام المسلمين ، وكادت اللغة العربية أن تكون معتمدهم الوحيد فى الثقافة العليا والثقافة العامة ، حتى كانوا يكتبون العربية أحيانا بحروف عبرية ، ولكن الاحتراس واجب على أية حال من تلك العلل التى يستند إليها بعض المستشرقين فى نسبة الأخبار إلى المصادر الإسلامية .

ومن أمثلة هذه العلل .. أن بعضهم يرد إلى المصادر الإسلامية قصص المدراش التى تقول إن جبريل هدى إبراهيم إلى عين ماء يغتسل فيها قبل العبادة ، فإن التطهر بالاغتسال قبل العبادة شعيره قديمة فى الأديان وليست مقصورة على الوضوء فى الإسلام ، وقد قيل أن الصابئة محرفة من السابحة لأنها تفرض الاغتسال فى شعائرها قبل كثير من العبادات .. ولابد من التفرقة بين المصادر العربية والمصادر الإسلامية فى كثير من الروايات ، فقد يكون المصدر عربياً إسرائيلياً لا علاقة له بتاريخ الإسلام .

* * *

ومن أشهر الروايات فى النمرود والخليل تلك القصة التى يعللون بها اختلاف الألسن بين الأمم ، وخلاصتها أن النمرود هذا أراد أن يتحدى إله إبراهيم فبنى له برجا عاليا وصعد عليه ليناجز الله فى سمائه ، ثم طفق

يرمى السماء بالسهام حتى عاد إليه سهم منها وقد أصطبغ بالنجيع الأحمر ، فخيل إليه أنه أصاب مرماه ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض وسقط معه قومه ، ونهضوا من سقطتهم وهم يتصايحون بكلام لا يفهمونه لأن السماء أرسلت عليهم سهاما من الصواعق زلزلت البرج وقوضت أركانه وتركتهم فى بلبال حائرين لا يدرون ما يفعلون وما يقولون ، ولا يفقه السامع منهم ما يقال له أو يفعله فى حيرته . قال الرواة : ولهذا سميت المدينة فى موضع البرج « بابل » من تبلبل الألسنة والأفكار .

* * *

ويندر الاتفاق على أصل قصة واحدة من القصص التى تفيض بها كتب المدراش وحواشيها ، بل تروى الأسماء والأعلام أحيانا على روايات متعددة ، ومن ذلك أنهم يذكرون سارة باسم اسكاح Iscah ويقولون إنها مأخوذة من النظر ، ويوحدون بين اسم إبراهيم واسم ايثان الأزراحى فى المزمور التاسع والثمانين ، ويقولون أن داود كتبه بمشاركة الخليل .

وللتوحيد بين الاسمين هنا دلالة خاصة ، فإن إيثان الأزراحى منسوب إلى زراح وينطق بهمزة فى أوله على العادة فى النطق بالساكن ، وقد تكون الحاء والياء للنسبة كما يقولون فى (مزراحى) بمعنى مصرى ، ويكون ايثان منسوبا إلى آزر ، وهو الاسم الذى ذكر فى القرآن الكريم كما سيأتى بيانه فى المصادر الإسلامية .

ومن الواجب أن يلتفت هنا إلى المقاربة بين زارح وزارع وتارح ، وقد تقدم أن لاسم تارح علاقة بحبوب الزرع التى تلتقط قبل تمكنها من التربة .

فلا محل إذن لنقد الاسم كما جاء فى القرآن الكريم ، اعتمادا على ذلك الاختلاف اليسير فى اللفظ القديم ، وقد ذكر يوسبيوس Eusobiws المؤرخ المسيحى اليونانى أن أبا إبراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم بعضهم - ومنهم سنكلر تسديل ، صاحب كتاب مصادر الإسلام ، وهو من أشد المتعصبين قدحا فى الإسلام - أن للاسم أصلا فى الفارسية القديمة بمعنى النار .

* * *

ومن الاختلاف فى الأخبار المدراشية التى اتصلت بالتاريخ أن بعضها أنكر أن يقال عن الخليل إنه عالم بالنجوم ، ورد على الربيين الأقدمين الذين زعموا أنه كان يحمل فى قلبه زيجا فلكيا يكشف به الغيب لمن يسألونه من ملوك الشرق والغرب ، فقال صاحب مدراش رباه أنه نبى وليس بمنجم ، واتصلت هذه الروايات المدراشية بالتاريخ فقال يوسيفوس المؤرخ الإسرائيلى المشهور : إن الخليل درس علم النجوم ولكن فى مصر لا فى بابل واستند فى ذلك إلى رواية ارتبانوس Artapanus الذى زعم أنه أقام بمصر عشرين سنة واطلع على أسرار الكهانة وعلم الفلك وطوالع النجوم ، وفى قصة أخرى لم يذكرها يوسيفوس يقال : إن إبراهيم هو الذى علم المصريين الفلك والتنجيم .

* * *

ولكن كتب المدراش تتفق على وصف الخليل بالسماحة والكرم والعطف على خلق الله من الإنسان والحيوان ، ومن أحاديثها فى ذلك : أن إبراهيم

سأل ملكى صادق : كيف خرجت سالما من سفينة نوح ؟ فقال له بالخير الذى فعلناه .

قال إبراهيم وما الخير الذى تفعله فى سفينته ؟ هل كان فى السفينة من فقير تسدى إليه المعروف ؟ إن نوحا قد حمل معه بنيه ، فهل كان فيهم فقير ؟

قال ملكى صادق : بل كان معها الحيوان والطير وكنا لا ننام حتى نطعمها ونسقيها .

وقد عاش إبراهيم حياته يطعم الفقير ويحسن إلى الإنسان والحيوان ، ويفتح بابه للضيفان ولا يجلس إلى الطعام إلا إذا نادى على الرائح والغادى فى الطريق ليجلس معه إلى طعامه .

وما من علامة أدل على صدق النسب إلى إبراهيم من نظرة سليمة لا تحسد ، ونفس مطمئنة وقلب وديع ، وتذكر مدراش ربه شفيع أمته يوم القيامة ، وأنه يقف على باب جهنم فلا يدع إسرائيلياً مختونا يدخلها . ومن عظمت سيئاته منهم وحرم التوبة فى آخرته فلن يدخل النار مختونا ، بل توضع له جلدة من جلود الأطفال الذين ماتوا قبل الختان . وصحت لهم نعمة الغفران .

* * *

أما (سارة) فقد خصتها (المشنا) بقسط كبير من الأخبار النوادر ، ولم يخل منها خبر أو نادرة من خلاف كثير .

فهى تارة أخت غير شقيقه لإبراهيم ، وهى تارة بنت أخيه الذى مات قبل الهجرة إلى كنعان .

وهى المرأة الوحيدة التى خاطبها الله ، وهى نبية تنظر إلى الغيب وتدعو الله أن ينقذ ذرية إبراهيم مما سيلقون من المحن والشدائد ، ولكنها فى مواطن كثيرة تعاقب لمخالفة السنن وضعف اليقين .

ولم تخلق امرأة قط بجمال سارة . فأجمل النساء بالقياس إليها كالقرد الممسوخ ، وقد بلغ من فتنة جمالها أن إبراهيم لم يملأ منها عينيه وإنما لمح خيالها فى الماء وهم يعبرون بعض الجداول إلى مصر ، فخاف على فرعون وقومه فتنتها ، وحملها فى تابوت وهم يعبرون تخوم الديار .

وسأله عمال المكوس عما فى التابوت فأنبأهم أنه شعير .. قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال : خذوا ما تشاءون ، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار ، فأجابهم إلى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبا فقبل وأعطاهم سؤلهم . فحيرهم قبوله كل ما يسمونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم ، ففتحوا التابوت عنوة فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون .

ولما حاول فرعون أن يقترب منها رصد له حارسها من الملائكة فجعل يضربه على يده كلما بسطها وعلى قدمه كلما سعى إليها ، وأصبح فإذا هو مصاب بالجذام وبالعنة ، وإذا بنذير من الله ليرسلن الوباء على فرعون وقومه أن لم يرجع سارة إلى إبراهيم .

ويفسر بعض المدراش عقمها بأن الله أحب أن يسمع صلواتها ، ويفسر عقمها في مدراش آخر بأنه قد نزهت عن خلقه الرحم ، ويروى في كثير من الحواشي أنها أرضعت مائة طفل يوم ختان اسحاق .

وبعض الحواشي يتكلم عن فرعون إبراهيم وفرعون يوسف كأنهما ملك واحد .

فلما شكا فوطيفار إلى فرعون لأنه أقام عبده الذي اشتراه بعشرين ديارا حاكما على مصر – يعني يوسف الصديق – قال يوسف : بل أنت اقترفت خطيئة عظمى يوم اشتريت أميرا من نسل سام بالثمن كما يشترى العبيد ، وإنما يشترى بالثمن أبناء كنعان ، وإن أردت برهانا على نسبي فدونك التمثال الذي صنعه فرعون لجدتي سارة ، فهو ينبئك بالشبه الذي بيني وبينها ، ثم جاءوا بالتمثال فإذا بالشبه بينه وبين يوسف جد قريب .

والكلام على أبي سارة يدور تارة على حاران وتارة على تارح .

فمن أقوال الحواشي عن حاران أنه احترق بالنار حين اقترب منها ، لأنه قاربها ممتحنا لقدرة الله ، ومن أقوالها عن تارح أنه عاش حتى رأى اسحق في الخامسة والثلاثين من عمره .

وأشهر الروايات عن تارح أنه كان مثالا يصنع الأصنام ، وأن إبراهيم اهتدى إلى ضلال هذه العبادة لأنه رأى أباه يصنعها ويصلحها ، وكان يبيعها لأبيه ، فعجب للذين يشترونها كيف يعبدون صنما مصنوعا بالأمس ومنهم من جاوز الخمسين .

وكان لناحور – أخى إبراهيم – صنم يسمى زيوكس Zucheus وإلى جانبه صنم يسمى جواَف ، وأولهما مصنوع من الذهب والثانى مصنوع من الفضة ، وأما الأصنام الأخرى فمن الخشب أو الطين .

وحاور إبراهيم أباه – وقد رأى الأصنام تحترق ذات يوم – فقال له : يا أبت إن النار أحق بعبادتك من أصنامك ، لأنها تحرقها ، ثم قال : « بيد أنى لا أحسب النار إلها لأن الماء يخمدها ، ولا أحسب الماء إلها لأن الأرض تبتلعه ، ولا أحسب القمر والنجوم التى تظهر فى الظلام آلهة لأنها تحجب عند طلوع النهار ، وإنما الإله القدير على كل شىء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها ، وخالقى وهادى إلى الحق المبين .

ولم يستمع إليه أبوه فذهب إلى أمه وسألها أن تعد طعاماً للأصنام ثم أهوى على الأصنام يحطمها ، ووضع القدوم فى يد كبيرها ، وأسرع أبوه على صوت الحطام فسأله : ماذا دهاها ؟ قال : هذا أنحى عليها فكسرها ولا يزال القدوم فى يديه ، فصاح به أبوه : إنك لتكذب فما فى وسع هذا الصنم أن يفعل ما زعمت : قال إبراهيم : عجبا لك يا أبتاه ! تعبد هذه العجزة التى لا تقدر على ضرر ولا نفع ، ثم وثب على الصنم الكبير فأخذ القدوم من يده وضربه فألقاه ، وهرب من وجه أبيه .

ونختم الاقتباس من المرويات الإسرائيلية برواية الكتاب الذى يسمونه سفر التكوين الصغير ، وينسبون إليه الدقة فى إيراد التواريخ بأرقام السنين والاعتدال فى أسلوب الكلام على المبالغات والتشبيهات الوثنية ونعنى به كتاب اليوبيل .

فهذا الكتاب يقول أن نوحا عليه السلام توفى بأرض الكلدانيين سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد ، وأن تيرحا أو تارحا أبا إبراهيم ولد سنة ١٨٠٦ وولدت زوجته « أدنا » ابنه إبراهيم سنة ١٨٧٦ وسماه « إبرام » على اسم أبى جدته لأمه واسمها ملكة ، وهذا بحساب السنين من تاريخ الخليقة .

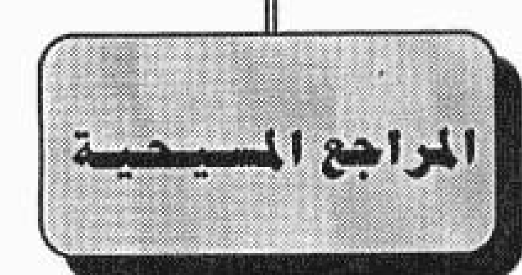
* * *

وهذه الأخبار والنوادر تزدحم بها مئات الحواشى والتفاسير ، ومعظمها مسطور فى المجلدات السبعة التى جمعت أساطير اليهود وسبقت الإشارة إليها ، وكل ما عداها فهو من قبيلها .

وحقيقتها التى نخرج بها منها جميعًا أنها مرويات متواترة بالسماع ، يتناقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، ولا يظهر فيها الاعتماد على النصوص المكتوبة ولاسيما نصوص التوراة ، لأنها تخالف هذه النصوص وتناقضها أحيانا ، وبينها ولا شك روايات متأخرة فى تصورها وروايتها ، ولكنها تبنى على قديم ثابت ولا تخلق شيئا من لا شىء ، فلابد وراءها من أصل منقول غير الأصل المكتوب ، وليست نصوص العهد القديم هى الأصل الوحيد الذى تدور عليه هذه الحواشى والتعليقات .

* * *

الباب الثانى



المصادر المسيحية المتفق عليها بين الكنائس هى الأناجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والحواريين ، وهى المعروفة بالعهد الجديد .

وهذه الكتب لم تزد شيئا على سيرة الخليل كما جاءت فى سفر التكوين وبعض كتب العهد القديم ، ولكنها جاءت بتطور هام فى دعوته كما تلقاها اليهود إلى عصر الميلاد ، ويبدو هذا التطور الهام فى مسائل ثلاث من كبريات المسائل الدينية ، وهى مسألة الحياة بعد الموت ومسألة الوعد الإلهى للشعب المختار وعلاقته بالقومية أو الإنسانية ، ومسألة الشعائر وعلاقتها بالروحانيات والجسديات .

ففى عصر الميلاد كانت طائفة كبيرة من اليهود وهى طائفة الصدوقيين تنكر القيامة بعد الموت ولا ترى فى الكتب الخمسة دليلاً واضحا عليها ، وكانت الطوائف الأخرى تؤمن بالثواب والعقاب على الجملة ، ولكنها لا تتوسع فى وصفهما ، ولا ترجع هذا الوصف إلى سند متفق عليه .

وكانوا إذا وصفوا سوء المصير عبروا عنه بالذهاب إلى الهاوية (شيول) .

وإذا وصفوا الرضوان قالوا عن الميت إنه انضم إلى قومه ، أو اجتمع بقومه ، وفى أذهانهم صورة غامضة عن وجود هؤلاء القوم فى عالم غير عالم الحياة الدنيا .

وانتشرت بين أهل فلسطين من اليهود وغيرهم عقائد المصريين فى اليوم الآخر ، لأنهم كانوا يترددون على الإسكندرية ، كما كان أهل الإسكندرية يترددون عليهم ، ولم تكن فى العالم معاهد للثقافة والبحث

أكبر من معاهدها ، غير مستثنى من ذلك رومه ولا أثينا ولا المدن الشرقية التى كان لها قبل ذلك شأن مذكور فى العلم والفن والحكمة .

انتشرت بينهم كذلك عقائد الفلاسفة اليونانيين فى خلود الروح والتمييز بينهما وبين الأجساد التى يعرض لها الفناء .

فلما ظهرت الدعوة المسيحية جاءت بوصف للعالم الآخر لم يكن معهودا فى كتب اليهود ، ولكنه وصف لا سبيل لهم إلى الاعتراض عليه ، لأنه قائم على قاعدة من دعوة إبراهيم .. ففى مسألة الحياة بعد الموت ضرب لهم السيد المسيح مثل إبراهيم والعازر والرجل الغنى فى العالم الآخر فقال :

« كان إنسان غنى يلبس الأرجوان والبز وينعم كل يوم فى رفاهة ، وكان عند بابه رجل مسكين مطروح مضروب بالقروح يشتهى أن يشبع من الفتات الساقط من مائدته ، بل كانت الكلاب تأتى وتلحس قروحه ، فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم ، ومات الغنى ودفن فرفع عينيه فى الهاوية وهو يتعذب ، ورأى إبراهيم من بعيد والعازر فى حضنه ، فنادى وقال : يا إبراهيم ارحمنى ، وأرسل العازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرد لسانى ، لأنى معذب فى هذا اللهب .

« فقال له إبراهيم : يا ابنى أذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك واستوفى لعازر بلاياه ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب ، فوق هذا بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى أن الذين يريدون العبور من هاهنا إليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا ، فقال : أسألك إذن يا أبت أن ترسله إلى بيت أبى ، لأن لى خمسة أخوة يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا » قال له إبراهيم : عندهم موسى

والأنبياء ليسمعوا منهم ، فقال : لا يا أبى إبراهيم ، بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون : فقال له : إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ، فمن قام لهم من الأموات فما هم بمصدقيه[1] » .

والشراح يقولون : إن هذه العظة يجوز أن تكون خبرا ويجوز أن تكون مثلا ضربة لهم السيد المسيح من قصة معروفة لديهم ، ويقول لوثر كلارك Lowther Clarke شارح التوراة والإنجيل : إن اسم العازر « اليعازر » معناه « إيل آزر » أو الله أعان ، وأنه من الأسماء التى قد تطلق على المجهولين عند ضرب الأمثال (كما نقول فى اللغة العربية زيد وعمرو وبكر وخالد) وقد سبق مثله فى كلام إبراهيم عن خدام داره ... قال : وإن فى مأثورات مصر قصة شبيهة بها عن مصير المحسن والمسىء يجوز أن تكون معروفة بين يهود فلسطين ولم يذكر اسم علم قط فى مثل من أمثلة السيد المسيح غير هذا المثل .

وأيا كان المعتمد من أقوال الشراح فلا خلاف بينهم على أمر واحد ، وهو وصف الحياة الأخرى وما فيها من الثواب والعقاب بهذه الصفة ، فإنه معنى جديد لم يسبق له مثيل فى كتب العهد القديم ، وإذا استثنينا كتاب المكابيين – وهو من الكتب المختلف عليها – فلم تأت عبارة حضن إبراهيم أو غيره من الأنبياء بهذا المعنى فى كتاب من كتب التوراة .

قال « جورج ستمبسوز » Stimpsoz فى مصنفه الذى سماه : « كتاب عن الكتاب » .

« كان رجاء الحياة بعد الموت مقصورا فى أيام العهد القديم على البعث الذى سيعقب ظهور المسيح ، ولكن الكلام عن السماء والجحيم وحضن

---

(١) إنجيل لوقا الإصحاح السادس عشر .

إبراهيم كان شائعا على عهد عيسى (عليه السلام) بين طوائف من اليهود ، ومن ثم مثل الغنى والعازر فى إنجيل لوقا ، وفيه يقول عيسى : فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم . ومن هذه العبارة أصبح حضن إبراهيم مرادفا لمعنى النعيم أو السماء » .

وقد ورد فى سفر أيوب أن نفسه سترى الله بغير الجسد حيث يقول فى الإصحاح التاسع عشر : « وبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله » .. وورد فى المزمور السادس عشر : « إنك لن تترك نفسى فى الهاوية » ... وورد فى الإصحاح الثانى عشر من سفر دانيال : « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار ... » .

ولكن ورد فى سفر التكوين أن الهاوية مصير جميع الموتى ، وجاء على لسان يعقوب فى الإصحاح السابع والثلاثين وهو يبكى على يوسف : « وقال : إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية » .

وهكذا جاء على لسانه فى الاصحاح الثانى والأربعين : « تنزلون شيبتى بحزن إلى الهاوية » .

وجاء على لسان أيوب فى الاصحاح الرابع عشر : « ليتك توارينى فى الهاوية وتخفينى إلى أن ينصرف غضبك وتعين لى أجلاً فتذكرنى » .

وإنما يأتى البعث من القبور بعد ظهور المسيح كما جاء فى الاصحاح السابع من سفر دانيال : « والمملكة والسلطان ، وعظمة المملكة تحت كل السماء ، تعطى لشعب قديسى العلى » .

وكل ما ورد فى العهد القديم باسم جهنم فهو فى الأصل العبرى باسم شيول أو الهاوية .

أما عقيدة الحياة بعد الموت للأبرار والأشرار فقد وضحت فى عصر المسيح على نحو لم يكن معروفاً قبله ، ولم يكن المفهوم فى ذلك العصر أن الأبرار يذهبون فعلاً إلى صدر إبراهيم ، وإنما كان المقصود أن إبراهيم يرحب بذريته فى عالم الرضوان .

* * *

ومن العقائد التى ظهرت مع المسيحية أن رسالة إبراهيم روحية وليست جسدية ، وأن المقصود بذريته مَنْ يسيرون على نهجه ويعملون بوصيته ، فهى رسالة إنسانية وليست عصبية مقصورة على قوم من الأقوام .

ففى الاصحاح الثامن من إنجيل متى يقول السيد المسيح : « **الحق أقول لكم لم أجد فى إسرائيل إيماناً بمقدار هذا ، وأقول لكم : إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السماوات ، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية ..** » .

ومثل هذا من كلام يحيي المغتسل – أو يوحنا المعمدان – : « .. **اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم : لنا إبراهيم أباً ، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم** » .

وتكرر هذا المعنى من كلام السيد المسيح فى انجيل لوقا حيث جاء فى الاصحاح الثالث عشر :

« **إنى أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون من بعد أن يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجا وتقرعون الباب قائلين : يا رب ! يا رب افتح لنا .. يجيب ويقول لكم : لا أعرفكم من أين أنتم ، .. تباعدوا عنا يا جميع فاعلى الظلم . هناك يكون البكاء**

وصرير الأسنان ، متى رأيتم إبراهيم واسحاق ويعقوب وجميع الأنبياء فى ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجاً ، ويأتون من المشارق ومن المغارب ، ومن الشمال والجنوب ، ويتكئون فى ملكوت الله ، وهو ذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين » .

وفى الاصحاح الثانى من إنجيل يوحنا أن المسيح قال لليهود الذين آمنوا به : « انكم أن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحق والحق يحرركم » فأجابوه : إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط ، فكيف تقول انكم تصيرون أحراراً ؟ قال : الحق الحق أقول لكم : أن كل من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى فى البيت أبدا . أما الابن فيبقى إلى الأبد .

ثم قال : لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم !

وقال بولس غير مرة : إن الختان لا يجعل الإنسان ابناً لإبراهيم وإنما أبناؤه من يسلكون فى خطوات الإيمان ، وإن إبراهيم « أب لنا جميعاً والله جعله أباً لأمم كثيرة » .

كما جاء فى رسائل بولس إلى أهل رومية : « لأن الكتاب يقول : إن كل من يؤمن به لا يخزى ، ولا فرق بين اليهودى واليونانى ، لأن رباً واحداً للجميع » ... « وأن حكم الناموس يتم بالروح لا بالجسد » ... « وأن اهتمام الجسد موت ، وأما اهتمام الروح فهو الحياة والسلام » .

* * *

وتوسع الشراح المحدثون فى التعليق على أقوال بولس الرسول وأمثالها فقال الدكتور چورچ دنكان Duncan فى أحدث تفسيراته لرسالة

بولس إلى أهل غلاطية : « مما له بعض المغزى أنه فى حين أن قصة ختان إبراهيم تقوم على المصدر المتأخر لكتب التوراة الخمسة الذى نسميه بنسخة الكهان ، فإن معظم قصص إبراهيم ترجع إلى مصادر نسخة يهوا وألوهيم التى تقترن بتعاليم الأنبياء الأولى ، وهى تشف عن نزعة دينية لا تخالف الشرعيات التى برزت خلال فترة النفى وحسب ، بل تناقضها ، ولا جرم تنزل هذه القصص منزلة الرضى والإعجاب عند اليهود الذين كانوا فى الأزمنة المتأخرة لا يعطفون على منهج الشرعيين ، ومن ثم كان الفيلسوف فيلون الاسكندرى المشهور بالتوفيق بين المذاهب يشير ويعيد الإشارة فى كتاباته إلى قوة إيمان إبراهيم ، وكانت أقواله كلها عن الإيمان تدور حول قصص العهد القديم عن الأب الكبير .

ويبدو فى الإصحاح الحادى عشر من الرسالة إلى العبريين أنه كان فى ذلك الحين اتجاه مستعد فى بعض البيئات لاعتبار حياة إبراهيم كلها دائرة حول الثقة بالغيب » .

يريد الشارح الحديث بالتوفيق الذى اشتهر به الفيلسوف فيلون توفيقه على الخصوص بين مذهب الروحيين المتعلقين بالإيمان ووجدان النفس وبين الشرعيين أو الكهان الذين كانوا يتشددون فى المراسم والشعائر وكل ما يعتمد فى القيام به على الكهانة والوظائف الهيكلية ومنها الختان وأعمال الطهارة والكفارة ، وهذه هى الشعائر التى كان كهان إسرائيل يحرصون عليها فى منفاهم ببابل ، إبقاء على معالم العبادة الاجتماعية ، وخوفا من نسيانها واندثارها إذا وكل الأمر كله إلى عقائد الوجدان فى نفوس الآحاد متفرقين ، وقد كان فيلون مطلعا على نسخ التوراة الأولى ، ومنها نسخة

يشير فيها سفر التكوين إلى إبراهيم باسم الخليل قبل أن تعرف هذه التسمية فى كتب الأنبياء .

* * *

وقد نقل بولس بعض الشعائر من المدلولات الحسية إلى المدلولات النفسية الرمزية وانفتح الباب واسعا لهذا التحول منذ قال السيد المسيح إن أعمال الإنسان هى التى تطهره أو تنجسه ، ثم مضى بولس فى هذا الطريق على الرغم من معارضة بطرس وزملائه ، لأنه أدرك أن اشتراط الختان ومراسم البيع والهياكل لقبول الوثنيين فى الدين الجديد عائق شديد يوشك أن يصدهم جميعا عن الإصغاء إليه ، وقد انتهى الأمر فى القرون الحديثة إلى إسقاط هذه المراسم فى مذهب اليهود الذين سموا أنفسهم بالأحرار أو يهود الإصلاح وشاع مذهبهم منذ القرن التاسع عشر بين اليهود الغربيين .

وتتابعت تفسيرات الآباء للشعائر الجسدية بالرموز النفسية من القرن الأول للميلاد ، فأخذ بها معظم الكنائس الشرقية والغربية ، وفيما يلى مثال من تفسيرات هذه الرموز منقول من كتاب الدر الثمين فى شرح سفر التكوين(١) .

« إن الخطيئة هى غلفة النفس ، فإذا نحن تعمدنا ختن روح القدس تلك الغلفة التى جعل الله غلفة اللحم إشارة إليها ، وانما غلفة اللحم إذا ختنت لا يمكن عودتها ، وأما هذه الغلفة التى هى الخطيئة فإذا ختنها

---

(١) طبع سنة ١٨٩٥بمصر ونقل من نسخة خطية كتبت سنة ١٤٠٩ قبطية بإذن البطرق وتصديره .

روح القدس يوم المعمودية وطهر الإنسان منها فالشيطان يعود فيقاتله بها فينبغي له أن يقاتله دائما ولا يفعلها » .

إلى أن يقول : « أما قول الله لإبراهيم إن ملوكا تخرج منك فليس بملوك أرضية يمتدح الله ويفخر ، ولو كان ذلك كذلك لكان للكفرة فخر كبير لكثرة الملوك منهم ، بل في الوقت الذى أمره الله بالختان قال له : إن ملوكا تخرج منك ، وحقق ذلك إن الذى يختتن الختانة الروحانية المتقدم ذكرها فعقله يكون ملكا وحاكما على أفكاره وعلى شهواته ولذاته .. »

* * *

وظلت أخبار التلمود والمدراش عن إبراهيم شائعة بين المسيحيين كما كانت شائعة قبل الميلاد ، لأنهم يرجعون إلى العهد القديم وشروحه وتفسيراته ، ولكنهم اعتبروا أن بشائر إبراهيم كلها مرهونة بظهور المسيح الذى يكون الخلاص على يديه ، ومن أجل المسيح تلقى إبراهيم تلك البشائر من الله ، فانتشرت الكرامات والمعجزات التى نسبت إلى الأنبياء والآباء قبل الميلاد انتشاراً كبيراً فى صدر المسيحية وزمنا طويلاً بعد نشأتها الأولى إلى ما بعد القرون الوسطى ، وجعل الرواة المسيحيون يلحقونها بمعجزات المسيح ويحسبونها مقدمة لا تتم إلا بنتيجتها الموعودة ، وهى دعوة المسيح إلى النجاة .

وعمد بعضهم إلى تفسير كتب العهد الجديد بهذه العقيدة فى أقوال غير معتمدة ولكنها سرت بين السواد والعلية كما سرت من قبل تفسيرات العهد القديم .

فمن أمثلة ذلك عبارة وردت فى رسالة بطرس الأولى حيث يقول فى الإصحاح الثالث :

« إن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا .. مماتا فى الجسد محيى فى الروح[1] وبالروح أيضاً ذهب فوعظ الأرواح التى فى السجن . إذا عصت قديماً حين كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح » .

فبنى بعضهم على هذه العبارة قصة لا يعتمدها المفسرون الكتابيون وقالوا فى تفسيرها إن السيد المسيح هبط إلى الهاوية - سنة ثلاث وثلاثين للميلاد - وأطلق منها أرواحا صالحة ذهبت إليها قبل بعثته ، ولم تكن لها جناية تعاقب عليها ولكنها كانت فى حاجة إلى التطهير بماء العماد لتدرك نعمة النجاة .

وسرت هذه القصة من السواد إلى العلية من أمثال الشاعر الإيطالى الكبير دانتي اليجيرى صاحب الكوميديا الإلهية ، فقال فى القصيدة الرابعة من الحوار بينه وبين الشاعر الرومان القديم (فرجيل) قائده فى طبقات الهاوية :

« لم تكن ثمة شكاة تسمع إلا الأنين الذى يهز الأجواء الأبدية ، وكان ينبعث من تلك الاحزان التى لا عذاب فيها : أحزان الجموع المتكونة من الأطفال والنساء والرجال . فقال لى أستاذى : إنك لم تسأل عن هذه الأرواح التى تراها هنا . وأود أن أعرفك بها قبل أن نتقدم فى طريقنا .

---

(١) يقول الدكتور وندل هاريس Harrris إن كلمة أخنوخ حذفت من نسخة قديمة فى هذا الموضع ، ويكون أخنوخ على هذا هو الذى وعظ الأرواح ... تراجع ترجمة Moffat طبعة سنة ١٩٥٠ صفحة ٢٩٥ .

« إنها لم تخطىء ، وكان لها فضل ، ولكنه لا يغنيها لحاجتها إلى العماد وهو الإيمان الذى أنت به تدين .

« فإنها تقدمت عصر المسيح فلم تعبد الله على سواء ، ومن هذه الأرواح كنت المتحدث إليك .

« ولهذا النقص - لا لنقص غيره - ضاعت أرواحنا ، وكل ما نقاسيه من الجزاء ضيق الحاجة بغير رجاء .

« فغشى قلبى حزن عظيم عند سماعه ، لأننى أعرف أناسا ذوى فضل كبير معلقين فى تلك الطبقة .

« وقلت له : أخبرنى يا أستاذى . أخبرنى . وأردت اليقين من هذا الإيمان الذى يغلب كل خطأ : ألم يخرج من هذا المكان أحد خرج منه بفضله أو بفضل غيره وأدركته النجاة بعد خروجه ؟

« وفهم طوية كلامى فأجابنى قائلا : « لقد كنت هنا حين لمحت قادما جليلا عليه إكليل النصر ، فإذا هو قد بدا فأخذن فى الظل أبانا الأقدم - آدم - وابنه قابيل ونوحا وموسى المشترع المطيع ، ثم إبراهيم الأب وداود الملك ، واسرائيل وأباه وبنيه ، ومنهم راحيل التى صنع من أجلها الكثير وأخرج غيرهم ، وباركهم ونجاهم ، وأعلم أن أحدا قبل هؤلاء لم يكن نبيا » .

وبهذه الصبغة وما شابهها سرت أخبار العهد القديم وتفسيراته بين المسيحيين ، ثم تفرق رأى الكنائس المسيحية فى النظر إلى العهد القديم ، فمنها ما يعتبره وحيا منزلا بجميع تفصيلاته ، ومنها ما يقصر الوحى على كتب الشريعة وهى الكتب الخمسة التى تعرف بكتب موسى ، ومنها ما يعتبره كله أخباراً تاريخية أو وقائع مروية فى صيغة شعرية .

وعلى حسب النظر إلى هذه الكتب يختلف النظر إلى إبراهيم من حيث اعتقاد العصمة أو الخطيئة .

فمن اتباع الكنيسة الإنجيلية من ينقد مسلك إبراهيم حين قال : إن سارة أخته ولا يبالى أن يصرح بالنقد فى كتب التدريس كما فعل الأستاذ وليام نكلسون حيث قال فى موسوعته الموجزة عن التوراة تحت مادة إبرام :

« إن مسلك إبرام هنا هو أحد المواقف التى نميل إلى إسدال الستار عليها فى سيرة هذا الرجل الجليل . لقد كان عملا لايوائم مقام تلك الشخصية العظيمة . ولا جرم ففى وجه الشمس سفعات ، ومثل هذا دليل على صدق تاريخ الكتاب وأن مؤرخيه لم يستروا نقصا قط فى أحسن الناس[١] .

ومن شراح الكنائس الأخرى من لا يلوم إبراهيم على هذا المسلك ويشيد به لأنه أسلم نفسه إلى مشيئة الله وأيقن أنه لن يخذله ولن يصنع ما يعاب ، فهو آية على إيمانه وغلبة الثقة بتدبير الله على وساوس الخوف والريبة فى نفسه .

ويتوسط بعضهم بين النقد والإعجاب كما فعل الدكتور جويلبود Guillebaud فيقول :

« إن هذه الخطايا سجلت بأيدى فاعليها وبرضاهم وموافقتهم ، وحفظها أبناؤهم وذراريهم من بعدهم . فلم كان ذلك ؟ إن شيئاً من

---

(١) B.ble Students Companion

هذا لم يسجل على ملوك بابل ومصر ، وتكاد سيرتهم أن تبدو كاملة نقية من العيوب ، وقد محيت من تلك الصور كل وصمة وجليت فيها كل زينة . ولكن من يا ترى من ذوى العقل السليم بعد هذايود أن يتبع مثال رمسيس أو نبوخذ نصر كما يود المسيحيون أن يدرسوا حياة إبراهيم ويعقوب وداود . إن العلة غير بعيدة المنال ، فإن أبطال العهد القديم أناس حقيقيون لهم حس كحسنا وشعور كشعورنا ، وسيرتهم صادقة الخبر وعيوبهم سافرة للنظر ، فمن هدف السيرة الأمينة يستطيع القارىء أن يبصر النذير ويتقى مثل هذه السقطة ، ويغنم مع هذا شجاعة وإلهاما من قدوة الإيمان المنتصر فى تلك السير » .

* * *

وكذلك تبدو لنا صورة الخليل كما تمثلت فى المراجع المسيحية من كتب العهد الجديد ومن المرويات الشعبية التى تناقلتها الألسنة وسرت إلى كتب الأدب ذات الصبغة الشعرية إلى ما بعد القرون الوسطى .

وقد عنيت المراجع المسيحية فى العصر الحديث بناحية من تاريخ الخليل أهم من تلك المرويات الشعبية فى نظر القارىء العصرى وهى الناحية التاريخية .

فالمراجع المسيحية تشغلها هذه الناحية التاريخية فى القرن الأخير بعد أن شاعت بدعة الشك فى وجود أقطاب الأديان ، وفى مقدمتهم إبراهيم وسلالته الأولون .

وليست الناحية التاريخية عامة هى التى تعنينا فى هذا الباب لأننا سنفرد لها بابا خاصا يدور على الكشوف الحفرية والبحوث المتقابلة فى أقوال المؤرخين المحدثين .

ولكن الناحية التاريخية التى نعنى بها فى هذا الباب - باب المراجع المسيحية - هى الناحية التى تفرغ لها الدارسون ليلحقوها بالكتب الدينية وشروح العهدين القديم والجديد ، فهى مقصورة على هذه الناحية ، ومحورها الغالب عليها هو المضاهاة بين تواريخ الكتب الدينية والمواقيت التى اتصلت بها من تواريخ الأمم الغابرة .

فمن أحدث هذه المراجع كتاب « موجز التعليقات الحدثة على الكتب من تأليف نحو ثلاثين عالما من علماء اللاهوت فى انجلترا ، وكلهم من المطلعين على كشوف الآثر التى لها علاقة بتواريخ التوراة والأناجيل .

يذكر المؤلفون فى الفصل الذى عنوانه « العالم فى أيام إبراهيم » أن لوحا من الألواح التى كشفت بمدينة أور قد وجد عليه نقش باسم « إبراما » يرجع على ما يظهر إلى زمن سابق لزمان إبراهيم ، ومن هذه الكشوف لوح آخر منقوش عليه شريعة حمورابى وفيها أحكام مماثلة لأحكام الشريعة الموسوية ، ومع هذه الكشوف ألواح كتبت عليها جداول للضرب ومعجمات للمفردات اللغوية وسجلات لأنظمة الحكومة وأسانيد بما وصل إلى الهياكل من حساب القرابين . فقد نشأ إبراهيم إذن فى مدينة ليست بالهينة والعلم يومئذ قديم .

ويشيرون فى هذا الفصل إلى نقوش كشفت على جدار قبر من القبور الأثرية بقرية بنى حسن بمصر يرجع تاريخها إلى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، وبين تلك النقوش صورة قافلة مؤلفة من سبعة وثلاثين من الساميين بقيادة أبيشوا Abishua يحملون بضائع بلادهم ليستبدلوا بها غلة مصرية (صفحة ٨٥) .

وأشاروا إلى كلمة « عبرى » ومعناها ، فقالوا : إنها وجدت فى آثار « رم سن » سلف حمورابى ، كما وجدت فى نص من النصوص البابلية التى كشفت في بلاد الحيثيين الأقدمين من آسيا الصغرى - وتسمى اليوم بوغاز كوى - ووجدت كذلك فى نصوص حورانية عند بلدة توزى بالعراق وكان لها معنى أعم من معناها الخاص بعد ذلك بأبناء إسرائيل ، ويفهم منه أن الكلمة كانت مرادفة لكلمة الجنود الرحل الذين يستأجرهم قادة الجيوش .

قالوا : وإن عاصمة الحيثيين التى رفعت عنها الأنقاض سنة ١٩٠٦ قد كشفت فيها ألواح بالخط المسمارى دلت على مفتاح اللغة الحيثية ، وأن الحيثيين كانوا يتكلمون لغة هندية جرمانية على مشابهة باللاتينية ، وقد نزحوا من الشرق إلى آسيا الصغرى وامتدت دولتهم شرقا إلى الفرات وجنوبا إلى قادش ، وهم بنو « حث » الذين أشار إليهم إبراهيم فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين إذ يقول : « وكلم بنى حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى » .

وقالوا : إن أسماء الملوك التى وردت فى الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين قريبة من بعض الأسماء التاريخية ، فاسم أمر أفل قريب من اسم حمورابى البابلى ، وتدعال قريب من تدخاليا الحثى والأسماء الأخرى وجدت لها مشابهات من هذا القبيل ، ولكن لا يوجد الدليل القطع على وحدة المسمى .

وكان الرعاة أو الهكسوس (هاك شاسو) يحكمون مصر من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة ، وفى هذه الفترة حدثت هجرة لآباء العبريين إلى الديار المصرية .

* * *

ومن كتب التعليقات كتاب كالذى تقدم فى موضوعه ، إلا أنه أوسع شرحا وأحدث عهدا - لأنه طبع طبعته المنقحة سنة ١٩٥٢ - وعنوانه « تعليقات موجزة على الكتاب » ، ومؤلفه جوزيف انجوس Angus من أكبر فقهاء اللاهوت .

يقول مؤلف هذا الكتاب : « إن الآثار تحتمل أن أمر افل - الذى حارب إبراهيم - هو حمورابى الذى كان ملكا على بابل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، والحفريات المسمارية تربط بين اسمه واسم معاصره « أرى أكوم » ... فى حين أن كدلعومر يشابه قدار لعمار بمعنى خادم لعمار أحد الأرباب الكبار فى شرق الدجلة السفلى ، واسمه منقوش على حجر من ألواح حمورابى ، وكان هذا قبل ارتباط أرض إسرائيل ببلاد شنعار بعدة قرون قال المؤلف : وكانت مصر عند هجرة إبراهيم ثم هجرة يعقوب وآله ، خاضعة لحكم الرعاة المكروهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسمائة سنة ، ومن ثم كان الترحيب بإبراهيم ثم الترحيب بيعقوب وإقطاع قومهم أرضا فى البلاد .

قال : وفى عصر إبراهيم كانت فى أرض فلسطين الجنوبية جالية من الحيثيين ، ولكن عاصمتهم كانت إلى الشمال تمتد كما جاء فى كتب العهد القديم من لبنان إلى الفرات .

وقال عن « أور الكلدانيين » مدينة إبراهيم أنها كانت فى الموضع الذى يسمى الآن المقير على الفرات الأدنى ، ولم تكن فى أورفة كما خطر لبعضهم من قبل لتشابه اللفظ بين أورفة وأور .

وتقول تعليقات أبنجدون Abingadon التى اشترك فى تأليفها نحو سبعين عالما من علماء التاريخ الدينى والتوراتى :

« على حاشية الهلال الخصيب انتشرت خلال الفترة التاريخية جماعات من القبائل الرحل تشتغل بالصيد تارة وبالغارات تارة أخرى وبالمرعى بين هذا وذاك ، وهم الذين نسميهم فى الزمن القديم بالأراميين ، ومع استحالة الحياة المستقرة على الزراعة أو التجارة أو تقسيم الحقول وسكنى المدن فى ظل ذلك النظام الاجتماعي - يميل القوم إلى تجميع أنفسهم فى جوار مركز من مراكز الحضارة يعاملونه ويتجرون معه وقد يتصلون معه ببعض الصلات السياسية .

« وفى وسع أمثال هؤلاء القوم أن يعيشوا على إنتاج قطعانهم وصيدهم . ولكنهم غالبا ما يعتمدون على صلتهم بالمدينة - كما يحدث اليوم فى الجزيرة العربية - لتحصيل غلات الحقل ومصنوعات المعمل بالمقايضة على مقتنياتهم .

« إن تاريخ العبريين الرسمى يبتدىء بقبيلة من هذه القبائل سكنت إلى جوار مدينة أور فى جنوب العراق ، وعند نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد هاجر فريق منهم إلى الشمال بقيادة رئيس يسمى تارح ، كما جاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين .

« وربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسى فى جنوب العراق ، أصابت جرائره معيشة أهل أور ، ولعل الاضطراب قد نشأ من تحول السيطرة السياسية من المدن العراقية إلى قبائل عيلام ، فلم تستقر

عليه أحوال المعيشة والتجارة فى مدينة أور ، وهذا الفرض يرجع بالحركة إلى ما بين سنة ٢٣٠٠ وسنة ٢٠٠ قبل الميلاد ، وكيفما كانتا الحقيقة ، فالهجرة قد حصلت ونزل القوم فترة بجوار حاران إلى شمال الهلال الخصيب .

« ومما يستحق الملاحظة أن كلا من أور وحاران كانت فى القدم مراكز لعبادة الإله – سن – إله القمر من معبودات الساميين ، وسيلفانا اسمه مرة أخرى فى شبه جزيرة سينا .

« وظلت طوائف من القبائل تترحل غربا وجنوبا ، حيث صادف بعضها أرض المرعى والزرع بين وادى الفرات والأقاليم الجبلية المخصبة فاستقروا فى مدن أشهرها دمشق ، ومضت طائفة أخرى بقيادة إبرام بن تارح (وابن قد تكون هنا بمعنى سليل) إلى أن استقر بها السير البطىء عند فلسطين وهى يومئذ فى ظل حكومات المدن المتفرقة ، ولم تزل الهجرة فى مجراها تارة إلى غرب الأردن وتارة إلى شرقه ، وحينا من دمشق وحينا من شرقها إلى الحدود المصرية ، وخلال ذلك تمر بنا قصة عن علاقة مباشرة بين مصر وهؤلاء البدو ، وأخبار عن العلاقات بين الآباء العبريين وسكان كنعان المستقرين » .

ثم يسترسل كاتب التعليقات فيقول أن بعض العبريين وصل فى هجرته إلى أرض جاثان بمصر ، ويرجح أن دخولهم لأول مرة كان على عهد دولة الرعاة أو الهكسوس ، بين القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب .

* * *

وترجع تعليقات هالى[1] Halley الجيبية أن أمرآفل هو حمورابى أشهر ملوك البابليين ، وإن كارثة سدوم وعمورة التى حدثت فى عصر إبراهيم تقترن بالخراب الذى قضى على سكان المدن هناك حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كما ظهر من كشوف بعثة البرايت وكيلى Albright and Kyle سنة ١٩٢٤ .

ويضع هالى للحوادث المصرية مقابلا من حوادث التوراة ، فيضع عصر إبراهيم مقابلا للأسرة الثانية عشرة حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر يوسف مقابلا للأسرة السادسة عشرة سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ، وعلى سبيل الاحتمال ، وعصر موسى مقابلا للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بين سنتى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد ، وتظهر الغرابة فى تقديرات هالى ومدرسته عند الرجوع إلى عصر إبراهيم وعصر يوسف وبينها فى تقديره نحو ألف ومائتى سنة ، والمعلوم أن يوسف بن يعقوب وأن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم ، وهذا مع اعتماده أحيانا على نقوش الآثار وحسبانه أن وفد الساميين مرسوم على مقابر بنى حسن ، قد يكون إبراهيم على الفرعون سنوسرت الذى يظن أنه كان على عرش مصر فى ذلك الحين .

ومن أصحاب التعليقات التوراتية المعروفين بالتحرج فى التقدير لوثر كلارك Clark صاحب التعليقات التى تقع فى ألف صفحة كبيرة وتجمع من أطراف المعلومات ما لم يجتمع فى مرجع آخر بمثل حجمها[2] .

(١) The pocket Bible Handbook by Henry H, Halley

(٢) طبعة سنة ١٩٥١ Concise Bioble Commentary

فهذه التعليقات تضع عصر حمورابى حوالى سنة ١٩٠٠ ق م وعصر الآباء العبريين فى كنعان بين سنتى ١٩٠٠ ، ١٧٠٠ ق.م وعصر يعقوب وأبناؤه فى مصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق.م ، ونهاية عصر الهكسوس حوالى سنة ١٥٥٠ ق.م .

ويرجع كلارك– اعتمادا على الآراء الحديثة – أن عصر حمورابى متخلف عن عصر الوقائع التى تنسب إلى أمرآفل بمائة سنة أو أكثر ، وأن أمرآفل وحمورابى لا يدلان على شخص واحد ، وأن الغور العميق الذى تملأه أمواه البحر الميت أقدم جدا من الوقت الذى قدر لخراب المدن المذكورة فى قصة إبراهيم ويتساءل : ما هو الباعث الذى أتى بالملوك الخمسظة إلى الأردن جنوبا قبل مواجهة أعدائهم الذين يحاربونهم ، وهو لا يستبعد أن يكون جيش من البابليين والعيلاميين معا قد زحف على جهات فى ذلك الموقع لإرغام القبائل على أداء الجزية أو الضريبة التى تفرض على رؤوس القبائل .

ويعتمد كلارك على الظواهر الأرضية (الجيولوجية) كثيراً فيرى أن العيون الحمر التى أشار إليها الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين هى فى الغالب من النفط الذى يتكاثف بالتبخر ويطفو على الماء كما كان يحدث على سطح البحر الميت ، ولا مانع أن يشاهد على وجه الأرض قبل امتلاء الغور بالماء ، ويرتبط خراب المدن التى وردت قصتها فى سيرة إبراهيم بهذه الظواهر الأرضية التى يمكن أن تستقصى فى يوم قريب ، فيبنى على استقصائها تحقيق محكم لتاريخ تلك الأحداث .

ويضارع هذا الكتاب فى الصبغة العلمية الكتاب الذى ألفه جماعة « دراسة العهد القديم » واشترك فى تأليفه أكثر من عشرة من علماء هذه الدراسات ، وهو كتاب العهد القديم والدراسة الحديثة[1] .

ويقول الأستاذ البرايت Albright وهو أحد أصحاب البعوث للكشف عن الآثار :

« إن مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ولكنها آخذة فى التكشف والإبانة عن الحوادث التالية بعد البحوث التى تناولها ونلوك وستوك وكاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لابد أن ترجع إلى الفترة بين سنتى ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد وإن قيادة الهكسوس فى يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون إلى زمن قريب .. »

إلى أن يقول بعد استطراد وجيز عن مقبرة توت عنخ آمون : **« ولكن أهم من هذا كله – ثقافيًا – تلك الأوراق البردية التى كشفها شستر بيتى Beatty من آثار عصر رمسيس بما احتوته من الدلالة على مدى النهضة الأدبية فى ذلك العصر الذهبى ، ونخص منها بالذكر من حيث فائدتها لدارس التوراة تلك القصائد الدرامية التى تنبىء عن نظم أناشيد سليمان ، وأن خالفتها كثيرًا فى التفصيلات ، وتلك الترنيمة المقاربة لعقائد التوحيد التى تدل على استمرار التوحيد الشمسى من العمارنة بعد وقوف كهنة آمون له بالمرصاد »** .

---

(١) The Old Testament and Modern Study ظهرت طبعتها الأخيرة سنة ١٩٥٠ .

ويقـول هذا الكاتب ومـعـه زمـيـل[1] من المشـتـغلين بالكشـوف فى فلسـطين :

« إن فلسطين لم تدخل فى قـصص التـوراة قبل هجـرة إبراهيم من حاران ولا يمكن بأى تقـدير من التـقـديرات أن توضع تلك الهـجـرة فى تاريخ سابق لنهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تأتى بعد ذلك بقرون ، ويبدو واضحاً من مأثورات سفر التكوين أن هناك دورا متوسطا من العصر البرونزى بين القرن الحادى والعشرين والقرن السادس عشر قبل الميلاد » .

ويتحدث عن كشوف رأس شمرا فى الشمال المقابل لجزيرة قبرص من شاطىء بحر الروم ، أنها غيرت الصورة التى كانت مرتسمة للحضارة الكنعانية فى أذهاننا كل التغيير ، وإنها أثبتت أن حضارة كنعان كانت تمتد فى العصر البرونزى المتأخر من غزة جنـوبا إلى رأس شمرا شمالاً « أغاريت القديمة » وأن اللغة والديانة والحضارة كانت واحدة فى هذه البقاع ، ولم يكن اختلاف اللغة إلا من قبيل اختلاف اللهجات ، وإننا نرى اختـلاف الصناعة الفخارية وغيرها من البقـايا المادية بارزا بيّنا عند الجانب الأسفل من نهر العاص حيث تتضح الملامح الحورية والأمورية فى معالم الثقافة العليا ولا يلحظ على الساحل مثل هذا الاختلاف .

ثم يتحدث عن كشوف تل الحريرى عند وادى الفرات الأوسط فيقول : « إن الأستاذ أندرى باروت وزملاءه أخرجوا من الأنقاض قصرا كبيرا من العصـر البرونزى الأوسط كان مزدهرا فى أواخر القرن الثانى عشر

---

(١) هوجون هويكنس من جامعة بلتيمور .

وفاء للتقديرات التى تتقدم بعصر حمورابى إلى ما بين سنتى ١٧٢٨ و١٦٧٦ قبل الميلاد .

« وقد أخرجوا فى هذا الموضع نقوشا فذة على الجدران وبقايا فنية أخرى ، وفوق ذلك نحو عشرين ألف لوحة وأعشار من اللوحات من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، كلها باللغة الأكادية التى تأثرت أحيانا باللغة الأمورية التى يتكلمها أبناء القبائل فى ذلك الإقليم .. وفائدة هذه المكشوفات التى كسرت الان حواجز البحث فى دراسات التوراة ستأتى فى أكثر الأحوال من طريق غير مباشر ، ولكنها لا تنقص بذلك فى قيمتها ، إذ كانت الثقافة العالمية فى عصر الآباء العبريين وراء كل تطور فى آسيا الغربية ، وسيصبح ميسورا لنا عما قريب أن نركب أجرومية اللغة الأمورية ومعجماتها من تلك الأمورية الأكادية التى كان يكتب بها كتاب مارى فى الوادى الأوسط من نهر الفرات ، ويظهر أن هذه اللغة التى تتخلل أسماء الإعلام هى لغة الآباء العبريين فى لبابها ، وأنها على التحقيق لغة الكلام الذى نتمثله فى أعلام الفلسطينيين الرحل والمقيمين التىوردت فى الحفريات المصرية التى ترجع إلى القرنين العشرين والتاسع قبل الميلاد[1] .

---

(١) سيأتى بيان الأهمية الكبرى التى ينطوى عليها هذا الكشف الخطير لأنه سيحدد العلاقة بين اللغات السامية القديمة ومنها الأكادية لغة بابل والعبريية لغة الخليل والأرامية لغة العرب الشمالية واللغة العربية على العموم ، ويتبع ذلك الاستدلال على أصول المعتقدات عند أبناء هذه اللغات .

ثم يعرض الكاتب لكشوف تل العطشانة على نهر العاص الأسفل وكشوف حماة على أوسط النهر فينوه منها على الخصوص بسيرة حياة الملك أدريمى المنقوشة على تمثاله الذى يمكن تاريخه أن يكون قريبا من سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ، وفى هذه السيرة حوادث وقعت فى سورية الشمالية مشابهة للحوادث فى قصة يوسف ، ولعلها كانت تتجمع حول نواة من عصر الهكسوس ، وقد أشارت سيرة أدريمى إلى غيره اخوته الكبار وقحط السنوات السبع وضروب من الحدس لاستطلاع الغيب .

ثم يعرض للكشوف التى أبرزت المنافسة بين حضارة الحيثيين والأراميين وحضارة إسرائيل ودمشق .

وينتقل إلى كشوف الريحانية فى الناحية الجنوبية من سهل أنطاكية وما لها من القيمة فى الاستدلال على العصر الحديدى ، وأهم ما فيها بقايا هيكل من القرن التاسع قبل الميلاد على رسم قريب من رسم هيكل سليمان الذى بنى فى القرن العاشر .

ويستطرد إلى كشوف قليقية على مقربة من حدود سورية الشمالية ، وأسانيدها ترجع إلى ما بين سنتى ٨٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد ، ولها شأنها فى دراسة تطور اللغة العبرية .

ويتناول الأستاذ هنيمان Heinneman من جامعة سانت اندروز بحثا لغويا عن العبرية ، فيقرر فيه أن الأرامية - وهى العربية الشمالية - كانت سابقة فى سورية وفلسطين لكل من اللغتين الكنعانية والعبرية ، معتمدا على كشوف رأس شمرا ، وعلى المحسنات الكنعانية التى اشتملت عليها رسائل تل العمارنة ويردها إلى نحو ١٣٧٥ قبل الميلاد .

ونختم هذه الشواهد بمرجعين تقليديين من مراجع هذا الموضوع وهما أطلس وستمنستر التاريخى ، وموسوعة وستمنستر المنقحة طبعة سنة ١٩٤٤ ، وهما خاصان بجغرافية التوراة والعهد الجديد وتاريخهما ، وقد توفر على تأليفهما من وجهات النظر المتعددة نخبة من علماء هذه المباحث المشتغلين فى الكتب الأثرية والكتب العصرية بدرسها فى الآثار والحفريات وبالاطلاع على سجلاتها ومدوناتها .

هذان المرجعان متفقان مع أحدث المراجع المتقدمة على تقريب عصر الآباء العبريين ، واستضعاف الأقوال التى توغل به فى القدم ، وقد وضع الأطلس التاريخى عصر إبراهيم بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ووضع عصر حمورابى فى ختام هذه الفترة ، وعرض لقصة سنوحى الموظف المصرى الذى غادر بلاده (حوالى سنة ١٩٠٠ ق.م) وعاش بين الأموريين فى سورية الشرقية ، ولاحظ المشابهة بين الأمكنة التى عاش فيها على هذا النحو آباء العبريين ، ورجع أن وفد الساميين المرسوم على مدافن بنى حسن قدم إلى مصر فى عصر القصة السنوحية وأن الدولة المصرية التى كانت قائمة بمصر هى الأسرة الثانية عشرة وقد بسطت حكمها على سورية وفلسطين وإدارت حركة واسعة من التجارة البحرية بين مصر وقبرس وكريد وشواطىء البحر الأحمر ، وبلغت بحدودها الجنوبية إلى الشلال الثانى حيث أقامت حصن الحدود عند سمنة ، وكانت لها بعثات إلى سيناء للكشف عن معادن النحاس والفيروز ، وأخرى إلى أرض النوبة للكشف عن معادن الذهب .

وجاء فى هذا الأطلس أن التاريخ حقق وجود بلاد فى أرض حاران تطلق عليها أسماء كأسماء آباء إبراهيم : فالج وسروج وناحور وتارح ،

وأن اسم حاران نفسها قريب من اسم أخ لإبراهيم ، وأن وحدة الاسم قد تأتى مصادفة فى حالة شخص واحد ولكنها هنا متفقة فى أربعة أسماء على الأقل فى حيز محدود ، والمهم فى هذه الملاحظة أن كتاب الأطلس يحسبون أن هذه البلاد حملت أسماء القبائل التى أنشأتها ، أو أن القبائل أطلقت عليها أسماءها بعد الاستيلاء عليها فى القلاقل التى حدثت حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

واستطرد كتاب الأطلس من تشابه أسماء الآباء والمدن إلى الأسماء التى كانت شائعة بين الأموريين ، ومنها إبرام فى صيغة أبا مرام ويعقوب فى صيغة يعقوب آبل ، وذكروا أن اسم قبيلة بنيامين وجد فى الواح الحفائر بوادى الفرات الأوسط ، وأن حفائر توزى فى وادى الفرات الشمالى اشتملت على وصف عادات اجتماعية تفسر عادات الإرث والزواج وأصنام الأسرة (الطرفين) التى أشارت إليها كتب العهد القديم ، وأن عصر تلك الحفائر يوافق العصر الذى دوّن فيه الاسرائيليون كتب التوراة وما بعدها من الكتب القديمة ، وهذا عدا الآثار التى روت أخبار الطوفان وأخبار الخليقة مما لا نظير له فى مأثورات مصر أو كنعان .

ومن الطبيعى أن يعنى الأطلس بالمواقع الجغرافية فى سياق التاريخ ، وكذلك عنى الأطلس فى سيرة إبراهيم بمواقع رحلاته إلى مصر فى ذهابه وعودته ، ومنها أرض الجنوب بين قادش وشور ، وتعرف الآن باسم وادى غزة ، وهو واد كان له شأن فى تاريخ بنى إسرائيل إلى ما بعد خروجهم من الديار المصرية .

* * *

أما الموسوعة التى تحمل اسم وستمنستر أيضاً - مع اختلاف المؤلفين - فهى توافق المراجع الحديثة كذلك فى تقريب زمان الآباء ، وتقرر أن وحدة اسم حمورابى واسم أمارفيل محل مناقشة واعتراض فى المباحث الأخيرة ، وأن إلحاق إيل باسم أمارفيل مشكلة تستوقف أنظار الباحثين المتأخرين .

وبعد أن ذكرت أن تاريخ حمورابى وضع فى عصور مختلفة بين سنة ٢١٢٣ وسنة ١٨٣٠ قبل الميلاد ، عادت فقالت : إن الكشوف الحديثة ترجح وضعه بين سنتى ١٧٩٢ و ١٧٥٠ أو ١٧٤٩ ، وأن شريعته المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية فى سفر الخروج من التوراة ، وأن أسلوب المواد يتشابه فى ابتداء الجمل كما تتشابه العقوبات ولا سيما عقوبات القصاص .. قال : ويبعد أن تكون شريعة حمورابى أمام المشرع العبرى عند تدوين أحكامه ، ولكن المحتمل أن الشريعتين ترجعان إلى أصل سامى قديم .

وترى الموسوعة - اعتمادا على تقدير الأسقف يوشر أن مولد إبراهيم يوافق سنة ١٩٩٦ ق.م ، وأن طريق الجيوش التى حاربها إبراهيم كما جاء فى الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين كانت إلى جنوب على حافة جلعاد وموآب ، وتدل كشوف العالمين الأثريين البرايت وجلويك على هذا الطريق تخللته فيما مضى مدن هامة قبل سنة ٢٠٠٠ ق.م ، وظلت عامرة نحو قرن أو قرنين لا أكثر ، وفى رواية سفر التكوين أن سدوم وعمورة دمرتا فى حياة إبراهيم ، ومن كشوف جلويك يظهر أن المدن التى على هذا الطريق ظلت مقفرة إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكنها فى القرن العشرين ق.م كان محجة دينية حافلة بجوار المكان الذى يعرف الان باسم باب الدرعة . فمن المعقول اذن أن يكون مولد إبراهيم حوالى الزمن الذى

قدره الأسقف يوشر ، وأن سدوم وعموره خربتا حوالى سنة ١٨٩٨ قبل الميلاد .

وتقول الموسوعة : إن اسم مرافل – أحد الملوك الذين حاربهم إبراهيم – يصعب تعيين صاحبه كما يصعب تعيين زملائه الاخرين ، ولكن هذه الأسماء جميعاً لا يبدو عليها أنها اختراع من مخترعات الخيال . إذ ليست غارة الأمراء البابليين على فلسطين وما جاورها أمرا نادرا فى تلك الأيام .

* * *

ونكتفى بما تقدم من هذه المراجع التاريخية التى ألحقناها بالمصادر المسيحية ، وقد ألحقناها بها لأن كتابها فى جملتهم يدونون التاريخ من الجانب الذى له علاقة بكتب العهد القديم والعهد الجديد ، وتغلب عليهم رغبة فى تدوينه على النحو الذى يصحح أخبارها وينقض مآخذ الناقدين عليها ، فهو باب فى التاريخ غير الباب الذى سنفرده لأقوال المؤرخين للحوادث من الوجهة العامة .

وليس أهم من تمحيص هذه الأقوال لمن يريد أن يحقق سيرة الخليل عليه السلام . إذ هى ألزم ما يلزم لمعرفة العقائد والشعوب فى عصره ، ومن هنا تنجلى حقيقة الرسالة وبواعثها ومبلغ الخلاف والوفاق بينها وبين ما حولها ، وكل شىء يتوقف على تقدير أحوال الزمن بعد تعيينه ، وتقدير أحوال الشعوب فى ذلك الزمن بعد التثبت من مواقعها وعلاقاتها وفيما أسلفناه بصيص من النور نرجو أن نضيف إليه بصيصاً آخر يفيض على جوانب السيرة جميعاً ، بعد الفراغ من تلخيص هذه الشواهد والمصادر .

الباب الثالث

المراجع الإسلامية



وتأتى مصادر الإسلام فى ختام مصادر الأديان الكتابية ، وسنرى أنه ما من شىء كالمصادر الإسلامية يثبت قيام دعوة إبراهيم ، بل يثبت وجود إبراهيم الذى شك فيه أصحاب بدعة الشك فى كل خبر قديم من غير سند يستندون إليه ، ولا نعنى هنا أدلة تاريخية تستمد من روايات الأخبار ، وإنما نعنى دليل التسلسل المنطقى الذى يصدق حين تكذب التواريخ ، كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه ، ونكتفى هنا بإيراد أخبار الخليل فى المصادر الإسلامية وهى : القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والتفسير وما يلحق به على سبيل التفصيل أو الاستطراد .

* * *

وردت أخبار الخليل فى سور كثيرة ، بعضها يميل إلى الإسهاب وبعضها يميل إلى الإيجاز ، وهذه هى الآيات الذى جمعت سيرته فى بيان مفصل .

فمن سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾ [مريم : ٤١ - ٤٨]

ومن سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾

[الأنبياء : ٥١ - ٧٢]

ومن سورة الصافات :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا

إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ [الصافات : ٨٣ - ١١٣]

ومن سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

(١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين (١٣١) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٣٢) ﴾

[البقرة: ١٢٥ - ١٣٢]

ومن سورة ال عمران :

﴿ كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين (٩٣) فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون (٩٤) قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (٩٥) إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين (٩٦) ﴾

[آل عمران: ٩٣ - ٩٦]

ومن سورة البقرة :

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين (٢٥٨) ﴾

[البقرة: ٢٥٨]

ومن سورة الأنعام :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين (٧٤) وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين (٧٥) فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين (٧٦) فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين (٧٧) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون (٧٨) إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من

الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ [الأنعام: ٧٤ - ٨٣]

ومن سورة إبراهيم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٤١]

ومن سورة الحج :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧]

ومن سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة : ٢٦٠]

ومن سورة الذاريات :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾
[الذاريات : ٢٤ - ٣٤]

ومن سورة هود :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾

ومن سورة النحل عن دين إبراهيم :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾ [النحل : ١٢٠، ١٢١]

ومن سورة لأنعام عن دين إبراهيم والإسلام :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) ﴾ [الأنعام: ١٦١]

ومن سورة آل عمران عن دين إبراهيم والإسلام وسائر الأديان :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) ﴾ [آل عمران: ٦٥ - ٦٨]

* * *

هذه جملة الآيات التى جاء بها القرآن الكريم مطولة فى سيرة إبراهيم أو مشيرة إلى دعوته وما فيها من سابقة للدعوة الإسلامية ، ولا حاجة بمن يكتب عن الدعوة الإسلامية إلى إبراز جانب منها لإثبات الانتقال من العقيدة المحصورة فى عصبية خاصة إلى العقيدة التى تعم كل أمة وتخاطب كل ملة ، فهذه المساواة بين الأمم هى صبغة الإسلام فى كل جانب من جوانب دعوته من مبدئها إلى ختامها .

أما أخبار إبراهيم فى القرآن فمنها ما تقدم فى التوراة والمشناه ، ومنها ما انفرد به القرآن . ومداره على أمرين :

أحدهما خاص بالوقائع ، وهو قيام إبراهيم وإسماعيل إلى جوار البيت الحرام ، والآخر خاص بالنظرة الدينية وهو على جانب عظيم من الدلالة فى هذا المقصد ، لأنه يبين الفارق بين التجسيم والتنزيه فى العبادة على مدى الزمن الذى انقضى بين كتابة أسفار العهد القديم وقيام الدعوة المحمدية .

فالضيوف الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين كانوا يأكلون ويشبعون من الطعام ، وكان مفهوماً من أسلوب بعض النسخ القديمة أن واحداً منهم هو الاله ، ثم أصبح مفهوماً أنه مَلَك يتكلم باسم الاله ومعه صاحباه من السماء .

إلا أن القرآن الكريم يروى قصة هؤلاء الضيوف ولا يروى أنهم أكلوا وشبعوا ، بل جلسوا إلى الطعام ولم تصل أيديهم إليه ، وسألهم إبراهيم أن يأكلوا فلم يفعلوا ، فأوجس منهم خيفة وعلم من ثم أنهم من غير البشر وأن لهم شأناً غير شأن ضيوف الزاد والمقام .

إن هذه النقلة ليست بالأمر الهين فى تاريخ بنى الإنسان . فإن النوع الإنسانى قد انتقل من استخدام مادة الحجر إلى استخدام مادة الحديد فى عشرات الألوف من السنين ، فهذا الانتقال بين العقل الذى يقصر عن إدراك مخلوق سماوى يخالف الأجساد الحية فى مطالبها المادية ، هو الانتقال الذى يؤرخ به عصران فى حياة بنى الإنسان ، بينهما من الفارق أبعد جداً مما بين عصر الحجر وعصر النحاس وعصر الحديد .

* * *

وأهم المصادر الإسلامية بعد القرآن الكريم أحاديث النبى عليه السلام ومنها طائفة عن الخليل تصفه وتصف أعماله وتلم بسيرته ، وللفقهاء فيها خلاف . إذ كان بعضها ينسب أموراً إلى الخليل لم يعهد فى الأحاديث النبوية أن تنسبها إلى الأنبياء .

والحكم فى هذا الخلاف أن الأحاديث التى يرويها الآحاد لا يجوز أن تخالف أصول الاعتقاد ، لأن الآحاد يجوز عليهم الخطأ والكذب ، ومثل ذلك لا يجوز فى العقيدة ، ولا سيما العقيدة التى يقررها الكتاب .

وقد أخذ الإمام الفخر الرازى بهذا الحكم فى تفسيره ، ودارت حوله مساجلة بين الشيخ عبد الوهاب النجار ولجنة العلماء التى راجعت كتابه عن قصص الأنبياء ، فقال رحمه الله :

« نص العلماء على أن الحديث إذا كانت روايته أحاداً وفيه نسبة المعاصى أو الكذب إلى الأنبياء يرد » .

« ففى شرح العصام على العقائد النسفية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه : « إذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن أو محمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعث » .

وجاء فى الحاشية عليه قوله : فما كان منقولا بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود ، لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصى إلى الأنبياء .

ونحن نمهد بهذه الملاحظة للأحاديث التى ننقلها ، ونختار من الأحاديث ما له علاقة بصميم السيرة وندع للقارىء أن ينظر فيها وبين يديه ما تقدم من أقوال الفقهاء .

ففى بعض الأحاديث أن إبراهيم كان أشبه الناس بالنبى عليهما السلام .

وعن أبى هريرة قال :

« قال النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به: لقيت موسى . قال فنعته . فإذا رجل حسبته قال - مضطرب - رَجْل[1] الرأس كأنه من رجال شنوءة[2] قال : ولقيت عيسى فنعته النبى صلى الله عليه وسلم وقال : ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » .

وعن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس رضى الله عنهما ، فذكروا الدجال فقال : إنه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ، و لكنه قال :

« أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فَرَجُل آدم جعْد على جمل أحمر مخطوم بخلبة ، كأنى أنظر إليه إذا انحدر فى الوادى يلبى » .

وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« عرض على الأنبياء ، فإذا موسى عليه السلام رجل ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى بن مريم عليه السلام فإذا

---

(١) الشعر الرجل بسكون الجيم ما كان بين الجعد والمرسل

(٢) أزد شنوءة قبيلة عربية مشهورة .

أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : « دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيت فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم ، فقال : أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة . هذا إبراهيم مصور فماله يستقسم ؟ » .

وعن ابن عباس أنه عليه السلام لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ! والله إن استقسما بالأزلام قط .

وعن أبى هريرة قال : قال رسل الله صلى الله عليه وسلم .. اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقادوم .

وعن ابن عباس فى قصة هاجر : « ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم ! أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت إذن لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وجعلت أم إسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى .. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلذلك سعى الناس بينهما .. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم تسمعت أيضًا فقالت : قد اسمعت أن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ! وقال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معينا . قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابيه تأتيه السهول فتأخذ عن يمينه وشماله .

« فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم مقبلين عن طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ،

فأرسلوا جريا أو جرين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا .. قال : وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا نعم .

« قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حتى شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا رزقا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت : نحن بشرّ . نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام ، وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، سألنى : كيف عيشنا فأخبرته إنا فى جهد وشدة . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال إسماعيل ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم فلم يجد إسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغى لنا الرزق ، قال كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم .. قالت اللحم والماء . قال فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء ، قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ،

فلما جاء إسماعيل ، قال هل آتاكم من أحد ؟ قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم وهو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .. قال ذاك أبى ، وأنت العتبة . أمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل ! إن الله أمرنى بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك . قال وتعيننى ؟ قال : أعينك ! قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

هذه القصة التى رواها ابن عباس وتخللها بكلمات للنبى عليه السلام هى أطول خبر عن إبراهيم نقله رواة الحديث .

أما الأحاديث التى أشرنا إلى الخلاف عليها بين الفقهاء . وعلماء الأصول فمنها الحديث التالى وفيه غنية .

حدث أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله ، قوله إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه ساره ، وكانت أحسن الناس ، فقال

لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي ، فإنك أختي في الإسلام ، فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتي بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها إدعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأولين ، فقال : إدعي الله أن يطلق يدي فلك عهد الله ألا أضرك ، ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان . فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر .. قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها : مهيم[1] . قالت خيرا . كف الله يد الفاجر وأخدم خادما » .

قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء !

* * *

وليس بعد القرآن والأحاديث النبوية من مصدر يصح أن يسمى إسلاميا غير أقوال المفسرين .

وإنما تسمى أقوال المفسرين مصدراً إسلاميا حين تكون مقصورة على تفسير معاني القرآن وألفاظه أو الاستشهاد بالأحاديث النبوية . فأما ما عدا ذلك فلا ينسب إلى الإسلام ، وإنما المرجع فيه إلى الأخبار المروية

---

(١) مهيم بسكون الهاء وفتح الياء اسم فعل بمعنى ما خبرك ، وهي منحوتة من (ما ها يوم) العبرية بمعنى ما يومك أي ما خبرك .

عن النسابين وأصحاب الأخبار عامة ، ومنهم اليهود الذين أسلموا والنسابون الذين توارثوا تواريخ أسلافهم بالسماع .

فمن اليهود الذين أسلموا كعب بن ماتع الحميرى الذى اشتهر باسم كعب الأحبار ، كان من علماء اليهود فى اليمن وأسلم فى زمن أبى بكر ، وعاش فى المدينة زمنا ثم خرج إلى الشام بعد مقتل عمر فأقام بحمص ومات فيها .

ومنهم وهب بن منبه ، وهو من يهود اليمن أيضاً ، وكان من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن ثم أسلم وتوفى فى عهد الدولة الأموية ، وكلاهما كثير الرواية والنقل عن الكتب الإسرائيلية ، ويظن بهما أنهما وضعا كثيراً مما روياه .

والمعلوم أن المسلمين فى صدر الإسلام لم يتحرجوا من النقل عن أهل الكتاب إلا فيما يناقض القرآن الكريم ، لأن المسلم يؤمن بالكتب التى تنزلت قبل القرآن ويؤمن بأن العقائد التى تخالف عقيدته منها تحريف من الكهان والأحبار وأنهم يجهلون بعض ما عندهم من الآيات ويخفون بعضها أو يتمحلون له التأويل .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾ [الأنعام : ٩١]

الأنعام

فإذا دخل عالم من علماء اليهود فى الإسلام ونفى من روايات دينه ما يخالف القرآن لم يتحرج المسلم أن يستمع إليه فيما ينقله عن كتبه ،

وأمن له واعتبره من العلم الذى سبقه إليه أهل الكتاب ، وكذلك فعل كثير من المفسرين ، وبالغوا فى الطمأنينة إلى أولئك الرواة وفاتهم أنهم إن سلموا من سوء النية لم يسلموا من الجهل وضعف السند وقلة التثبت والتمحيص .

وكان الفاروق والإمام على رضى الله عنهما ينهيان كعب الأحبار عن الإفاضة فى رواياته وأساطيره ، وسخر الفاروق منه حين زعم له أن مقتله مكتوب فى التوراة ، ولم يثبت أحد من جلة الصحابة شيئًا من تلك الأساطير ، ولكن كعب الأحبار وأمثاله قد طاب لهم أن يتحدثوا بتلك الأساطير التى ينفردون بدعواها فأفرطوا فيها وجعلوا يطرقون السامعين بجديد كلما نفد قديمهم المعروض وآنسوا من السامعين إقبالاً على هذه البضاعة التى لا يزاحمهم فيها أحد من المسلمين .

إلا أن المصادر الإسرائيلية لا تستوعب كل ما وعاه العرب قبل الإسلام من تواريخ عقائدهم ولا سيما العقائد التى تلصق بالكعبة ونشأتها وإقامة الشعائر فيها وأسباب تلك الشعائر منذ أقدم عصورها .

ومن الخطأ أن يقال : إن الروايات عن بناء الكعبة تلفيق من اليهود لإرضاء العرب والتقرب إليهم بتوحيد النسب بينهم والارتفاع بنسبهم جميعًا إلى جدهم إبراهيم . فإن نسبة العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم مكتوبة فى سفر التكوين ، ومن العرب الذين كانوا يجهلون التوراة من كانوا ينسبون أنفسهم إلى (نبات) ابن إسماعيل كما جاء فى تاريخ ديودورس الصقلى المتوفى بعد منتصف القرن الأول للميلاد ، وقد كانت الروايات ترتفع ببناء الكعبة إلى آدم وإلى الملائكة ولا تقف بها عند إبراهيم .

وجاء فيما رواه التقى الفاسى صاحب كتاب شفاء الغرام أن الكعبة بنيت عشر مرات : بناء الملائكة وبناء آدم وبناء أولاده وبناء إبراهيم وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصى بن كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج ، ثم قال إن بناءها قبل إبراهيم لم يأت به خبر ثابت ، وقال المسعودى إن بناء الملائكة وآدم وشيث لم يصح وأما بناء جرهم والعمالقة وقصى فهو ترميم ، وتوسع الأرزقى صاحب كتاب أخبار مكة غاية التوسع فى هذه الروايات التى لم تستوعبها الإسرائيليات ، ولا يمكن أن تستوعبها ، لأن تبجيل العرب للكعبة أقدم من هذه الاسرائليات . وقد جاوز حدود جزيرة العرب إلى الهند ومصر كما ذكر برتون فى رحلته إلى الحجاز ، ولا يزال الصابئة اليوم كما كانوا قبل الإسلام يحسبونها من البيوت السبعة التى تناظر الكواكب السبعة ويقولون إنها بيت أشرفها دارا وهو زحل ، وستبقى فى الأرض ما بقى زحل فى السماء !

* * *

وسيأتى الكلام بشىء من التفصيل عن سلالة إبراهيم فى البلاد العربية ، ولا محل هنا لنقل الروايات المختلفة التى اقتبسها المفسرون أو المؤرخون التفسيريون ، سواء منها ما أخذوه من الإسرائيليات وما أخذوه من حفظة الأنساب وأبناء الأسلاف ، فإنها جميعا على نحو ما تقدم ، ولكننا ننقل هنا ما فيه اجتهاد للمفسرين أو ما فيه خبر يضاف إلى أخبار السيرة ويعولون على روايته .

فالمفسرون الأوائل يقولون إن النار لم تحرق إبراهيم لأن الله سلبها خاصة الإحراق ، والألوسى صاحب روح المعانى من المفسرين المتأخرين

يقول : « وأيا ما كان فهو آية عظيمة ، وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبى الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسين إلى حضرة الولى الكامل الشيخ أحمد الرفاعى قدس سره من الفسقة الذين كانوا يكونون لكثرة فسقهم كفارا ، فقيل إنه باب من السحر المختلف فى كفر فاعله وقتله ، فإن لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ، ولا يبعد أن يكون كفرا وإن كان معها ما لا كفر فيه .... ولم يكن ذلك فى زمن الشيخ الرفاعى قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعا للسنة وأشدهم تجنبا عن مظان البدعة ، وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل اتباعه قدس سره ، ثم طرأ على بعض المنتسبين إليه ما طرأ .

قال فى العبر : قد كثر الزلل فى أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق - من دخول النيران ركوب السباع واللعب بالحيات ، وهذا لا يعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم .

والحق أن قراءة شىء مما عندهم ليست شرطا لعدم التأثر بالدخول فى النار ونحوه ، فكثير منهم من ينادى إذا أوقدت له النار وضربت الدفوف : يا شيخ أحمد يا رفاعى أو يا شيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر منها دون تلاوة شىء أصلا ، والأكثر منهم إذا قرأ الأسماء على النار ولم تضرب له الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمرة ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادى من ينادى من المشايخ فيدخل ويتأثر .

والحاصل أنا لم نر لهم قاعدة مضبوطة . بيد أن الأغلب أنهم إذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زق الخمر ويشتغيث بمن يستغيث ويدخل تنورا كبيرا تضطرم فيه النار فيقعد فى النار ويشرب الخمر ويبقى حتى تخمد النار فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شيء . وأقرب ما يقال فى مثل ذلك أنه استدراج وابتلاء .

وأما أن يقال إن الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعى قدس سره بعدم تأثر المنتسبين إليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره إذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب إليه فى بعض الأحوال ، فبعيد ، بل كأنى بك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين فى بعض الأحوال إعانة له ، وقد يأخذ بعض النار بيده ولا يتأثر لأجزاء يطلى بها يده من خاصيتها عدم إضرار النار للجسد إذا طلى بها ، فيوهم فاعل ذلك أنه كرامة .. »

والشيخ محيى الدين بن عربى يفسر الآية على أسلوب المتصوفة الذين يرمزون بالكلمات إلى الأسرار فيقول : « **حرقوه** أى اتركوه يحترق بنار العشق التى أنتم أوقدتموها أولاً بالقاء الحقائق والمعارف إليه التى هى حطب تلك النار عند رؤيته ملكوت السماوات والأرض بإرادة الله إياه ، كما قال : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماء والأرض واشراق الأنوار الصفاتية والأسمائية عند تجليات الجمال والجلال عليه من وراء أستار أعيانكم التى هى منشأ اتقاء النار ، **وانصروا آلهتكم** أى معشوقاتكم ومعبوداتكم فى الإمداد بتلك الأنوار وإيقاد تلك النار . **إن كنتم فاعلين** .

بأمر الحق : **يا نار كونى بردا وسلاما** بالوصول حال الفناء . فإن لذة الوصول تفيد الروح الكامل والسلامة عن نقص الحدثان وآفة النقصان والإمكان .. وأرادوا به كيدًا - بإفنائه واحراقه .. »

ومن المفسرين المحدثين محمد على الهندى الذى ترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية واجتهد فى تفسير آياته ، فقال : إن الحادث - حادث الأصنام المحطمة - قد أهاج ثائرة القوم وأوقد نيران ضغنهم ، وإن الآية التالية تدل على أن النار نار كيد - « **وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين** » .

ولعلهم أرادوا إحراقه فنجاه الله من تدبيرهم ، ثم فسر الآية فى سورة العنكبوت : « **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه فأنجاه الله من النار** » فقال فى تفسيرها : إن أعداءه عجزوا عن إحراقه وكانوا يدبرون له القتل والإحراق فلم يستطيعوا .

والإمام البيضاوى يفسر : « **فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم** » فيفهم من الآية انه ربما رأى مواقع النجوم واتصالاتها أو نظر فى عملها أو فى كتابها ثم يقول : ولا مانع منه مع أنه قصد إيهامهم ، وقد سألوه أن يخرج معهم إلى عيدهم الذى يعبدونه لأربابهم ، فأراهم أنه استدل بالنجوم - لأنهم كانوا منجمين - على أنه مشارف للسقم ، وكان أغلب أسقامهم الطاعون ، ويخافون عدواه ..

قال : وربما أراد أنه سقيم القلب لكفرهم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال ..

* * *

ومن الجديد فى المصادر الإسلامية أن إبراهيم ولد على مقربة من دمشق وأن آزر عم إبراهيم ولم يكن أباه . قال صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور : « روى وهب بن منبه أن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم بن تارح بن ناخور . وقال الحافظ السهيلى إنه كان مولودا ببلاد حوران ، وقيل بقرية تسمى برزة من قرى دمشق فى مغارة هناك معروفة ، وفيها الدعاء مستجاب .. قال الرواة : أن ساما وحاما ويافتا أولاد نوح عليه السلام كانوا ثلاثة أقسام : فكانت النبوة فى الإسلام أولاد سام ، ومساكنهم الحجاز وما يليها ، والقوة فى أولاد حام ومساكنهم المغرب ، والتجبر فى أولاد يافث ومساكنهم المشرق .. »

ومن المختلف عليه بين المفسرين والمؤرخين التفسيريين قرابة سارة وإبراهيم .. فالحافظ ابن كثير يروى أن المشهور أنها ابنة عم إبراهيم يسمى هاران ، ويقول ابن اسحاق الثعلبى صاحب قصص الأنبياء نقلا عن أهل العلم بسير الماضين أنها ابنة عمه ولا يذكر اسمه .

ويختلفون كذلك فى ولد إبراهيم الذى أمر بذبحه ، فمنهم من يرى أنه اسحاق ومنهم من يرى أنه إسماعيل ، وجاء فى قصص الأنبياء : أن محمد بن اسحق روى عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول : إن الذى أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل .. ولم يكن يأمره بذبح إسحاق وله فيه من الله تعالى من الموعود ما وعده ، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل .

قال محمد بن كعب القرظى فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كنت معه بالشام . فقال لى عمر : إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ،

وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده من الشام وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علماء يهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أى ابنى إبراهيم الذى كان أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل . ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه اسحاق ، لأن اسحاق أبوهم » .

وسنرى فيما يلى أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق فى أهميته جانب البحث التاريخى الذى يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من ابنى إبراهيم ، فإنه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود ويتعلق به الحذف والإثبات فى سيرة إبراهيم ليتصل بذرية إسحاق وينقطع عن ذرية إسماعيل أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل وينقطع منها كل ما يتعلق بالعرب ، وأن هذا النزاع قد بدا قديما قبل تدوين نسخ التوراة التى كتبت فى بابل ، أى قبل الميلاد بعدة قرون ..

وواضح أن النزاع فى أوله لم يكن نزاعا على العقيدة ، فإن العهد القديم يروى عن إبراهيم أنه قدم العشر لملكى صادق كاهن الله « العلى » أو عليون الذى كان معبودا لسكان فلسطين وما جاورها إلى الجنوب ، وقد زار هيرودوت بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر وروى عنهم أنهم كانوا يعبدون الله تعالى (Orotal) واللات أو إيليلات Alilat منذ قرون سابقة للقرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذى عاش فيه هيرودوت . فلم يكن النزاع على العقيدة فى نشأته إلا فرعا من فروع التنازع على الميراث ، ولم

يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة إلا أنها تعزز دعواها فى ذلك النزاع ، وتنفى عنه من ينازعها عليه .

وهذه المشكلة التى عرضت لمحمد بن اسحاق القرظى قد صادفت فقهاء المسيحية من قبل كما صادفت فقهاء الإسلام .. إذ كيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحاق وهو ابنه الموعود الذى يخرج منه شعب الله المختار ؟ إن كاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول فى الاصحاح الحادى عشر حلا لهذه المشكلة : « إن إبراهيم بالإيمان قدم إسحاق .. وحيده .. الذى قيل له إنه باسحاق يدعى لك نسل ، إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات » .

وحل المشكلة على هذا الوجه جديد فى المسيحية لم ينظر إليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم إبراهيم بموت اسحاق ، وأنه أطاع الله ولم يطع قلبه ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود ، ويبقى من المشكلة جانب آخر وهو وصف الابن بالوحيد ، فلم يكن اسحاق وحيداً مع وجود إسماعيل ، وأما إسماعيل فكان وحيداً قبل مولد إسحاق .

إن فهم السيرة كما جاءت فى الكتب الدينية أو فى كتب الشروح والتعليقات لا يتهيأ للباحث ما لم يضع أمامه سر الاختلاف على إسحاق وإسماعيل ، وما نقلناه هنا من المصادر الإسلامية يوضح هذا السر بعض الإيضاح ، وربما تم إيضاحه بما يلى من مصادر التاريخ .

الباب الرابع

مراجع الصابئة



تدين بعقائد الصابئة ملة يبلغ عدد أبنائها ستة آلاف ما بين رجل وامرأة وطفل ولا يجاوز بها المبالغ فى عددها عشرة آلاف .

وهى على قلة عددها تستقل بلغة « مقدسة » خاصة ، ولها كتابة أبجدية ، وأحكام دينية فى معيشتها لا تشبه فى جملتها دينا واحداً ولكنها تشبه فى بعض أجزائها كل دين .

ومن ثم كان لها شأنها فى الدراسات الدينية .

ففيها ولا شك عقائد سابقة لجميع الأديان الكتابية ، وعقائد سابقة لدين الخليل .

بل فيها ، على رأى بعض الباحثين ، بقية من الديانتين المختلفتين فى عصر الخليل ، لأن الصابئة يدينون بمذاهب مختلفة يرد بعضها على بعض و لا سيما مذاهب الكواكب و الأصنام ،مما تواترت الأخبار بالاختلاف عليه بين قوم إبراهيم ومن حاربوهم واضطروهم إلى الهجرة من بلادهم .

ويقول رايت Wright صاحب كتاب المطالعة العربية : إن حروفهم الأبجدية تشبه الحروف النبطية ، وأن لغتهم تشبه لغة التلمود الذى كتب فى بابل ، ويقولون هم إن لغتهم الأولى سريانية وأنهم كانوا بمصر على عهد الفراعنة الأول وتلقوا ديانتهم الأولى من أحبارها ثم هجروها حين تحول أهلها عن الدين القويم .

والمحقق من أمرهم أنهم يرجعون إلى أصل قديم ، لأن استقلالهم باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، لم ينشأ فى عصر حديث ، ولهذا يفهم الدارسون للأديان أن تحقيق لغتهم وكتابتهم يؤدى إلى جلاء الغوامض عن

تاريخ الكلدان فى الزمن الذى قام فيه الخليل بدعوته ، ويؤكد هذا الفهم أن هؤلاء الصابئة يقيمون فى الأقاليم الجنوبية من العراق حيث أقام الخليل فى رواية العهد القديم ، ومنهم فئة تحج إلى حاران التى هاجر إليها ، وينسب إليها الصابئة الحرانيون .

ومع استقلال الصابئة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، يشتركون مع أصحاب الأديان فى شعائر كثيرة ، ولا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابئة من مشابهة له فى إحدى الشعائر .. فهم يشبهون البراهمة والمجوس والأورفيين أصحاب النحل السرية ، كما يشبهون اليهود والنصارى والمسلمين ، كما يشبهون الفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية فى تفسير الوجود والموجودات .

وهم كما يشبهون الجميع يخالفون الجميع .

وتعليل هذه المخالفة أنهم تشبثوا بأصل قديم لا يفارقونه ، أما تعليل المشابهة فليس بالعسير ، فإن مقام الصابئة عند خليج فارس يجعلهم فى طريق كل ملة يتردد أبناؤها على ذلك الاقليم أو يقيمون فيه ، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون ، واتصل به أبناء البحار ، كما اتصل به أبناء الصحراء ، فليس بالعجيب أن تعلق بعقيدة الصابئة الأقدمين مسحة من كل ملة على طول الزمن وتتابع العهود .

فمن مشابهتهم للبراهمة أنهم يتحرجون من ملامسة غيرهم ويتطهرون إذا لمسوا غريباً فى حالة من حالات العبادة .

ومن مشابهتهم لأصحاب العقائد الأورفية - أو السرية - أنهم يكتمون كتبهم أشد الكتمان ، ولا يباشرون شعائرهم مع الغرباء ، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة على الاخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان ، وأن الخلق خلقان . فالكون الظاهر غير الكون الباطن ، ولكل مخلوق فى العلانية صورة محجوبة فى عالم الغيب ، حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن لا يراهم من يعيشون فى العلانية .

ومن مشابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون إلى قطب الشمال وإلى الكواكب عامة ولكنهم لا يعبدونها ، بل يحسبونها من مظاهر الروحانيات التى لا تبرز للعيان .

ومن مشابهتهم للمسيحيين أنهم يدينون بالعماد ويبجلون يوحنا المعمدان أو يحيى المغتسل . ولكن التعميد أعم عندهم من التعميد فى المسيحية ، ويندر منهم من يسكن بعيداً من الأنهار لحاجتهم كل يوم إلى العماد ، وإلى التطهر بالماء .

ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات فى اليوم ، ويقولون أنهم فرضت عليهم سبعاً ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها فى بعض واكتفى منها بثلاث ، ولكنه لا يسجدون فى صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع ، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة ويعرفون نواقض الوضوء ولكنهم يغالون فيها .

وعندهم ذبائح كذبائح اليهود ويوم فى ختام السنة كيوم اليهود . ولكنهم يحرمون الختان ولا يبنون لهم هيكلاً قائماً ، بل يبنون الهيكل من القصب كما تبنى الخيام ، موقوتاً عند الحاجة إليه فى الأعياد . فكأنها بقية أو أصل لعيد الظلال وللهيكل المنقول .

ومنهم من ينتمى إلى كاظم بن تارح ، وقد ذكرهم المقريزى بين الفرق المختلفة ، وكأنهم يقابلون دين إبراهيم بدين أخ له ينتمى إلى تارح ، أبى إبراهيم فى رواية العهد القديم .

وهم ينكرون الأنبياء ، ويقولون إن الله لا يخاطب أحداً من البشر وإنما خلق الله الروحانيات ، أى الملائكة ، ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العباد حين يشاءون ، صنعوا لها صوراً من الأوثان ، وجعلوا اتجاههم إلى نجم القطب لأنه ثابت فى مكانه ، لا يختلف له فلك باختلاف الأزمان .

ولهم أقوال فى تنزيه العقل الإلهى تشبه أقوال الفلاسفة ، ومنهم من يحرم الطعام الذى حرمه اتباع فيثاغورس كالبصل ويضيفون إليه أنواعاً من الخضر كالكرنب ولحوم الحيوان ذى الذنب ، لأنهم يستوحون الغيب فى الرؤيا ، وهذه الأطعمة تمنع الرؤيا الصادقة .

والغالب أنهم عرفوا شيئاً من أقوال حكماء اليونان من طريق القساوسة النسطوريين الذين هاجروا إلى جنوب العراق فى صدر المسيحية هرباً من الاضطهاد ، وكان أكثرهم يعرفون اليونانية ويقرأون الفلسفة ولاسيما الرواقية والفيثاغورية ، ولكن اتصال اليونان ببلاد الكلدان أقدم من المسيحية ومن اليهودية ، ومن الكلدانيين أخذ اليونانيون خصائص الكواكب المعبودة وحرمات المعابد التى تقام لها ، وشعائر

الطواف بها وحماية الضحايا التى ترسل فى حرم المعبد وما إلى ذلك من العادات والعبادات التى اندثرت بين الصابئة المحدثين ضرورة لا حيلة لهم فيها ، لأن إقامة الحرم فى مكان مطروق إنما يقوم بقوة الحاكم ، وبناء المعابد إنما يقوم بوفرة المال وكثرة العدد ، وهم قلائل متفرقون لا يملكون الثروة ولا السلطان .

والمشهود عن الصابئة أنهم يوقرون الكعبة فى مكة ويعتقدون أنها من بناء هرمس أو ادريس عليه السلام وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه السلام ، فى كتبهم ، ويسمونه عندهم ملك العرب ، لأن الشائع فيهم أنهم لا يؤمنون بالأنبياء إلا فرقة واحدة تذكر شيئاً وادريس وإبراهيم ويحيى المغتسل ويحسبونهم تارة من الأنبياء وتارة من عباد الله الخلص الذين وصلوا بالرياضة والعبادة إلى مقام الزلفى والإلهام .

وقد كان الباحثون يعجبون لتنويه القرآن الكريم بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها ، ولكن الدراسات الحديثة بينت للباحثين العصريين شأن هذه الملة فى دراسات الأديان كافة ، فعادوا يبحثون عن عقائدها الآن وعقائدها فى عصر الدعوة الإسلامية ، وثبت لهم أنها تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتؤمن بالحساب والعقاب ، وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور « آلمى دنهورو » وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام « آلمى دهشوخا » ويلبثون فيه زمناً على حسب ذنوبهم ، ثم ينقلون منه إلى عالم النور .

ولهم كتاب يسمونه (كنزة) ولعله من مادة الكنز التى تفيد معنى النفاسة والكتمان ، لأنهم يقدسونه ويخفونه فلا يطلعون أحداً على أسراره .

إلا أن المتفق عليه أن اللغة التى كتب بها كتاب الكنزة وغيره من الكتب المقدسة عندهم هى لغة سامية الأصل قريبة من السريانية ، وتكفى نظرة فى مصطلحاتهم للجزم بهذه الصلة الوثيقة بين لغتهم واللغة العربية الحديثة فضلاً عن القديمة المهجورة .

فمن كلماتهم ومصطلحاتهم « ألمى » بمعنى عالم ، و« شماش » بمعنى شمس و« هى » بمعنى حى ، و« روحايا » بمعنى روح ، و« موشيهة » بمعنى المسيح ، و« بهية » بمعنى يحيي ، و« قدومى » بمعنى القديم ، وحران « سفلابى » بمعنى السفلى و« ترميد » بمعنى تلميذ ، و« أسفر » بمعنى سفر ، و« تنيائى » بمعنى الثانى ، و« تليثائى » بمعنى الثالث ، واسم الصابئة نفسه على ما يقول بعضهم مأخوذ من السابحة ، سموا به لكثرة الاغتسال فى شعائرهم وملازمتهم شواطىء الأنهار من أجل ذلك ، ولكنهم يطلقون على ملتهم اسم « مندالى » ولا يعرف من أين مأخذه القديم ، واشتقاق اسمهم من السبح أرجح من نسبة الاسم إلى السبأوث العبرية بمعنى الجنود – جنود السماء – أى الكواكب ، التى اشتهروا بعبادتها .

والأبجدية عندهم قريبة من أبجدية حساب الجمل على حسب ترتيبها فى أبجد هوز حطى كلمن .. إلخ وهى « آ . با . كا .دا .ها . وا . زا .

ها . طا . با . كا . لا . ما . نا . سا . اى . يأ . صا . فا . را . شا . تا » .

ومن هذه الحروف ما يقارب مخارج الحروف التى تقابله فى اللغة الفارسية ، لأنهم تعودوا نطقها منذ زمن قديم .

ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم ، لأنهم يصطنعون التقية ويوجبونها ، ومن ذاك أنهم يحرمون الصيام باطناً كما اشتهر عنهم ، ولكنهم يصومون جهراً . ويروى ابن النديم فى الفهرست أنهم يصومون ثلاثين يوماً مفرقة على أشهر السنة ، وقد يتنفلون بصيام أيام النسىء الخمسة ، ويروى عنهم أيضاً أنهم يصومون خمسة أسابيع يأكلون فيها الطعام نهاراً وليلاً ويجتنبون أكل اللحوم المباحة لهم وهى غير ذات الذنب ، ويقال : إن الصيام بنوعيه قديم عندهم يرجع إلى أيام البابليين .

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء فى سورة البقرة « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم فى أيام الدعوة الإسلامية ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية ، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الإسلام ، ولابد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس إلى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا ، دعاها بأسمائها فوجدت ، ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بوساطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله .

وأقرب ما نشبه به هذه العقيدة أنها كالحوض الذى تصب فيه مسارب الماء من كل مورد ، فإذا أخذت ماءه فحللته فوجدت فيه أثراً من كل مسرب ، ولكنها توجد فيه على امتزاج ولابد من الجهد لتصفيتها والرجوع بكل جزء من أجزائها إلى ينبوعه الذى صدر منه فى أصله البعيد .

وهكذا العقيدة الصابئية فى امتزاج عناصرها وعلاقة كل عنصر منها بالقصائد الأخرى ، ولكنها على هذا الامتزاج مهمة جداً فى البحث عن تلك العقائد ، وبخاصة عقيدة الخليل .

فهى مهمة من وجهة المكان ، لأنها قديمة العلاقة بكل مكان تعلقت به سيرته عليه السلام ، من جنوب الفرات إلى شماله ، إلى بلاد السريان ، إلى البلاد النبطية من شمال الحجاز .

وهى مهمة من وجهة زمانها ، لأن لغتها المقدسة تشير إلى زمان متوسط بين اللغات القديمة المهجورة واللغة السريانية الحديثة ، ولم تكن لغة إبراهيم سريانية حديثة كالتى بقيت إلى الزمن الأخير ، ولم تكن إحدى اللغات المهجورة التى يجمع المؤرخون موادها مبعثرة متفرقة ولا يفهمون مفرداتها وتراكيبها وقواعدها ، فإن تلك اللغات المهجورة قد انقطعت صلتها بمن بعدها على خلاف لغة الخليل . فإذا أشارت لغة الصابئة إلى زمن متوسط بين اللغات المهجورة واللغات السامية المتأخرة فهى إحدى القرائن التى يستعان بها على تعيين زمان الخليل .

وهى مهمة من جهة موضوعها ، لأنها ترينا ملتقى التوحيد القديم والوثنية القديمة ، وفيها بقايا الاصطدام بين العقيدتين ، وقد يكون مدار الاختلاف بين عقيدة الخليل ومخالفيه حول هذا المصطدم ، فإن بقايا التنازع بين المعتقدات ظاهرة فى العقائد الصابئية ، يكاد بعضها أن يكون

رداً على البعض الآخر ، فلا وثنية ولا إيمان بالكواكب من جهة ، ولا خلاص في الوقت نفسه من الوثنية والإيمان بالكواكب على صورة من الصور ، ولعل العقيدة الصابئية كما بقيت خليط مجتمع من الجانبين بعد هجرة إبراهيم وشيعته من وطنهم القديم .

ومن هنا كانت نحلة الصابئية مهمة في دراسة الأديان على العموم ودراسة دين إبراهيم على الخصوص ، وكان لها في ذلك شأن لا يناسب عددها القليل وعزلتها التي فرضتها على نفسها وفرضتها عليها أحداث الأيام .

الباب الخامس

مصادر
التاريخ القديم

لم يبق من المراجع القديمة ما يضاف إلى الأبواب السابقة غير أقوال المؤرخين الأقدمين .

وهؤلاء المؤرخون الأقدمون ينتمون إلى الأديان الكتابية الثلاثة ، ويعول كل منهم على كتب دينه ، فلا يناقضها ، وقد يزيد عليها ما ينطوى فيها ولا ينفيها ، وقد يأتى فى أخبارهم ما يخالف كتب الأديان الأخرى ويزيد عليها شيئاً لا يسلمه من يعتقدونها ، ولكن التواريخ القديمة على العموم لم تعتمد على مصدر غير كتب الدين وتفسيراتها فى كل ملة .

وليس المقام هنا متسعاً للإفاضة فى النقل من كتب المؤرخين الأقدمين ، فنحن نختار مؤرخاً من كل ملة يقتدى بها المقتدون فى بابه ، ونكتفى بيوسيفوس من مؤرخى اليهود ، وأبى الفرج بن العبرى من مؤرخى المسيحيين وأبى الفداء من مؤرخى المسلمين :

١ - تاريخ يوسيفوس

« سأتكلم الآن عن العبرانيين :

« فالج بن عامر ولد له رعوس ، وولد لرعوس سيروج ، وولد لسيروج ناخور ، وولد لناخور ثيروس[1] Therrus وهو أبو إبراهيم العاشر من سلالة نوح ، ومولده فى سنة ٩٩٢ بعد الطوفان .

« ... وكان لإبراهيم اخوان : ناخور وآران

« وولد لآران (حاران) لوط وبنتان هما سارة وملكة ، ومات فى بلاد الكلدان فى بلدة تسمى أور الكلدانيين ، وقبره هناك يرى إلى اليوم .

---

(١) هكذا ينطق بالاغريقية وهو تارح فى كتب اليهود .

وتزوج ناخور بنت أخيه ملكة ، وتزوج إبراهيم بنت أخيه سارة ، وكره ثيروس المقام بأور حيث فقد ابنه المحزون عليه حاران ، فهاجر منها إلى شاران (حران) بالعراق حيث مات ثيروس وله من العمر مائتا سنة وخمس سنوات ، إذ كان عمر الإنسان قد قصر ولم يزل يقصر إلى عهد موسى فأصبحت غايته مائة وعشرين سنة وهو عمر موسى .

« وولد لناخور ثمانية من زوجته ملكة ، وهم عز وبوغر وبثوئيل وخزام وعنرو وآدلفاس وأدفاس وثبوئيل ، وهؤلاء هم أبناؤه الشرعيون من زوجته ملكة ، أما أبناؤه الآخرون فهم طباى وجدام وطاو وماخاس من جاريته روما .

« وولد لبثوئيل بنت اسمها رفقة وولد اسمه لابان .

« ولما لم يكن لإبراهيم ولد شرعى تبنى لوطاً ابن أخيه داران وأخا زوجته سارة ، وترك بلاد الكلدانيين وهو فى الخامسة والسبعين ليذهب إلى كنعان حيث أمره الله وحيث ترك ذريته من بعده .

« وكان إبراهيم رجلاً متيقظ الذهن فى جميع الأمور ، مقنعاً لمن يسمعه ، غير مخطىء فى فهمه واستدلاله ، فأدرك من حقائق الفضائل ما لم يدركه سائر البشر ، واعتزم أن يصحح الأفكار التى شاعت بينهم عن الله ويغيرها ، فكان من ثم أول من اجترأ على المناداة بأن الله خالق الكون واحد ، وأنه إذا وجد كائن آخر ينفع الناس فإنما يفعل ذلك بإذنه ولا يفعله بقدرة من عنده ، وقد انتهى إلى ذلك من مراقبته لما يطرأ على الأرض والماء والشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية من عوارض

التغير والتقلب ، أو لاح له أن هذه الأجرام لو كانت لها مشيئة لحكمت على نفسها ، فأما وهى لا تملك نفسها فكل ما تصنعه ، وكل ما ينفعنا من صنيعها ، فليس من عندها بل من عند من يحكمها وهو الجدير دون سواه بالشكر والطاعة منا .

والواقع أن هذه الأفكار هى التى أثارت عليه الكلدانيين والعراقيين ، فرأى من الخير بمشيئة الله ومعونته أن يرحل إلى أرض كنعان ، وهناك استقر وبنى لله مذبحاً وقدم عليه القربان .

« ويذكر المؤرخ برسوس أبانا إبراهيم ولا يسميه حيث يقول : إنه فى الجيل العاشر بعد الطوفان ، عاش بين الكلدانيين رجل صدق متبحرا فى العلوم السماوية . وزاد المؤرخ هكتاتوس[1] على ذلك أنه ألف كتاباً عنه ، وقال نقولا الدمشقى فى الكتاب الرابع من تاريخه أن ابراميس[2] حكم دمشق وكان مغيراً قدم من أرض بابل من البلاد التى تسمى بلاد الكلدانيين ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه إلى أرض كنعان – وتسمى اليوم يهودا – وفيها ذريته الذين سأكتب عنهم فى كتاب آخر ، ولا يزال اسم ابرام مشهوراً فى إقليم دمشق حيث تسمى إحدى القرى بمسكن ابرام .

« ثم مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع إبراهيم برخاء المصريين فاعتزم الهجرة إلى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها

(١) عاش هكتاتوس فى مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد .

(٢) حسب الكتابة الإغريقية .

فى أمر الله ،وفى نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم إليها .

« وأخذ سارة معه ، وخاف ولع المصريين بالنساء وأن يغصبه عليها الملك ويقتله من أجلها لجمالها فأوصاها أن تقول أنها أخته ، وحدث بعد وصوله إلى مصر كل ما توقعه فتسامع الناس بجمال زوجته ولم يقنع فرواثيس[1] ملك المصريين بالسماع فهم بأخذها لولا أن الله أحبط جريمته بما فشا فى مصر من الوباء والقلاقل ، ثم قرب الملك قرابينه ليعلم حقيقة البلاء فقال له الأحبار أن البلاد من غضب الله لأنه نوى فى نفسه أن يغتصب امرأة رجل غريب .

« ولما بلغ منه الرعب سأل سارة من هى ومن هو الرجل الذى جاءت معه ؟ فاعتذر لإبراهيم حين علم جلية الخبر وقال له أنه لم يتعلق بها إلا لظنه أنها أخته لا زوجته ، وإنما أراد أن يبنى بها ولم يرد أن يغتصبها فى نزوة من نزوات هواه ، ثم أغدق على إبراهيم ثروة جزيلة[2] ، وطفق إبراهيم يباحث علماء مصر وتزداد شهرته بالعلم والفضيلة .

« ولما رأى إبراهيم أن المصريين متشبثون بعادات شتى يخالف بعضهم بعضا من جرائها ويعادى بعضهم بعضا لأجلها جعل يناقشهم فيها كل فريق على حدة ويبدى لهم جميعا أنها ليست على شىء من

---

(١) يقصد فرعون .

(٢) فى موضع آخر من تاريخ يوسيفوس يذكر أن حاكما أغار على فلسطين واقتاد ساره مع السبايا .

الحق ، ويحل بذلك منهم محل الإعجاب فيعلمون أنه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على إقناع سامعيه فى كل موضوع تناوله ببحثه ، وقد أطلعهم على علم الحساب وقوانين الفلك ولم يكن أحد المصريين على علم بها قبل مقدم إبراهيم ، وإنما جاءت من الكلدان إلى مصر ثم من مصر إلى الإغريق .

« ثم قسم الأرض بينه وبين لوط بعد عودته إلى أرض كنعان ، وكان رعاتهم يتنازعون المرعى فى مكان واحد ، فجعل لوطا يختار ما يشاء ورضى هو بما تركه له من منخفض الأرض فى تابرو - حبرون - وهى أقدم من مدينة تانيس بسبع سنوات[1] .

أما لوط فاختار السهل إلى ناحية نهر الأردن غير بعيد من مدينة سدوم ، وكانت مدينة عامرة قضى الله عليها بالخراب كما سبينه فى موضعه .

« وكانت سدوم مزدهرة فى العصر الذى سيطر فيه الأشوريون على آسيا ، وغزرت ثروتها وتكاثر عدد شبانها وحكم أرضها خمسة ملوك هم : بالاس وبالياس وسينابان وسنقبر وملك البالان - كل منهم فى إقليمه ، وزحف الأشوريون على هؤلاء الملوك الخمسة بعد أن قسموا جيوشهم إلى أربعة أقسام يقود كل جيش منها قائد غير قواد الجيوش الأخرى ، ثم ضربوا عليهم الحصار ودارت المعركة بينهم وفرض الأشوريون جزية على الملوك السدوميين ، وخضع هؤلاء الملوك اثنتى عشرة سنة يؤدون الجزية

---

(١) يرجع تاريخ تانيس إلى أكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان الشائع فى القرن الأول للميلاد على غير ثقة أن حبرون بنيت سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد .

التى فرضت عليهم ، ولكنهم ثاروا فى السنة الثالثة عشرة فجرد عليهم الأشوريون جيشا بقيادة أمرا بسيدس وأريوخ وقدر لعومر وثدال ؛ وعاش هؤلاء فى سورية جميعًا وأخضعوا سلالة الجبارين ثم بلغوا سدوم وعسكروا فى الوادى المعروف بحفرة القار ، إذ كان الوادى كثير الحفر حين كانت سدوم عامرة ، ثم امتلأت الحفر بالماء بعد تدميرها وأصبحت بحيرة تسمى بالأسفلتية ، وسأعود إلى خبر هذه البحيرة قريباً .

« واشتبك السدوميون والأشوريون فى قتال عنيف هلك فيه كثيرون ووقع الباقون من السدوميين فى الأسر ، وكان بين الأسرى لوط وقومه لأنهم حالفوا السدوميين .

« وسمع إبراهيم بالنكبة فداخله الخوف على قريبه لوط والاشفاق على أصحابه وجيرانه السدوميين ، واعتزم التعجيل بانقاذهم وخرج فى الليلة الخامسة فانقض على الأشوريين بالقرب من مدينة دان على إحدى شعبتى نهر الأردن وفاجأهم قبل أن يستعدوا بالسلاح ، وذبح بعضهم وهم على فراشهم جاهلين بمصيرهم ، وهرب الآخرون الذين استلقوا على الفراش سكارى ولم يستغرقوا فى الرقاد ، فجد إبراهيم فى اقتفاء أثرهم حتى بلغ (أوبه) بأرض الدمشقيين ودل بذلك على أن النصر لا يتوقف على كثرة الأيدى وأن الغيرة والصلابة تغلبان العدد الكثير ، لأنه انتصر بثلثمائة وثمانية عشر من عبيده وثلاثة من أصحابه على ذلك الجمع الكبير ، وأرسل بقيتهم ناجين بالخزى إلى ديارهم .

« ولما خلص إبراهيم السدوميين ومعهم قريبه لوط عاد فى سلام ، ولقيه ملك سدوم فى المكان المسمى بالوادى الملكى واستقبله هناك ملك

سليمى ملكى صادق ، ومعنى هذا الاسم الملك الصديق وهو اسم اشتهر به بين الجميع فاختاروه كاهنا لله ، وأصبحت سليمى هذه المكان الذى عرف بعد ذلك باسم أورسليمى (أورشليم) .

« ورحب ملكى صادق بابراهيم ووسعه ومن معه فى ضيافته وجعل فى أثناء الضيافة يثنى على إبراهيم ويحمد الله الذى أسلم أعداءه إلى يده ، فقدم له إبراهيم عندئذ عشر الغنائم فقبل الهدية ، أما ملك سدوم فقد رجا إبراهيم أن يستبقى له كل الغنائم ولم يطلب غير رعيته التى أسرها الأشوريون ، فأبى إبراهيم أن يأخذ شيئاً غير طعام عبيده ، ووهب بعض الغنئم لشركائه فى القتال ، وأولهم أسخون والآخران عنر ومامبر .

« ورضى الله عن هذه المأثرة منه وقال له : إنه لن يضيع جزاءه على هذا العمل الطيب ، فأجاب إبراهيم : وأى شىء يسرنى من هذا الجزاء أن لم يكن له وريث بعدى ؟ فأنبأه الله أنه سيعقب ولدا تبلغ ذريته عدة النجوم فى كثرتها . فقرب إبراهيم إلى الله قربانا حسب أمره عند سماعه بهذه البشرى ، وكان القربان على هذا النحو ، إذ أخذ عجلا ابن ثلاث سنوات وحملاً ابن ثلاث سنوات كذلك ويمامة وحمامة ، وذبحها وشطر كلا منها شطرين ما عدا الطير ، وقبل أن يقام المذبح ، ولما تزل جوارح الطير تحوم على الذبائح ، متعطشة للدم سمع صوتا إلهيا يقول له : إن ذريته ستلقى الشر من جيرة مصر أربعمائة سنة ولكنهم بعد العذاب يغلبون عدوهم ويقهرون الكنعانيين فى القتال ويملكون أرضهم ومدائنهم .

« وكان إبراهيم يعيش على مقربة من بلوطة عجيج ، غير بعيد فى أرض كنعان من مدينة الحبرونيين ، حيث أحزنه عقم زوجته فصلى لله كى

يرزقه ولدا ذكرا وأمره الله أن يوقن من ذلك كما أيقن بالخير من طاعته لأمر الله الذى أمره بالهجرة من العراق .

« وأحضرت ساره بأمر الله إلى فراشه إحدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى أن يرزق منها ذرية ، فلما حملت اجترأت على إهانة سارة واتخذت سمة الملكات كأنما تصير حوزة إبراهيم كلها إلى ابنها الذى لم يولد ، فأسلمها إبراهيم إلى سارة تؤدبها ، ولم تصبر هاجر على مذلتها فهربت ودعت إلى الله أن يتولاها برحمته ، وبينما هى فى البرية ظهر لها ملك من عند الله وأمرها أن تعود إلى سيدها وسيدتها ووعدها أن ترضى عن عيشها إذاهى غضت من كبريائها لأنها لقيت ما لقيته من جراء الاستطالة على مولاتها ، وإنها إذا عصت أمر ربها هلكت ولكنها إذا عادت إلى البيت صارت أما لولد يملك تلك الأرض ، فأطاعت وعادت إلى سيدها وسيدتها فسامحاها ووضعت بعد قليل ولدا سمته إسماعيل أى المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتها .

« وكان إبراهيم قد بلغ السادسة والثمانين حين ولد له هذا الولد ، وبلغ التاسعة والتسعين حين تراءى له الرب وبشره بولد يرزقه من ساره ، آمرا له أن يسميه إسحاق وموحيا إليه أن أمما عظيمة وملوكا سيخرجون من نسله وأنهم يستولون بالحرب على أرض كنعان كلها من صيدا إلى مصر ، وعليهم أن يختتنوا لكيلا يختلطوا بالأمم الأخرى ، وأن يكون الختان فى اليوم الثانى بعد الولادة ، وسأبين فيما بعد أسباب عادة الختان عندنا .

« وسأل إبراهيم عن إسماعيل هل يعيش ؟ فأنبأه الله أنه سيعيش ويعمر ويصبح أبا لأمم عظيمة ، فشكر إبراهيم لربه هذه النعم ، واختتن

هو وآل بيته جميعاً وإسماعيل الذى كان يومئذ فى الثالثة عشرة ، وكان أبوه فى التاسعة والتسعين » .

ثم مضى يوسيفوس يروى قصة سدوم ، ونجاة لوط إلى صغير التى سميت بذلك لصغرها ، وأن بنتى لوط أشفقتا من هلاك الجنس البشرى فولدتا لأبيهما موآب ومعناها من الأب ، وعمان ومناه ابن السلالة ، ومن ذريتهما أبناء سورية الشرقية والجنوبية .

ثم روى يوسيفوس مولد اسحاق وختانه فى اليوم الثامن ، وأن العرب يؤجلون الختان إلى السنة الثالثة عشرة كما اختتن أبوهم إسماعيل ، وأن سارة عادت فأصرت على إقصاء هاجر وابنها ، فخرجا إلى البرية وكاد الغلام أن يموت عطشا تحت شجرة من أشجار التنوب لولا أن هدى الملك من الرب هاجر أمه إلى ينبوع ماء قريب .

قال يوسيفوس : ولما بلغ الصبى مبلغ الرجال زوجته أمه مصرية من قومها فولدت له اثنى عشر ولدا هم : نبايوث ، وقدار ، وعبدئيل ، ومبسام ، ومشمع ، وأدوم ، وماسم ، وقدوم ، وتيمان ، وجثور ، ونافش ، وقدماس ، واستولى هؤلاء على الأرض كلها من العراق إلى البحر الأحمر وسموا بالنباتين (النبطيين) وهم الذين سمى باسمهم جميع أمة العرب وقبائلها إكراما لشأنهم ولشهرة إبراهيم .

ثم بنى إبراهيم بعد ذلك بقطورة وولد له منها ستة أبناء أقوياء على العمل سرعاء فى الفهم ، وهم زمبران وجزار ومدان ومديان ولوشباق وسوس .... فأرسلهم إبراهيم وأبناءهم يلتمسون لهم منازل على

التروجلوديتس[1] Troglodytis وفى بلاد العربية السعيدة التى تمتد إلى البحر الأحمر ، ويقال أن أفرون بن مدان جرد حملة على لوبيا واحتلها وإن أبناء أبنائه أقاموا هناك وسموا الأرض باسم أفريقا .

ثم ختم يوسيفوس قصة إبراهيم بنبأ وفاته .

وقال : إن إسحاق وإسماعيل دفناه إلى جوار سارة فى مقبرة حبرون . وكان قد روى فى ختام قصة سارة أن الكنعانيين تبرعوا بدفنها على النفقة العامة ، ولكن إبراهيم اشترى المدفن من أخرايم بأربعمائة مثقال .

(٢) ابن العبرى

وإذا كان يوسيفوس مثلا للمؤرخ القديم من الوجهة الإسرائيلية ، فابن العبرى أبو الفرج بن أهرون صاحب مختصر الدول المتوفى سنة ١٢٨٦ قد يكون المثل الوحيد للمؤرخ القديم من الوجهة المسيحية فى هذا الموضوع ، لأنه أمام من أئمة الكنيسة السريانية التى ينتشر اتباعها فى مواطن إبراهيم ويحفظون أخباره التقليدية منذ القرن الأول للميلاد .

قال فى كلامه عن دولة الأولياء – أى الآباء – فى بنى إسرائيل :

« ومن أئمتنا باسليوس وأفريم يزعمان أن من آدم إلى عابر هذا كانت لغة الناس واحدة وهى السريانية ، وبها كلم الله آدم .

---

(١) شاطىء البحر الأحمر الشرقى وقد يطلق على الشاطىء المقابل .

« وتنقسم إلى ثلاث لغات : أفصحها الآرامية وهى لغة أهل الرها وحران والشام وبعدها الفلسطينية ، وهى لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقى الشام الداخلة ، واسمها الكلدانية النبطية وهى لغة أهل جبال أثور (أشور) وسواد العراق . ويعقوب الرهاوى يقول أن اللغة لم تزل عبرية إلى أن تبلبلت الألسن ببابل .

« وفالغ بن عامر ولد له ارعوه وعمره على الرأى السبعينى(١) مائة وثلاثون سنة ، وعلى رأى اليهود ثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وثلاث وأربعون سنة .

« فى سنة مائة وأربعين لفالغ فلغت الأرض أى قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح . فصار لبنى سام وسط المعمورة فلسطين والشام وأشور وسامرة وبابل وفارس والحجاز ، ولبنى حام التيمن كله أى الجنوب : أفريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والسند والهند ، ولبنى يافث الجربيا أى الشمال : الأندلس والإفرنجة وبلاد اليونانيين والصقالبة والبلغار والترك والأرمن . وبعد وفاة فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين بنى يقطان أخيه ، وشرع الناس فى تشييد الحصون .

« وأرعو بن فالغ ولد له ساروغ وعمره على الرأى السبعينى مائة واثنان وثلاثون ، وعلى رأى اليهود اثنتان وثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وتسع وثلاثون سنة .

---

(١) ترجمة التوراة المعروفة بالترجمة السبعينية من اشتراك اثنين وسبعين مترجما فى نقلها إلى اليونانية .

« وفى سبعين سنة لأرعو قال الناس بعضهم لبعض هلموا : نضرب لبنا ونحرق آجرا ونبنى صرحا شامخا فى علو السماء ، ويكون لنا ذكرا كى لا نتبدد على وجه الأرض ، فلما جدوا فى ذلك بأرض شنعار وهى السامرة (ونمرود بن كوش قات رافعى الصرح بصيده - أى جلب لهم القوت - وهو أول ملك قام بأرض بابل ، وهو الذى رأى شبه إكليل فى السماء واتخذ مثله ووضعه على رأسه فقيل إن إكليله نزل من السماء) ..

قال الله تعالى : هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شىء يهتمون به ، سوف أفرق لغاتهم لئلا يعرف أحدهم ما يقول الآخر . فبدد الله شملهم على وجه الأرض ، وأرسل رياحا عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار وتبلبلت لغات الآدميين ، ولذلك دعى اسم ذلك الموضع بابل .. وبنى نمرود ثلاث مدن : إرخ وخيليا - أى الرها ونصيبين - والمدائن .

« وساروغ بن أرغو ولد له ناحور وعمره على الرأى السبعينى تسع وسبعون سنة وعلى رأى اليهود تسع وعشرون سنة ، وجميع أيامه مائتان وسنة واحدة ، وفى خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أيوب الصديق على رأى أروز الكنعانى ، وبنى أرمونيس ملك كنعان سدوم وغاموره على اسم ولديه ، ومدينة صاعر على اسم أمهما .

« وطرح ابن ناحور ولد له إبراهيم وعمره على الرأيين جميعا سبعون سنة ، ومات بمدينة حران ، وبنى مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد إبراهيم بعشرين سنة ، ويوسيفوس يقول : إن عوص بن أرام بناها ، ومن هاهنا يتفق التاريخان السبعينى والعبرانى .

« وإبراهيم بن ترح ولد له اسحاق وعمره مائة سنة ، وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون سنة ، ولما أتت عليه خمس عشرة سنة استجابه الله فى العقاعق - أى الطيور - التى كانت تفسد فى أرض الكلدانيين وتسحق زروعهم ، وأحرق إبراهيم هيكل الأصنام بقرية الكلدانيين ودخل هاران أخوه ليطفىء النار فاحترق ، ولذلك فر إبراهيم وعمره ستون سنة مع أبيه ترح ، وناحور أخيه ، ولوط بن هاران أخيه المحترق ، إلى مدينة حران وسكنها أربع عشرة سنة .

« ثم خاطبه الله قائلاً : انتقل عن هذه الديار التى هى ديار آبائك إلى حيث آمرك . فأخذ ساره امرأته ولوط ابن أخيه وصعد إلى أرض كنعان وحارب ملوك كدر لعمر وقهرهم . وفى عوده من المحاربة اجتمع بملكيز دق الكاهن الأعظم وخر لوجهه بين يديه وأعطاه عشرا من السلب وباركه ملكيز دق .

« وفى سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب فى السماء ، وذريته كرمل البحار ، فوثق إبراهيم بالله حق الثقة . وفى هذه السنة دخل إلى مصر ووشى بحسن ساره امرأته إلى فرعون فسأل إبراهيم عنها ، فقال : هى أختى من أبى لا من أمى . ولم يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عمه ، فأقام جدهما مقام أبيهما .

« فاحتازها فرعون إلى نفسه مختليا حتى حقق أنها زوجته فردها إليه مع هدايا جزيلة ، من جملتها هاجر المصرية أمة سارا ، وتقدم إليه بالانتزاح من بلده خوفا من أن يهجس فى صدره هاجس سوء ثانيا .

« ولأنه لم يكن لإبراهيم ولد من امرأته سارا سمحت بجاريتها هاجر فوطئها إبراهيم وولدت له إسماعيل ، واستهانت هاجر بسارا مولاتها شامخة عليها بسبب ولدها فأزاحتها سارا من عندها إلى القفر بغيظة منها . فتراءى ملك الرب لهاجر قائلاً : لا تيأسي من رحمة ربك ، فإن الله قد بارك على الصبي حين خاطب أباه إبراهيم ، وكان خاتمه البركة باللغة السريانية هكذا : وأكبرته طب طب وأعظمته جدا جدا .

أقول قد اتفق في هذه الألفاظ سر عجيب لاح في عصرنا وهو أنا إذا جمعنا حروفها بحساب الجمل كان الحاصل ستمائة وستا وخمسين سنة ، وهي المدة من الهجرة إلى السنة التي قتل فيها آخر الخلفاء العباسيين وزوال الملك المعظم جداً عن آل إسماعيل .

وبعد مائة سنة مضت من عمر إبراهيم ولد له اسحق من سارا ، ولما حصل لإسحاق تسع عشرة سنة أصعده إبراهيم لجبل نابو ليضحي به ضحية لله تعالى ، ففداه الله بحمل مأخوذ من الشجرة وأنقذه .

« والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذي فدى العالم بنفسه ولذلك قال في إنجيله المقدس : إن إبراهيم كان يرجو أن يشاهد يومي ، فشاهد وسر . وقيل في تلك السنة أتم ملكيز دق بناء أورشليم .

« وفي ثمان وثلاثين سنة من عمر اسحاق درجت سارا أمه وعمرها مائة وسبع وعشرون سنة ، وتزوج إبراهيم قنطورا ابنة ملك الترك .

« ولما بلغ اسحاق أربعين سنة نزل اليعازر - وليد بيت إبراهيم - إلى حران وجاء برفقا زوجة اسحاق ، ولما توفي إبراهيم دفن إلى جانب قبر

سارا زوجته فى المغارة المضاعفة التى ابتاعها من عفرون الحيثانى خوفا من عود الطوفان .

(٣) أبو الفداء

ونختار أبا الفداء من المؤرخين الإسلاميين ، لأنه كتب فى القرن الثامن واعتمد على كبار المؤرخين الموسوعيين من قبله ، وقضى أيامه على صلة بأقطار العراق العليا و« أشور » القديمة وعلى علم بمراجع أصحاب السير فيها ، فليس أقدر منه على تلخيص تاريخ إبراهيم والتعقيب عليه من مصادره فى زمنه .

قال عن إبراهيم عليه السلام :

« هو إبراهيم بن تارح ، وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن رعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقد اسقط ذكرقينان بن أرفخشذ من عمود النسب ، قيل بسبب أنه كان ساحرا فأسقطوه من الذكر ، وقالوا شالح بن أرفخشذ وهو بالحقيقة شالح بن قينان بن أرفخشذ ، فاعلم ذلك .

« وولد إبراهيم بالأهواز ، وقيل ببابل . وهى العراق . وكان آزر أبو إبراهيم يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها . فكان إبراهيم يقول : من يشترى ما يضره ولا ينفعه ! ثم لما أمر الله إبراهيم أن يدعو قومه إلى التوحيد دعا أباه فلم يجبه ، ودعا قومه ، فلما فشا أمره واتصل بنمرود ابن كوش – وهو ملك تلك البلاد ، وكان نمرود عاملا على سواد العراق وما اتصل به للضحاك ، وقيل : بل كان نمرود ملكا مستقلاً برأسه – فأخذ نمرود إبراهيم الخليل ورماه فى نار عظيمة فكانت النار عليه بردا وسلاما

وخرج إبراهيم من النار بعد أيام ، ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود ، وآمنت به سارة وهى ابنة عمه هاران .

ثم إن إبراهيم ومن آمن معه وأباه على كفره فارقوا قومهم وهاجروا إلى حران وأقاموا بها مدة ، ثم سار إبراهيم إلى مصر وصاحبها فرعون ، قيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس ، فذكر جمال سارة لفرعون - وهو طوليس المذكور - فأحضر سارة إليه وسأل إبراهيم عنها فقال : هذه أختى ، يعنى فى الإسلام . فهم فرعون المذكور بها فأيبس الله يديه ورجليه ، فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم هم بها فجرى له كذلك ، فأطلق سارة وقال : لا ينبغى لهذه أن تخدم نفسها ، ووهبها هاجر جارية لها ، فأخذتها وجاءت إلى إبراهيم ، ثم سار إبراهيم من مصر إلى الشام ، فأقام بين الرملة وإيليا ، وكانت سارة لا تلد ، فوهبت إبراهيم هاجر ، وواقعها إبراهيم فولدت إسماعيل ، ومعنى إبراهيم بالعبرانى مطيع الله .

« وكانت ولادة إسماعيل لمضى ست وثمانين سنة من عمر إبراهيم فحزنت سارة لذلك فوهبها الله اسحاق ، وولدته سارة ولها تسعون سنة .

« ثم غارت سارة من هاجر وابنها إسماعيل ، وقالت : ابن الأمة لا يرث مع ابنى ، وطلبت من إبراهيم أن يخرجهما عنها ، فأخذ إبراهيم هاجر وابنها وسار بهما إلى الحجاز ، وتركهما بمكة . وبقى إسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة .

« وماتت هاجر بمكة ، وقدم إليه أبوه إبراهيم وبنيا الكعبة ، وهى بيت الله الحرام ، ثم أمر الله إبراهيم أن يذبح ولده ، وقد اختلف فى الذبيح : هل هو إسحاق أم إسماعيل ، وفداه الله بكبش .

« وكان إبراهيم فى أواخر أيام بيوراسب المسمى بالضحاك ، وفى أوائل ملك أفريدون ، وكان النمرود عاملا له حسب ما ذكرناه .

« وكان لإبراهيم أخوان وهما هاران وناحور ، ولدا آزر .

« فهاران أولد لوطا ، وأما ناحور فأولد بتويل ، وبتويل أولد لابان ولابان أولد ليا وراحيل زوجتي يعقوب . ومن يزعم أن الذبيح إسحاق يقول كان موضع الذبح بالشام على ميلين من إيليا ، وهى بيت المقدس . ومن يقول إنه إسماعيل يقول إن ذلك كان بمكة .

« وقد اختلف فى الأمور التى ابتلى الله إبراهيم بها ، فقيل هى هجرته عن وطنه ، والختان ، وذبح ابنه ، وقيل غير ذلك .

« وفى أيام إبراهيم توفيت زوجته سارة بعد وفاة هاجر ، وفى ذلك خلاف ، وتزوج إبراهيم بعد موت سارة امرأة من الكنعانيين ، وولدت من إبراهيم ستة نفر ، وكان جملة أولاد إبراهيم ثمانية : إسماعيل وإسحاق ، وستة من الكنعانية على خلاف فى ذلك .. »

ثم انتقل المؤرخ إلى سيرة إسماعيل وإسحاق ، فقال عن إسماعيل : « أنه ولد لإبراهيم لما كان لإبراهيم من العمر ست وثلاثون سنة ، ولما صار لإسماعيل ثلاث عشرة سنة تطهر هو وإبراهيم ، ولما صار لإبراهيم مائة سنة وولد له إسحاق أخرج إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة بسبب غيرة سارة منها ، وقولها : أخرج إسماعيل وأمه . لأن ابن الأمة لا يرث مع ابنى .

وسكن مكة مع إسماعيل من العرب قبائل جرهم ، وكانوا قبيلة بالقرب من مكة ، فلما سكنها إسماعيل اختلطوا به ، وتزوج إسماعيل امرأة جرهم ورزق منها اثنى عشر ولدا . ولما أمر الله تعالى إبراهيم عليه

الصلاة والسلام ببناء الكعبة – وهو البيت الحرام – سار من الشام وقدم على ابنه إسماعيل مكة ، وقال : يا إسماعيل ! إن الله تعالى أمرنى أن ابنى له بيتا ، فقال إسماعيل : أطع ربك . فقال إبراهيم : وقد أمرك أن تعيننى عليه . قال : إذن افعل ، فقام إسماعيل معه وجعل إبراهيم يبينه وإسماعيل يناوله الحجارة ، وكانا كلما بنيا دعوا فقالا: ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، وكان وقوف إبراهيم على حجر وهو يبنى ، وذلك الموضع هو مقام إبراهيم ، واستمر البيت على ما بناه إبراهيم إلى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بناء الكعبة بعد مضى مائة سنة من عمر إبراهيم بمدة ، فيكون بالتقريب بين ذلك وبين الهجرة الفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة » .

« وأرسل الله إسماعيل إلى قبائل اليمن ، وإلى العماليق ، وزوج إسماعيل ابنته من ابن أخيه العيص[1] بن اسحاق ، وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر ، وكانت وفاة إسماعيل بعد وفاة أبيه إبراهيم بثمان وأربعين سنة .. »

ثم قال المؤرخ بعد أن استطرد إلى سيرة موسى الكليم : « وكان مولد موسى لمضى أربعمائة وخمس وعشرين سنة .. إلى أن قال عن خراب بيت المقدس سنة عشرين من ولاية بختنصر تقريبا ، وهى السنة التاسعة والتسعون بعد التسعمائة لوفاة موسى .. »

---

(١) هو عيسو فى لغة التوراة .

تذييــــل

إلى هنا انتهت المصادر الدينية ومراجع التاريخ القديم التى رويت فيها سيرة الخليل إبراهيم .

وهذه المراجع هى الأساس الذى يقوم عليه كل ما تجدد فى العصر الحديث من أخبار الحفريات الأثرية وتعليقات المؤرخين عليها .

ومن الواجب أن نعرف مبلغ قوة هذا الأساس قبل أن ننتقل منه إلى البناء الذى يرتفع عليه .

ففى تقديرنا أن هذا الأساس اليوم أقوى مما كان عليه عند المؤرخين العلميين قبل القرن العشرين .

فقد كانت البدعة الشائعة فى القرن الماضى أن التواريخ الدينية لا تصلح أن تكون أساساً للتواريخ العلمية .

وكان يكفى أن تروى الحادثة وتنسب إلى سبب خارق للطبيعة ليقول المؤرخون العلميون : إنها لم تحدث ولا يعقل أن تحدث ، ولم يقنعوا بالشك فى السبب ومحاولة البحث عن سبب آخر داخل فى التعليلات الطبيعية .

وكان يكفى أن يقال : إن نبياً من الأنبياء عاش ثلثمائة سنة أو نحوها ليقال أنه لم يوجد قط ، فضلاً عن أن يكون قد وجد وقد عاش أقل من عمره المذكور .

كل هذا قد تغير فى معيار البحث الحديث أو وجب أن يتغير ، لأنه مناقض للعلم نفسه ، عدا ما هو ظاهر من مناقضته للدين .

فقد ثبت اليوم أن الأخبار الدينية سبقت المباحث الحفرية والمقارنات العلمية إلى تقرير أحكام التاريخ التى صحت فى رأى المتأخرين بالبراهين الحديثة .

ومن أمثلة ذلك وحدة الأجناس السامية فى نشأتها ، فإن العلماء العصريين قد عرفوا هذه الوحدة من المقارنة بين اللغات ، ومن الدراسات الأخيرة فى علم السلاليات البشرية ، ومن تفسير الكتابة على الآثار المطمورة والهياكل المهجورة .

وهذه الدراسات جميعاً من مستحدثات الزمن الأخير ، لم يستخرج منها العلماء دليلاً موثوقاً به قبل مائة سنة .

فإذا احترم العالم حكمه وتقديره وجب أن يفهم أن كلام الأمم السامية عن وحدة أصولها يستند ولا شك إلى أصل عريق وسند وثيق ، لأنها تكلمت عن هذه الوحدة وهى لا تعرف شيئاً من مقارنات اللغات والأحافير ولم يكن فى وسعها أن تعرف شيئاً عنها قبل ألوف السنين .

فمن أين جاء لتلك الأمم أنها سلالة أصل واحد إن لم يكن لها مرجع تعول عليه ولا يجوز للعلم رفضه واسقاطه من الحساب ؟

كذلك شاعت فى القرن الماضى بدعة العلم - أو أدعياء العلم الذين رفضوا كل خبر له علاقة بالمعجزات وخوارق الطبيعة .

فإذا قال قائل : إن هذه المدينة دمرها الله لفسادها وعدوانها على أنبيائه ، أسرع أولئك الأدعياء فأبطلوا القصة كلها وقالوا : إنه لا مدينة ولافساد ولا أنبياء ، وأن الأمر كله حديث خرافة أو تلفيق خيال .

فاليوم قد ثبتت وقائع لاشك فيها من تواريخ تلك المدن التى تواترت الأنباء الدينية بتدميرها فى الزمن القديم .

وقد تتابع التنقيب فى وادى الأردن وشواطىء البحر الأحمر ورمال الأحقاف من جنوب بلاد العرب ، فظهر من الأحافير أنها كانت بلاد زلازل وأغوار وعوارض جوية تطابق ما وصفته الكتب الدينية من أحوال عمارها وأحوال خرابها ، وأن الزمن الذى وقعت فيه نكباتها قريب من الزمن المقدور لقيام الأنبياء فيها ، ولم ينحصر الأمر فى دلالات الكوارث الطبيعية كالزلازل والأعاصير ، بل جاءت الدلالات الاجتماعية مصححة موضحة تعلم الباحثين الأناة والرصانة قبل التعجل بالرفض والإنكار .

فلم يكن أبناء الشواطىء على البحر الأحمر يعلمون شيئاً عن التواريخ التى كتبت بالاغريقية واللاتينية ثم اندثرت فى القرون الوسطى وظلت مندثرة إلى أن تجددت وانتشرت بين الأوربيين والمطلعين على اللغات الأوربية فى العصر الحديث .

ولكن القدماء على شواطىء البحر لأحمر تحدثوا عن المدن التى كانت تحتكر التجارة وتماكس وتبالغ فى اضافة الأرباح والاتاوات ، ولم تأتها هذه الأخبار من المراجع الاغريقية أو اللاتينية بطبيعة الحال ، فلابد من الاعتراف لها بمرجع معول عليه ، وليس من الجائز أن يتعجل العالم الأمين بالشك فيه .

ومن أمثلة هذه الأخبارمثل الهزيمة التى حلت بأبرهة الأشرم صاحب الفيل الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وأن جيشه هلك بالطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وقال أبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله ابن عباس : إنهم أصيبوا بالجدرى (وأن من اصابته الحجر ، جدرته) .

فهذا الخبر عن الجدرى قد أيده من لم يرد تأييده من مؤرخى اليونان والرومان ، فقد ذكر الوزير Procobe بركوب من أبناء القسطنطينية أن مرض الجدرى ظهر فى مصر عند منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وروى بروس Bruce الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم كيف ارتد ابرهة وإنه رجع من مكة لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى ، وكتب غير واحد من مؤرخى اليونان أن أبرهة زحف على مكة فى مركبة يجرها أربعة من الفيلة وأن جيشه لم يعد منه إلا القليل لكثرة من مات منه بالوباء .

فأيسر ما يفهمه العالم الأمين من هذا وأشباهه أن المصادر القديمة قائمة على أساس لا يجوز إهماله ، وأن المستقبل خليق أن يفسر منه أكثر مما فسرناه حتى اليوم .

وقد تمحصت مسألة الأعمار الطوال ووضعت فى مواضعها من الدراسة التاريخية فليس لها ما يعترض الباحث فى تاريخ قديم أو تاريخ حديث وهذه المسألة - أى مسألة الاعمار - قد نوقشت كثيراً قبل القرن العشرين . وتساءل المتناقشون فيها : هل حساب السنين واحد بين الأوائل والأواخر أو هما حسابان مختلفان ؟

وضربوا لذلك مثلاً بأيام الخليقة . فإن خلق العالم فى ستة أيام يعنى أياماً غير الأيام التى تحسب بطلوع الشمس وغروبها ، لأن الشمس خلقت فى اليوم الرابع ، فلابد أن يكون معنى الأيام أنها أدوار لا تحسب بالشروق والغروب .

وتقرر أن الأوائل كانوا يحسبون للسنة رأسين : رأس السنة الزراعية ورأس السنة الديوانية ، فربما اجتمع فى العام الواحد رأسان للسنة على هذا الحساب .

وظن بعضهم أن حساب السنين كحساب الأهلة عند الأوائل ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى حيث يقول :

ورأيت الحمام يأتى على العا   لم من قاهر ومن مقهور
وادعوا للمعمرين أمورا   لست أدرى ما هن فى المشهور
أتراهم فيما تقضى من الأيا   م عدوا سنيهم بالشهور
كلما لاح للعيون هلال   كان حولا لديهم فى الدهور

وليس هذا الظن بالصواب ، لأن الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب الشمس منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل التاريخ .

واجتهد بعضهم فقال : إن الأعمار المقدرة هنا هى أعمار العشائر والدعوات النبوية ، وكثيراً ما يجرى الحديث حتى اليوم باسم رأس العشيرة ويكون المقصود هو العشيرة كلها ، أو يقال ابن الشرق وابن الغرب وابن أوربة وابن أمريكا ، والمقصود هنا هو العشائر بأجمعها .

وتوافق على هذه المذاهب من التأويل أناس من كل ديانة كتابية ، فليست هى مقصورة على المسلمين ولا على المسيحيين ولا على اليهود ، بل يشترك فيها أصحاب الفقه من جميع الأديان .

ونحن هنا لا حاجة بنا إلى الفصل فى هذه التأويلات ، وإنما أردنا بتمحيصها ووضعها فى مواضعها أن الاتفاق تام بين أصحابها جميعاً على أمرين :

أولا : أن تقدير الأعمار فى كتب العهد القديم يزداد كلما تباعد الزمن بين رواة الخبر وبين عصور المعمرين الذين تحسب أعمارهم ، فكلما صغرت المسافة بين الزمنين كان التقدير أقرب إلى العمر المألوف .

فعند كتابة العهد القديم كان قد انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون ، وانقضى على عهد إبراهيم عليه السلام نحو أحد عشر قرنا ، فحسب عمر موسى مائة وعشرين سنة وعمر إبراهيم مائة وخمس وسبعين سنة ، ويزداد التقدير إلى أكثر من ذلك كلما أوغل الزمن فى القدم إلى ما قبل التاريخ .

فبهذه القاعدة أصبح تقدير الأعمار مساعدا على تقرير وقت الكتابة وتقرير الفترات بين العهود ، فلم يبطل حساب المراجع القديمة بهذا الاختلاف بين الأوائل والأواخر فى حساب الأعمار الطوال ، بل جاء فيه ما يساعد على الموازنة والقياس .

ثانيا : يلاحظ أن حساب العهود بيننا وبين الأوائل لا يختلف كما يختلف حساب الأعمار ، فابن الأثير مثلا يقول اعتمادا على مصادره جميعا : إن عهد إبراهيم مضى عليه ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة قبل الهجرة المحمدية ، وهذه التقديرات لا تطيل العهود والفترات بينها بنسبة الطول فى أعمار الأفراد المعمرين . فإن هذا الحساب قريب من حساب علماء الأحافير وطبقات الأرض الذين يقيسون الفترات بمقياس تكوين الطبقات وتتابع الظواهر الجيولوجية ، وسيأتى فيما بعد أن التفاوت بين تقديرات علماء الأحافير أنفسهم لا يقل عن التفاوت بين تقدير ابن الأثير على حسب مصادره وبين تقديرات هؤلاء العلماء مجتمعين .

وأيا كان مقطع الرأى فى هذه المسائل جميعا فليس من أمانة التاريخ أن يستند إليها أحد فى نفى الأخبار المتواترة ولا سيما أخبار العهود والدعوات ، ولا تزال الأسانيد الأولى أساساقويا لتواريخ الأمم ، وترجع فيه دلائل الثبوت على دلائل البطلان .

وبهذا الوزن ننتقل من المصادر الأثرية إلى ما بعدها ونعتمد على هذا الأساس ، ثم لا يمنعنا هذا الاعتماد أن نفرق بين الأسانيد فى درجة القبول وميزان الترجيح .

ولا ننتقل من الكلام عن المصادر الأثرية فى جملتها حتى نضيف إليها مصدراً يستمد قوته من السكوت ولا يستمدها من البيان والإيضاح .

فلا يخفى أن السكوت المتعمد يدل على كثير ، وربما كان فى ميزان الصدق أدل من الكلام الذى يتعرض للتورية والمحال .

فإذا علمنا من بعض التواريخ أنها تسكت عمدا عن بعض الأمور ، فقد علمنا شيئًا صحيحًا يبين لنا تلك الأمور المسكوت عنها ، وبخاصة حين نعلم سبب السكوت .

لقد سكتت مصادر اليهود عن حالة العرب الدينية كل السكوت وترجع هذه المصادر إلى القرن السابع قبل الميلاد .

وقد تعمدت هذه المصادر أن تخرج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من الله ، وقالت : إن هذا الوعد إنما هو حق لأبناء إبراهيم من سلالة إسحاق .

إن انتساب العرب إذن إلى إسماعيل قد كان تاريخا مقرراً لا سبيل إلى إنكاره عند كتابة المصادر اليهودية التى حصرت النعمة الموعودة فى أبناء اسحق .

ولو لم يكن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم تاريخا مقررا فى ذلك العصر – عصر كتابة المصادر اليهودية الأولى – لما كانت بهم حاجة إلى التمييز بين أبناء إسحاق وأبناء إسماعيل . إذا كان يكفى أن يقال : إن النعمة الموعودة من نصيب أبناء إبراهيم عامة ليخرج من هذا الوعد من لم يكن من اليهود الذين لا ينازعهم أحد فى الانتساب إلى إبراهيم .

لكن انتساب العرب إلى إبراهيم كان تاريخا مقررا كما هو واضح مما تقدم ، فلم يكن فى الوسع إنكاره ، ولم يكن ثمة مناص من التفرقة بين أبناء إبراهيم من سلالة إسماعيل ، وأبناء إبراهيم من سلالة إسحاق .

وأكثر من ذلك أن كهان اليهود كانوا يحسون من العرب منافسة دينية فضلا عن المنافسة الدنيوية ، فلو لم يكن للعرب حياة دينية يخشى الكهان منافستها لكان يكفيهم أن يحصروا وعد إبراهيم فى أبنائه المؤمنين دون أبنائه الوثنيين الذين لا يعرفون الله الواحد الأحد ، فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثة إبراهيم الروحية ، ولا تدعو الحاجة إلى أكثر من ذلك الاستثناء .

ولا شيء غير خطر المنافسة فى النسب وخطر المنافسة فى العقيدة الدينية يلجىء الكهان إلى حصر النعمة الموعودة لأبناء اسحق دون أبناء إبراهيم .

وقد لوحظ أن الكهان يحصرون النسب شيئًا فشيئا كلما أحسوا خطر المنافسة على سلطانهم وسلطان هيكلهم على الخصوص .

فخصصوا أبناء يعقوب بعد أن كان الوعد عاما شاملا لأبناء اسحق أجمعين ، وقالوا : إن الإسرائليين هم أبناء يعقوب دون غيره ، وإسرائيل هو لقب يعقوب .

ثم انقسمت دولة اليهود إلى دولة فى الشمال تسمى مملكة إسرائيل ودولة فى الجنوب تسمى مملكة يهوذا ، فقال كهان الهيكل : إن النعمة الموعودة محصورة فى أبناء داود .

وقبل ذلك بزمن طويل كان اللاويون يحصرون الرياسة الدينية فيهم دون غيرهم ، لأنهم يقولون أن اللاويين قبيلة موسى الكليم .

فاستثناء أبناء إسماعيل لم يحصل عبثا منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل ، ولابد من منافسة دينية ودنيوية دعت إلى هذا الاستثناء ، وإلى السكوت عن الحالة الدينية التى تخشى منها المنافسة ويشعر بها الكهان .

ولعل المنافسة فى الحقيقة كانت بين الإيمان بـ« يهوا » والإيمان بالآيل أو الإله ، فإن العرب الأقدمين لم يذكروا « يهوا » قط بين أربابهم وإنما ذكروا الأيل والإله والله تعالى ، وكان اليهود يعبدون الإيل كما يعبده العرب ، ومن ذلك تسمية إسماعيل وإسرائيل وبتوئيل . فلما تشابه النسب بالإنتماء إلى إبراهيم ، وتشابهت العبادة بالاتفاق على اسم الإله ، جدت الرغبة بالكهان فى الاستئثار من جهة والاستثناء من جهة أخرى ، فحصروا النعمة الموعودة فى أبناء إسحاق ثم فى أبناء يعقوب ، ثم فى أبناء داود ، جريا على عاداتهم المطردة فى أمثال هذه الأحوال .

ومهما يكن من أمر هذا التاريخ المسكوت عنه فوجود النسبة إلى إسماعيل قديم لم تكن فيه حيلة لليهود ولا للعرب .

فلو أراد العرب أن يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها إلى جارية ، وتخص غيرهم بالانتماء إلى السيدة المختارة .

ولو كان فى وسع اليهود أن يحتكروا النسب إلى إبراهيم لما ذكروا شيئًا عن نسبة غيرهم إليه .

فالانتساب إلى إبراهيم لم يكن مسألة اختراع واختيار ، ولكنه كان مسألة تاريخ مقرر لابد من البحث فيه على هذا الأساس ، ومن هنا قيمته التاريخية التى نضيفها إلى الأسانيد القوية فى سيرة الخليل .

ويقضى استيفاء البحث فى الأخبار المسكوت عنها أن نشير هنا إلى المراجع التى ذكرتها كتب العهد القديم ، ولم يبق لها أثر بين هذه الكتب ولا بين غيرها من المراجع الإسرائيلية .

فليست الكتب التى ضمت إلى العهد القديم هى كل كتب التوراة المعترف بها ، لأن الكتب التى جرى الاستشهاد بها على السنة الأنبياء من بنى إسرائيل لم توجد كلها بين أسفار التوراة ، كما هو واضح من الشواهد الكثيرة التى نلم ببعضها فى هذا السياق .

ففى ختام كتاب الأيام الأول يقول الكاتب : « وأمور داود الملك الأولى والأخيرة هى مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرائى ، وأخبار ناثان النبى ، وأخبار إسرائيل ، وأخبار جاد الرائى ، مع كل ملكه وجبروته والأوقات التى عبرت عليه وعلى إسرائيل وعلى كل ممالك الأرض » .

فهناك على هذا كتب تاريخية لم توضع بين كتب العهد القديم ، لأن كتاب صموئيل موجود بينها ، ولا يوجد بينها كتاب للنبى ناثان ولا للرائى جاد .

وفى الإصحاح التاسع من كتاب أخبار الأيام الثانى أن « بقية أمور سليمان الأولى والأخيرة أما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى ، وفى نبوة أخيا الشيلونى وفى رؤى يعدو الرائى على يربعام بن نباط » .

وقد تقدم أن كتاب ناثان غير موجود ، وكذلك نبوءة أخيا الشيلونى ورؤى يعدو الرائى ، فأنهما غير موجودين على انفراد أو على اتصال بغيرهما من الكتب المعروفة .

وفى الإصحاح الرابع عشر من كتاب الملوك الأول : « وأما بقية أمور يربعام كيف حارب وكيف ملك فأنها مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل » .

وجاء فى الإصحاح السادس عشر من كتاب الملوك الأول « أن بقية أمور يعشا وما عمل وجبروته . أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل ؟ »

وليس فى كتاب الملوك شيء عن هذه الأمور ، ولاعن أمور تاريخية أخرى وردت الإشارة إليها مردودة إلى نحو ثلاثين كتابا لم يبق منها أثر محفوظ .

ومن هذه الأمور ما هو منسوب إلى الإله كما جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من كتاب العدد حيث يقول الكاتب : « لذلك يقال فى

كتاب حروب الرب واهب في سوفة وأدوية أرنون ومصب الأودية » ..
أو كما جاء في الإصحاح العاشر من كتاب يشوع : « حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بني إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي إيلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبا في سفر ياشر ؟ »

وليس بين المراجع المحفوظة كتاب ياشر الذي أشير إليه في هذين الموضعين ، وقد أشير إليه في موضع آخر من كتاب صموئيل الثاني حيث يقول : « ورثى داود بهذه المرثاة شاؤل ويغرياثان ابنه ، وقال : إن يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس . هو ذا مكتوب في سفر ياشر » .

ويؤخذ من مراجع كثيرة كالكتاب الرابع لعزرا وكتب الحكيم فيلون وكتب آباء الكنيسة الأولين أن أسفارا غير الأسفار الخمسة كانت تنسب إلى موسى عليه السلام .

وصفوة القول في هذا الصدد أن المراجع الإسرائيلية قد سكتت عن بعض الأمور ولم تستوعب أمورا أخرى في سجلاتها المحفوظة فليس من الجائز أن يتعرض المعترضون على أمر من الأمور التاريخية لأنه غير مذكور في تلك المراجع ، وإذا جاز أن يذهب بعض السجلات من تاريخ سليمان وأبنائه فمن الجائز أن تذهب سجلات أقدم منها في التاريخ ، كالسجلات التي حفظت عن عهد إبراهيم ، وهي أقدم منها بعدة قرون .

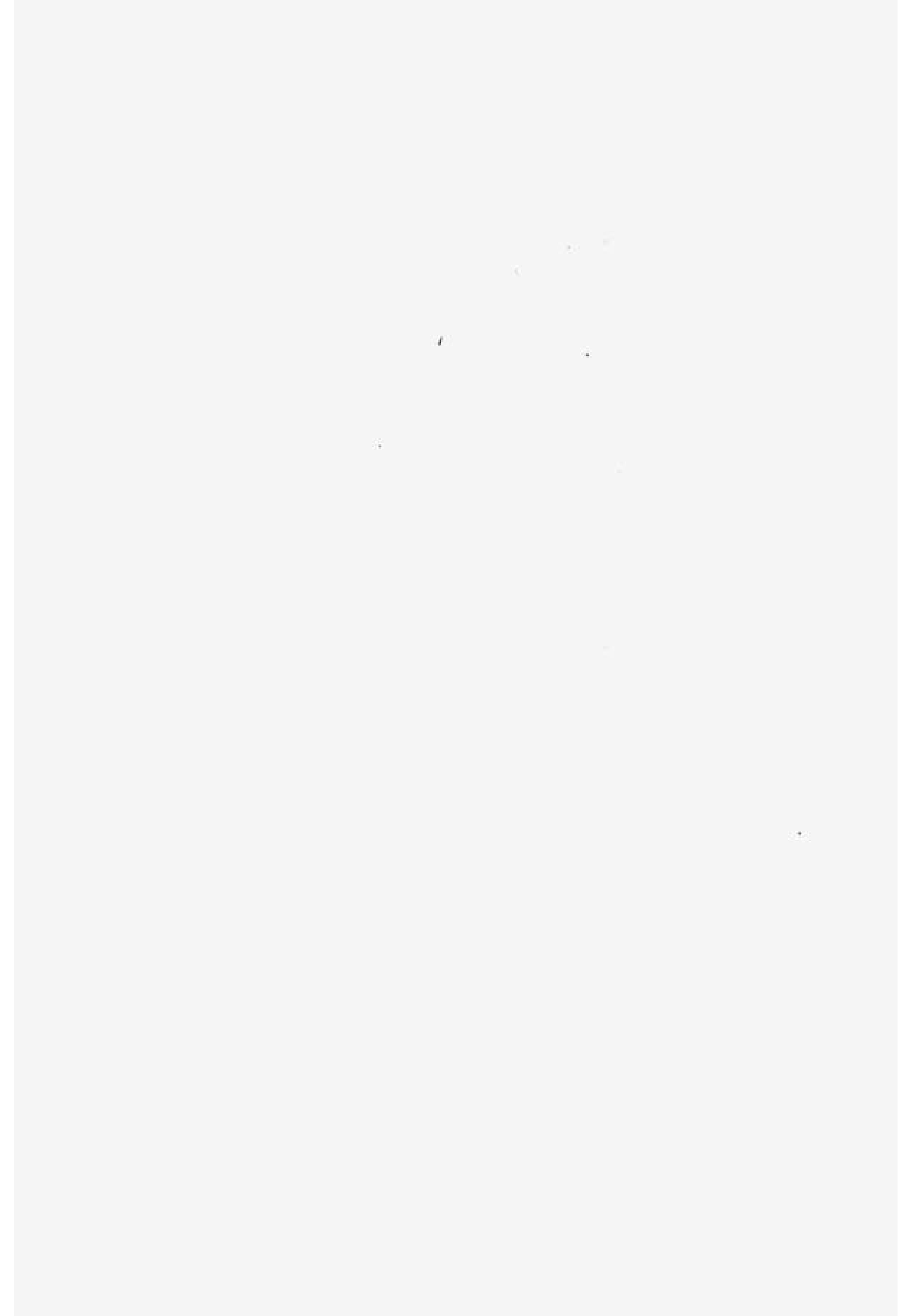
وإذا صرفنا النظر عن هذا كله ، ولم نقدر أن هناك أخبارا مسكوتا عنها ، وأخبارا ضائعة ، فالمسألة التي لا يصح الخلاف عليها عند المقابلة

بين المصادر القديمة ، وهى نقص المصادر اليهودية حتى فى أخبار البلاد المجاورة لملكة إسرائيل ، فإن المصادر الإسلامية أوفى بأخبار هذه البلاد من مصادر اليهود .

ويكفى لتقرير ذلك أن كتب اليهود لم تذكر قط أخبار عاد وثمود ، وانفراد القرآن الكريم بذكرها مع ما جاء عنها فى المأثورات العربية ، ولولا أن اسم عاد واسم ثمود قد وردا فى جغرافية بطليموس لكان من اليسير على الذين يحملون اسم الخرافة على أطراف ألسنتهم أن يزعموا أنها إحدى الخرافات ولكن اسم عاد Oadita واسم ثمود Thamudita قد وردا فى جغرافية بطليموس ، وليس موقعهما كما وصفه الجغرافى الكبير بعيداً من مملكة إسرائيل ، فإذا كان بطليموس قد سمع بهما فلا يعقل أن يكون أمرهما مجهولا عند كتاب العهد القديم ، وإنما المعقول أن السكوت عن كل رسالة فى أبناء إسماعيل هو المقصود .

* * *

ومن الواجب تقرير هذه الملاحظات قبل الانتقال إلى مصادر الأحافير وتعليقات المؤرخين المحدثين .



الباب السادس

الأحافير والتعليقات



البلاد والسكان

بلاد الشعوب التى تعرف بالسامية – أو على الأصح بالعربية – هى شبة جزيرة العرب ، ومن شبه جزيرة العرب ، هاجرت بعض القبائل إلى بلاد الهلال الخصيب بين وادى الفرات والبحر الأبيض المتوسط وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة إلى الحبشة فى أفريقية .

والرأى الغالب أن الهجرة تتبع طريقها من جنوب الجزيرة إلى شرقها فى محاذاة البحر الهندى فالخليج الفارسى فنهر الفرات إلى أقصاه شمالا ، ويرتفع بعض المؤرخين بأول فوج من أفواج الهجرة العربية إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، ثم تتابعت الأفواج من هذا الطريق إلى ما بعد التاريخ .

فالأشوريون والأكاديون والبابليون والكلدانيون هم أفواج متلاحقة على فترات متباعدة تتراوح الفترة منها ما بين ستمائة سنة وألف سنة ، وأقدمها ما أقام فى الشمال . لأن الأقاليم الشمالية فى وادى النهرين كانت أخصب الأقاليم وأصلحها للزراعة والمرعى خلافا لأقاليم الجنوب التى كانت مغمورة بماء البحر الملح وظلت كذلك زمنا طويلا قبل أن ينحسر عنها الماء وتصلح فيها الأرض للسكن والزراعة ، فلما انحسر عنها الماء أصبحت أعمر الجهات فى وادى النهرين ، لقيام المدن على شواطئها ووفرة الموارد فيها من التجارة والزراعة .

ومن شمال العراق كانت قبائل المهاجرين الأوائل تنحدر إلى بادية الشام وإلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط على مقربة من صحراء سيناء .

فالقبائل العربية التى أقامت فى فلسطين من شمالها إلى جنوبها إنما قدمت إليها على الأكثر من الشرق لا من الجنوب ، ولم يظهر لنا من الآثار ما يدل على هجرة كبيرة من طريق الحجاز وشواطىء البحر الأمر قبل الدعوة الإسلامية .

وسبب ذلك أن الحجاز – كما هو معلوم – واد غير ذى زرع ، فلم يكن فيه من السكان من يزحفون فى حشد كبير لغزو البلاد الشمالية ، وكان معظم الرحلة فيه للتجارة مع القوافل التى تذهب وتعود ، ولا يبقى منها فى الشمال إلا العدد القليل ، ولكنه مع هذا كان طريقا غير منقطع من طرق التجارة القديمة . لأن سلوك القوافل بين اليمن والعقبة على طريق البر أيسر من سلوكها بحرا مع قلة السفن واعتماد العرب فى أسفارهم على الجمل الذى سموه بحق سفينة الصحراء .

وربما حدث مرات أن يوغل العرب الشماليون جنوبا كلما ضاقت بهم مساكنهم أمام المغيرين عليهم أو حاقت بهم نكبة من الزلازل والصواعق وهى كثيرة فى تلك البقاع كما ظهر من آثارها الباقية إلى هذه الأيام .

ولهذا يعتقد المؤرخون أن اليمن هى مصدر العربية الأول ، ويتلاقى هنا رأى المؤرخين الأقدمين من أهل الحجاز ، إذ كانوا يقولون إن العرب العاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم العرب المستعربون .

ولكن هذا الترتيب إذا صح من حيث النسب لا يصح من حيث الارتقاء باللغة العربية ، فإن اللغة العربية الأولى فى اليمن لم تبلغ من الصقل والفصاحة وانتظام القواعد ما بلغته لغة الحجاز . فهى نهاية الدورة بعد

مطاف اللغة العربية من أقصى الجنوب فى شبه الجزيرة إلى أقصى الشمال فى العراق ، إلى الرقعة الوسطى بين العراق والبحر الأبيض المتوسط ، وهى لا تزال ترتقى وتتهذب فى كل مرحلة من مراحل المطاف .

على أن البقايا التى تخلفت منذ عشرات القرون قبل الميلاد لاتدع مجالا للشك فى وحدة اللغة بين الأقوام العربية فى شبه الجزيرة العربية وفى أرض الهلال الخصيب ، ويقول البرايت Albright فى كتابة عن أحافير فلسطين[1] :

« إن اللغات السامية المشهورة فى القدم هى الأكادية - الآشورية البابلية والسامية الشرقية والسامية الغربية ، وتنقسم هذه إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أى المعينية والسبيئة والأثيوبية ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فإنما هو مسألة إصطلاح ، والتفرقة فيه أقل جدا من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التى دسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير . إذ أن اللغات السامية القديمة - عدا الأكادية - تتقارب فى الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية ، ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكد الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصلية فى هذه الأيام ، ولم تكن الأكادية نفسها منفصلة عن سائر اللغات السامية الغربية أكثر من الانفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين » .

---

(١) Archaeology of Palestine by Albtight

ويقرر علماء المقارنة الدينية مثل هذا عن التقارب بين عبادات العرب الأولين . فيقول الأستاذ أندرسون فى مجموعة العهد القديم والدراسات العصرية[١] : « إن إله الكنعانيين الأعلى – إيل – يعبد بأسماء متعددة بين الساميين الغربيين ، ويعرف باسم شداى ، وإيل عليون ، وسالم ، وصادق ، وحداد .

ويرى أنجنل Engnell أن اسم يهوا واحدا من هذه الأسماء كان مهملا على عهد موسى فأحياه موسى بدعوته ، ثم امتزج اسم يهوا بالصيغ الأخرى ولا سيما صيغة إيل عليون فى أورشليم وتم هذا الامتزاج بسهولة لأنها عنوان على إله واحد » .

ثم قال إن الوحدانية التى كانوا يدركونها فى ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب .

ويقول وولى Woolley صاحب أهم المباحث فى تاريخ إبراهيم : « إنه من المحتمل جدا ، وأن لم يكن ثابتا ثبوت اليقين – أن اسم يهوا كان معروفا عند بعض قبائل سورية الشمالية قبل زمان موسى بعهد طويل[٢] »

والظاهر أنهم كانوا إلى الزمن الذى كُتب فيه المزمور الخامس والثلاثون بعد المائة من المزامير المنسوبة إلى داود عليه السلام يصفون يهوا بأنه « مفرق جميع الآلهة » .

---

(١) The Old Testament and Modern Study

(٢) Abraham by Woolley

والظاهر كذلك أنهم كانوا إلى ما بعد خروجهم من مصر لا يزعمون أنهم مميزون على القبائل الأخرى ، بل يخطر لهم كما جاء في الاصحاح الأول من سفر التثنية أن الرب « لبغضه لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم إلى أيدى العموريين ويهلكهم على أيديهم » .

وظاهر كذلك أن وحدة الأصل واللغة كانت توقع اللبس فى تسمية القبيلة الواحدة أو الشعب الواحد ، فنسخة يهوا من العهد القديم تسمى سكان غرب الأردن بالكنعانيين ، ونسخة الوهيم كانت تسميهم بالعموريين كما يرى من مراجعة الاصحاح الأول من سفر القضاة .

ويعنينا فى هذا الفصل أن نبرز هذا التشابه فى السلالة العربية منذ أقدم العصور التاريخية ، فلم نعثر فى مصدر واحد على خبر يفهم منه أن إبراهيم التقى بمن يعارض عقيدته الإلهية بعد خروجه من موطنه الأول ، وقد كانت فى طريقه عبادات محلية مختلفة وأرباب محليون مختلفون ، وشأن هؤلاء كشأن الأولياء والقديسين الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة فى الأمم التى تؤمن بالوحدانية ، فأبناء الجهة يفضلون أولياءهم وقديسيهم وقد يتحولون من جهتهم إلى جهة أخرى فلا ينكرون التشفع بالأولياء والقديسين فى الجهة التى تحولوا إليها ، لأنهم أصحاب الحق فيها . أما العقيدة الإلهية فهى واحدةأو متقارية ، ولولا ذلك لما كان الخليل عليه السلام يوقر ملكى صادق ويقدم قربانه للإله عليون كما روى سفر التكوين .

إنما اشتد الخلاف الدينى وخلاف العصبية بين أبناء هذه الشعوب عندما وقر فى أذهان طائفة من العبريين أنهم هم وحدهم ذرية إبراهيم المختارة ، وكانت دعواهم هذه طارئة لم يسمع بها إلا بعد أيام موسى بمئات السنين ، وفى هذا يقول سفر التثنية : « أنتم مارون بتخم اخوتكم

بنى عيسو الساكنين فى سعير ، فيخافون منكم فاحترزوا جداً .
لا تهجموا عليهم لانى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم . ولعيسو قد
أعطيت جبل سعير ميراثاً .. طعاماً تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء
تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا ... ومتى قربت إلى تجاه بنى عمون
لا تعادوهم ولا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون
ميراثاً ، ولبنى لوط قد أعطيتها .. وهى أيضاً تحسب أرض رفائيين ،
سكنوها قبلاً .. لكن العمونيين يدعونهم زمزميين : شعب كبير وكثير
وطويل كالعناقيين أبادهم الرب من قدامهم فطردوهم وسكنوا مكانهم إلى
هذا اليوم .. » .

هكذا كانت حال الشعوب المتفرعة على الأصول العربية ، ولكنه لم تكن
وحدها فى بقاع الهلال الخصيب أو بين النهرين ، إذ كات هذه البقاع
مفتوحة للواردين من الشرق والغرب والشمال ، وما حدث فى عهود
التاريخ المعلومة قد حدث مثله فى العهود التى لم يدركها التاريخ ، قد
حدث مثله من الشرق يدعون بالسومريين ، وأناس من الغرب يدعون
بالحيثيين ، وأناس من الشمال مجهولون يحسبهم المؤرخون تارة من
السومريين وتارة من الحيثيين .

فالسومريون فى الغالب من أصل مغولى ، وسواء ثبت أنهم من المغول
أو ثبت غير ذلك ، فالأمر الذى لاشك فيه أنهم من غير السامريين
أو السلالة العربية ، لأنهم كانوا يتكلمون لغة غروية Agglutinative بعيدة
جداً فى أصولها وقواعدها من اللغات السامية الانشقاقية ومنها العربية
Inflectiona ، و ... ومن المقابلة بين صورهم وتماثيلهم وبين الصور

والتماثيل العربية فى أرض بابل وغيرها يبدو الفرق واضحاً بين الملامح والقسمات ، فضلاً عن الفروق البعيدة فى الطبائع والعادات ، ولكنهم لم يعرفوا باسم غير الاسم الذى أطلقه عليهم العرب الأقدمون ، وهو اسم السومريين أى سمر الرؤوس كما جاء فى وصفهم على الآثار .

والحيثيون على الأغلب آريون قدموا من الشرق إلى آسيا الصغرى قبل فجر التاريخ ، ولابد أن يكون مقدمهم إلى آسيا الصغرى بعد احتلال الساميين للهلال الخصيب بقوة لم يستطع الحيثيون أن يتغلبوا عليها ، وإلا لما تجاوزوا هذه البقاع المخصبة إلى ما وراءها .

ويذهب أناس من المؤرخين المحدثين إلى أن العموريين أيضاً من الأقوام التى لا تنتمى إلى سلالة سامية عربية ، ومن هؤلاء المؤرخين العلامة سايس Sayce المشهور .. وحجته فى ذلك أن صورهم على معبد رمسيس تخالف فى اللون والقامة صور الأقوام الأخرى من أبناء آسيا الغربية ، وهى حجة لا تنهض وحدها أمام اللغة وانقطاع الصلة بينهم وبين كل قطر من الأقطار التى يفرض الفارضون أنهم قدموا منها ، ولا يعقل أنهم قدموا من أوربة عن طريق أفريقية وهى خالية ثم اختاروا بقاع فلسطين وسورية دون غيرها ، ولا يعقل كذلك أنهم حاربوا أبناء البلاد التى وقعت فى طريقهم وتغلبوا عليهم واجتازوهم دون أن يسلبوهم أرضهم ويستقروا فيها ، وليس أقرب إلى التقدير الصحيح من مجيئهم فى زمن قديم من الشرق عند وادى الفرات ، ولعلهم ينتمون إلى الأرض المعروفة باسم (امرو) هناك ، ولا اعتداد بلون البشرة أو طول القامة ،

فلم يثبت قط أن الجو العربى منذ الأزمنة الخالية كان يستلزم السمرة والقصر ، ولم يزل بين أجناس الجنوب عمالقة غير العموريين .

ذلك مجمل الحال من حيث السكان فى بلاد النهرين والهلال الخصيب ، فمن شرق الدجلة إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط عشائر عربية تقيم وتترحل وينافس بعضها بعضاً على المرعى والمورد كلما ضاقت بها البقاع أو جاءها من الجنوب وارد جديد .

وكان السلطان الأكبر على هذه العشائر للدولة التى تقوم فى العراق ، سواء كانت دولة الأشوريين أو الأكاديين أو البابليين ، أو كانت دولة السومريين قبل هؤلاء أجمعين .. لأن هذه العشائر تقيم وتترحل فى بقاع لا تنفصل عن بقاع النهرين ، وربما دخل بعض البقاع فى حوزة مصر وتولاها حكام من قبل فرعون ، وربما اقتدى بعض العشائر بالمصريين فى العادات والعبادات ، وربما انتقل بعضهم إلى مصر مرتادين أو متجرين فاقتبسوا كذلك من عاداتها وعباداتها ، ولكن وحدة اللغة ووحدة المكان ووحدة العادات كانت هى الغالبة على طول الزمن ، ولهذا كان الولاة المصريون على آسيا الغربية يكتبون إلى فرعون بالخط المسمارى وعلى ألواح الطين المطبوخ ، كما كان يكتب البابليون والأشوريون .

وحدث غير مرة أيام ضعف الدول أن تجترىء العشائر القوية عليها فتهزمها وتنشىء فيها دولتها : حدث هذا من العموريين والعيلاميين فى وادى الفرات ، وحدث من الرعاة الذين اشتهروا باسم الهكسوس فى وادى النيل ، ويرتبط تاريخ الخليل كما يلى بقيام هذه الدول وانتقال هذه العشائر من أماكنها كلما قامت لإحداها دولة مستقرة فى الحواضر

والعواصم ، وهجرة إبراهيم على اتصال وثيق بالزعازع التى تنشأ حتماً من تبدل النظم وتبدل العبادات والكهانات وحلول الجديد منها محل القديم مع المساومة والمصالحة بين النظام المقبل المعمول به والنظام المدبر المهجور .

ولكننا على كثرة الأحافير لا نجد بينهما خبراً يعين لنا التاريخ فى حادث من الحوادث تعين الجزم واليقين . ولم يهتد المنقبون إلى تاريخ منها إلا على وجه التقريب ، وبعد الموازنة والترجيح .

وعلة ذلك أن الدول الكبرى فى تلك العهود لم تكن موحدة الحكومات ، بل كانت منقسمة موزعة يتولاها فى الوقت الواحد ثلاثة أمراء أو أربعة أو أكثر من ذلك ، فإذا حاول المنقب أن يضع لهم ترتيباً متعاقباً لم يلبث أن ينكشف له من محفورات جديدة أنهم كانوا فى عصر واحد ، ومن الأمثلة الكثيرة على هذا أن المنقبين كانوا يعينون سنة ١٨٤٠ قبل الميلاد لحكم حمورابى ، ثم انكشفت أحافير (مارى) للأستاذ اندريه باروت André Parrot فقدموها قرناً كاملاً إلى نحو سنة ١٨٤٠ لأنهم وجدوا ملوكاً معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين له فى موطنه .

وفى مصر كان المظنون أن ترتيب الأسر متعاقب ، ثم ظهر من النقوش المتوافقة فى الزمن أن الأسر الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة حكمت فى عصر واحد بين أقاليم الوجه البحرى والصعيد ، وأن الإصلاحات التى تمت فى إقليم الشلال لم تكن من عمل الهكسوس المعاصرين ، وأن من هؤلاء الهكسوس من كان يرسل الهدايا والاتاوات إلى ملوك الصعيد ... ويقول المؤرخ بترى Patrie أن الصورة التى على

معبد بنى حسن هى صورة رئيس من الهكسوس ، وإن الكلمة مركبة من هيك بمعنى أمير ومن شو اسم القبيلة ، وأنه يضاهى اسم (خيان أو شر) المنقوش بين أسماء الملوك الشماليين على معبد تحوتمس الثالث بالكرنك ... واسم خيان هذا خليق أن يقف عنده القارىء ، لأنه قريب من اسم ريان الذى حسبه مؤرخو العرب الأقدمين بين أسماء ملوك الرعاة ، ونتيجة هذا التداخل فى أزمنة الأسر الحاكمة أن يلتبس الأمر على المؤرخ عند تعيين أوقات الحوادث وتعيين اسم الأمير الذى تنسب إليه ، وقد مضى زمن على الهكسوس فى الوجه البحرى وهم رواد يطلبون المرعى والضيافة ولا يجسرون على المنازعة فى الملك ، فإذا وجدت لهم آثار سابقة لعصر دولتهم فلا يلزم من ذلك تعديل تاريخ الدولة ، لأن دخول الهكسوس إلى مصر للمرعى والرحلة من مكان إلى مكان غير دخولهم بجموعهم وجنودهم للسيطرة وإقامة الملك بأسمائهم ، وكل ما يدل عليه السماح لهم بالدخول وإهمال الحيطة فى أمرهم أن فراعنة الصعيد كانوا يومئذ فى شاغل بالنزاع بينهم عن الحيطة والتحصين .

ولا داعى كذلك لتخطئة المؤرخين الذين نقبوا فى فلسطين ، فعينوا للهكسوس تاريخا غير تاريخ دولتهم بالديار المصرية ، فإن زحف الهكسوس على جنوب فلسطين سابق بالبداهة لقيام دولتهم بالوجه البحرى من أرض مصر . فالمنقبون فى مدينة أريحا علموا من بقاياها أنها خربت بالزلازل وقذائف البراكين ثلاث مرات ، وعلموا من أساليب البناء ونقش الفخار وأثر التحلل على المنسوجات فى طبقات الأرض متى كان الموعد المقارب لكل كارثة من هذه الكوارث . وفي الدور الثالث وجدوا مقابر للهكسوس واستطاعوا أن يعينوا وقتا لوجودهم بأرض كنعان

حوالى سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وعلموا أن أمير (أريحا) تواطأ مع الهكسوس على غزو مصر ، وأن هؤلاء أقاموا معه موظفا يسمونه كاتب الوزير للرقابة على البيادر وخزائن الغلال ، وأن الفترة كانت فترة اضمحلال وهزال أصاب الدول فى مصر والعراق وشجع الرعاة والقبائل الرحل على غزوها وتوطيد أقدامهم فيها ، فكان هجوم الهكسوس على مصر معاصرا لهجوم قبائل البدو من عيلام وعمور على بابل ، وكانت الأرض التى فى طريق مصر موزعة بين العمالقة والحيثيين واليبوسيين والعموريين ، وليس بينهم ذكر للعبرانيين .

إلا أن المنقبين الذين عينوا زمنا للهكسوس حوالى سنة ١٧٥٠ لم يعرفوا من هم هؤلاء الهكسوس[1] على وجه التحقيق ولكنهم استخلصوا من « خط السير » الذى اتبعوه بعد خروجهم من مصر منهزمين أنهم عادوا إلى مواطنهم فى شمال سوريا ، وأنهم على الأرجح مزيج قديم من الأرامين والحيثيين ، ولم يطل مقامهم بمصر أكثر من قرن ونصف القرن ، ثم تعقبهم المصريون ودمروا المدن التى تواطأت معهم على غزو الديار المصرية ، ومنها أريحا ، وقد وجد المنقبون فيها بين الفصوص الكثيرة فص خاتم باسم خاميس أو أحمس قاهر الهكسوس .

إلى هذا التاريخ لم يكن للعبريين الذين يسمون أنفسهم بأبناء إسرائيل أى أثر بين القبائل التى فى طريق مصر ، ولم يذكر لهم اسم فى أثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٢٠ قبل الميلاد .

---

(١) كتاب قصة أريحا للأستاذ جارستانج وابنه Garstang

فى هذا الأثر يروى الفرعون مرنفتاح خبر حملته التأديبية على عسقلان وجزير ويوانام وإسرائيل ، ويقول أنه محا إسرائيل فلم تبق منها باقية ، ويؤيد خبره هذا أن النصب الذى أقيم بعد ذلك مسجلا لانتصار رمسيس الثالث على العموريين والفلسطينيين والحيثيين سنة ١١٩٠ قبل الميلاد ، لم يرد فيه ذكر لإسرائيل .

وعصر إبراهيم قبل هذه الفترة على التحقيق ، فمن القرن الثانى عشر إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لم يكن لإبراهيم وذريته مقام فى غير الجنوب عند جيرار أو وراءها جنوبا ، ولم يكن لإبراهيم مقام فى حبرون ، ولهذا يرجح الدكتور (كامبيل) أن إبراهيم لم يدفن فى مغارة مكفيل بحبرون على مقربة من أورشليم ولكن الذين انتسبوا إليه تعلقوا بذكرى هذا المدفن لتسويغ دعواهم فى مملكتهم ، ولابد هنا من إبراهيمين أحدهما جاء بعد الاخر بزمن طويل .

ويذهب الدكتور كامبيل بعيداً جدا فى هذا الفرض . فيشير إلى ورود اسم إبراما فى الآثار البابلية ، وقد ورد خلال قصة زراعية حيث قيل : إن إبراما استأجر ثورا للزرع من أحد الفلاحين ، ولا شأن لإبراما هذا بسيرة الخليل .. ولكن الدكتور كامبيل يسرد أسماء أخرى فى الأحافير قريبة من هذا الاشتقاق ، ومنها « ابرمراما » ، وهو على رأى الدكتور قد يكون أمر مرابى الذى هو أمورابى بعينه . وهو ولا شك جد من جدود العموريين الذين ملكوا بابل ، وكانت منهم شعبة تملك بيت المقدس وحبرون بجوارها ، فلما امتزج العموريون والعبريون ، واشتركوا فى العبادة وفى السيادة ، صعد العبريون بنسبهم إلى جد مدفون فى حبرون يسمى إبرام

وذكروا أن قبره مشترى بالمال من ملوك الأرض[1] الاصلاء ، فليس فى دفنه ثمة عدوان ولا إدعاء .

وقصة الإبراهيمين قد لجأ إليها كاتب منقب لا يغلو فى فروضه على هذا المثال ، وهو السيرليونار صاحب كتاب إبراهام والكشوف الأخيرة ، فقد رجح أن إبراهام غير إبرام ، وقال أن تسمية الحفيد باسم الجد كانت مألوفة جدا فى البلاد البابلية كما يظهر من مقابلة أسماء الملوك من أسرة واحدة ، فإذا كان لإبراهيم جد باسم إبرام كما جاء فى كثير من الروايات فالأقرب إلى المألوف أن المتأخرين بعد عصره جمعوا بين أخبار الاثنين ، ووصلوا عمر أحدهما بعمر الآخر فبلغوا بهما مائة وخمسا وسبعين سنة .

وغير بعيد أن يكون العبريون المتأخرون قد تكلموا عن إبراهيمين لا عن إبراهيم واحد ، فهذا التاريخ الغامض قد زاده اختلاطا على اختلاط دعوى الطائفة العبرية التى تنتسب إلى إبراهيم إنها ذريته التى ترثه فى الأرض والسماء ، وأنها ورثت أرض فلسطين من أيام إبراهيم مع أنهم كانوا إلى أيام موسى يشترون المرعى والمورد فيها بالفضة ، ولم يستطيعوا أن يدخلوا فلسطين إلا بعد ضعف العموريين والحيثيين والهكسوس .

ومن حقائق التاريخ المطردة أن الملك هو بلاء القبائل الرحل ، فلما ملك الحيثيون والهكسوس ضاعوا واندحروا ، ولما هجم العموريون فى بابل

وفى بيت المقدس ، ولما دخل العبريون أنفسهم بيت المقدس وملكوا فيها ، ضاعوا واندحروا وحاق بهم ما حاق بالقبائل الأولى .

---

(١) Race and Religion by C. G. Canpbell

فالملك هو نهاية كل قبيلة من تلك القبائل ، وقد ظلت كلها قبائل نامية إلى أن ملكت ، فانتهت بذلك إلى دورها الأخير .

وعلى هذه السنة عاش العموريون والكنعانيون والحيثيون ، وعاش معهم العبريون قلة ضعيفة إلى أقصى الجنوب من تلك البقاع ، فكان وطن إبراهيم عند سيناء وشمال الحجاز ، وكان الجنوب مفتوحا له وأيسر له من الشمال ، حيث تجول القبائل التى بلغ من قوتها أن تغير إحداها على بابل وتغير الأخرى على مصر ، فأيسر من إجلائها عن أرضها أن يبقى حيث هو ، أويمعن فى الجنوب ويستقبل الحجاز ، وعبرة التاريخ هنا أن المتحذلقين الذين خطر لهم أن ذهاب إبراهيم إلى الحجاز أعجوبة ملفقة يرون بالنظر الصادق أنها هى التقدير الصحيح ، وأن الأعجوبة هى اتجاهه من الجنوب إلى الشمال .

اللغة

ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم : إن إبراهيم عليه السلام كان عربيا ، وأنه كان يتكلم اللغة العربية .

ولكنها الحقيقة التاريخية التى لا تحتاج إلى فرض غريب أو تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه ، وإنما الفرض الغريب أن يحيد المؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب إبراهيم إلى قوم غير قومه الذين هو منهم فى الصميم .

وليس معنى هذا بالبداهة أنه كان يتكلم العربية التى نكتبها اليوم أو نقرأها فى كلام الشعراء الجاهلين ومن عاصرهم من العرب الأقدمين ، فلم يكن فى العالم أحد يتكلم هذه اللغة فى عصر إبراهيم ولا فى العصور اللاحقة به إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد .

وإنما اللغة العربية المقصودة هى لغة الأقوام التى كانت تعيش فى شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها وإليها فى تلك الحقبة ، وقد كانت لغة واحدة من اليمن إلى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء .

ولقد عرفت تلك اللغة حينا باسم اللغة السريانية غلطا من اليونان فى التسمية ، لأنهم أطلقوا اسم أشورية أو أسورية على الشام الشمالية ، فشاعت تسمية العربية باسم السوريانية ، والسريانبية من المكان الذى أقامت فيه بعض قبائل قبل العرب الوافدة من شبه الجزيرة منذ أقدم العصور ، قبل عصر إبراهيم بزمن طويل .

واشتملت هذه اللغة السريانية فى بعض الأزمنة على عدة لغات لا تختلف بينها إلا كما اختلفت لهجات القبائل العربية قبل الدعوة الإسلامية ، ومن هذه اللغات لغة أرام وكنعان وأدوم ومؤاب ومديان وما جاورها فى الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء .

وربما كانت المفاجأة أشد على من يسمع أن الخليل لم يكن عبريا من العبريين .

فقد مضى زمن طويل والناس يفهمون أن العبرية واليهودية كلمتان بمعنى واحد ، ولم تكن اليهودية قط مرادفة للعبرية فى معنى صحيح .

فالعبرية فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحل فى صحراء الشام ، وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات ، وبهذا المعنى وردت كلمة العبرى والإبرى والهبيرى وما قاربها لفظا فى أحافير « تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق ، وجاءت بهذا المعنى فى الكتابات المسمارية والفرعونية » ولم يكن لليهود وجود فى ذلك الحين .

ولما وجد اليهود وانتسبوا إلى إسرائيل كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية أنها لغة كنعان ، ثم انطوت العبرية فى الآرامية التى غلبت على القبائل جميعا بين فلسطين والعراق مع اختلاف يسير بين الآرامية الشرقية والآرامية الغربية .

وأصبحت العبرية لهجة تختلف بنطق بعض الحروف كما تختلف القبائل بنطق الشين والكاف ، أو نطق الميم واللام إلى هذه الأيام .

ففى الإصحاح الثانى عشر من سفر القضاة يقول : « كان رجال جلعاد يقولون له أأنت من أفرايم ؟ فإن قال لا ، كانوا يقولون له : قل شبولث فيقول : سبولث ، فكانوا يأخذونه ويذبحونه » .

ولما كشف حجر موآب المشهور[1] وجدت الكتابة عليه قريبة جدا من العبرية ، وهو يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

وقد أقام هذا الحجر ملك موآب ميسا بن شموس ، وقال فيه : إن الإله شموس (أى الشمس) نصره الله على إله إسرائيل ، وأنه بنى هيكل بعل ، و ذكر (اشتار شموس) فى موضع آخر ، كما قال : إنه جر محاريب (يهوا) أمام ربه المعبود ، وكان هذا الرب راضيا عنه بعد جفاء عقاب .

وظهر من أحافير اليمن والعراق والشام وفلسطين أن أسماء الإله واحدة في جميع هذه البلاد ، ففى كلامها اسم بعل والرب وايل وصادق بمعنى المعطي الوهاب ، ومن هذا التشابه اسم ملكى صادق فى فلسطين واسم ايل صادق فى معين وحضرموت .

ومن أقوى الأشياء دلالة على العلاقة بين إبراهيم والحجاز أن اسم بعل يطلق كثيرا على الاله فى ديانات جميع القبائل ما عدا القبائل التي دانت بدعوة إبراهيم وخلفائه ، فإن إطلاق اسم البعل على الاله مكروه فيها لا يذكرونه إلا عرضا فى تركيب الأسماء التى يتوارثها الناس بغير نظر إلى معناها، وقد ورد اسم البعل فى ديانات الجزيرة العربية ما عدا ديانة

---

(١) كشفه كلين الألمانى سنة ١٨٦٨ .

الكعبة أو ديانة الحجاز ، ومن قال ان اسم (هبـل) تصحيف لاسم (يهو بعل) لم يستند إلى دليل ولا قرينة معقولة . إذ لا معنى لتصحيف الكلمة فى اسم الصنم مع وجودها فى اللغة بمعنى السيد أو الزوج إلى اليوم ، ولو كانت الكلمة منسية لما كان بالتصحيف من غرابة ، وأما وهى مفهومة معروفة فتصحيفها فى اسم صنم معبود غير معقول ، وأبعد من هذا القول أن يقال إن (هبل) منحوت من كلمة يهوا وكلمة بعل ، فإن الدعوة إلى يهوا تناقض الدعوة إلى بعل ، ومن آمن بهذا لم يؤمن بذاك . إلا إن يقال أن اسم يهوا مأخوذ من لغة العربية الحجازية أو الجنوبية ، وينبغى لمن يقول هذا أن يستشهد بأمثلة لوجود الكلمة مفردة ومقترنة بعل فى أثر ثابت ، وليس بهذا الأثر وجود .

ويرجح بعضهم أن اسم إبرام يتألف من أب ورام هنا بمعنى أحب ، فاسم إبرام إذن يعنى محبوب الله ، وهو وصف يوافق تلقيبه بخليل الله ، ويستبعد مرجليوث[1] أن تكون (رام) من مادة الرفعة كالرامة التى تطلق على القرية فى البناء العالى ، وتجمع على رام كما تجمع ساعة على ساع وحالة على حال وحانة على حان .

وينقل مرجليوث عن جليزر Glaser أن الملك الحميرى شرحبيل يعفور ذكر اسم الله فى الحجر المنقوش على سد مأرب فسماه « بعل السمائين والأرضين » وأنهم عرفوا التوحيد فى منتصف القرن الخامس للميلاد ،

---

(١) رسالته فى مطبوعات الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٢٤ .

وينقل عن دسو Dussaud أن الأحافير النبطية التى ترجع إلى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الآرامية والعربية الفصحى .

وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيراً بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفى سنة قبل الميلاد . فإن أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفى والنهى وتصريف الأفعال مشتركة فى اللغة العربية واللغة الأشورية التى تنسب إليها السريانية كما تقدم .

وهذا التقارب هو الذى أوحى إلى الأستاذ ديروتى أن يترجم اسم (دمقى اليشو) بحبيب الله من المقة بمعنى الحب والأيل بمعنى الله وضمير الإضافة ، وجاء قلبى فظن أن هذا الاسم يطابق فى الزمن والصفة اسم الخليل إبراهيم ، وأن الخليل كان ملكا من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج الفارسى لأن الأقوال متواترة بمقام الخليل هناك فى أور الكلدانيين ، ولأن اسم (دمقى اليشو) ورد فى الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشاطىء أو ملوك الأرض البحرية[1] وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات .

وهذا التقارب فى اللغة والكتابة يفض لنا – فيما نعتقد – خلافا شديداً دخل فيه المهاجمون للإسلام والمدافعون عنه حول نسب الخليل إبراهيم واسم أبيه .

---

(١) The Back ground of Islam by Phi ! by

فقد جاء فى القرآن الكريم « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر .. » فاتخذ المهاجمون للإسلام من ذلك دليلا على الخطأ فى تسمية أبى الخليل ، وقالوا ان اسمه تارح كما ورد فى العهد القديم .

وجاء بعض المفسرين من المسلمين فحاولوا طويلا أن يجعلوا لكلمة (آزر) موضعا من الأعراب أو مدلولا يبطل ذلك الانتقاد ويردون به تخطئة المهاجمين .

والواقع أن هذه التخطئة لا محل لها عند النظر فى أصول الأسماء ، فإن إبراهيم قد انحدر إلى أرض كنعان من أرض أشور ، واعتقد شراح الكتب الإسرائيلية فى غير موضع أن الآباء الأولين كانوا ينسبون إلى بلادهم أو أممهم كما يقال عن ابن مصر وابن أوربة وأبناء الشرق وأبناء الغرب وأبناء النيل .

فإذا نسب إبراهيم إلى أشور فمن الجائز جداً أن يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم علما على رجل أو على الجد القديم الذى تنسب إليه أمة أشور ، وكثيراً ما انتسب القوم إلى اسم جد قديم كما يقال فى النسبة إلى عدنان وقحطان .

ونظرة واحدة فى كتابة اسم أشور ونطقها إلى اليوم فى العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذى يبدو بعيداً لأول وهلة فقد كتبت أشور تارة أزور وتارة أثور وتارة أتور بالتاء وتارة أسور بالسين .

ولا يخفى أن اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة إلى زمن قريب ، وأن الإغريق الذين أطلقوا اسم (آسورية) على وطن إبراهيم من

نهر الفرات إلى فلسطين ينطقون الياء الإغريقية بين الواو والياء ، ولهذا تكتب لوبيا بالواو كما تكتب بالياء ، وتنطق سيريه بالياء في اللغات الأوروبية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية .

ولا يخفى كذلك أن كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق تيرا وتيرة عند الذين لا يستطيعون النطق بالحاء .

فإذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أتور وأتير إلى تيرة وتيرح ، وقد وردت في تاريخ يوسيفوس بغير الحاء ووردت في تاريخ يوسيبوس أثور ، وهو مكتوب باليونانية ، وقد ورد في التوراة اسمان بمعنى الأميرة أحدهما بالحاء وهو سارح (٤٦ تكوين) والآخر بغير الحاء وهو سار أو ساره .

ومؤدى هذا أن (آزر) هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم أسور القديم ، وأن تيره وتيرح هي نطق الذين يكتبونها أتيره وأتيرح ، وينطقون بكلمة أتور بين الواو والياء .

روى صاحب (المزهر) عن الأصمعي أن رجلين « اختلفا في الصقر فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما إنما هو الزقر ، وعلى هذا يتخرج جميع ماورد من التداخل نحو قلى يقلى وسلى يسلى » .

وإذا اختلفت الحروف في اللهجة العربية الواحدة هذا الاختلاف فلا محل للجزم بالتخطئة حين تختلف السين والزاي أو التاء والثاء في لغات تباعدت بينها الآماد .

وأيا كان القول فى نسبة إبراهيم إلى آزر بمعنى أسور فهو أقرب من القول بأن أباه سمى تارحا من الحزن أو من الكسل ، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق .

وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلى فى معرض آخر من معارض سيرة الخليل ، فلم يكن تاريخ إبراهيم فى الإسلام مستمداً من المصادر اليهودية كما زعم بعض المتسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الإسلامية ، وإلا لما كان أيسر من تسمية أبيه تارحا أو تيرحا أو تيرة وما شابه هذه التصحيفات ، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بآزر على أى توجيه .

وإنما هذا بينة من بينات شتى على أن دعوة إبراهيم لم تصل إلى الحجاز من مصادر اليهود .

والبينة الكبرى التى تأتى من مباحث اللغة هى التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين الذين ينتمون إلى نبات من أبناء إسماعيل .

فقد عقد اللغويون مقارنات كثيرة بين لهجات العربية القديمة التى بقيت إلى ما قبل الإسلام ، فظهر من هذه المقارنات أن التقارب بينها يقاس بالزمان ولا يقاس بالمكان ، قد يكون الجاران مختلفين غاية الاختلاف ، وقد يكون التشابه قريبا جدابين طائفتين تسكن إحداهما إلى أقصى الجنوب وتسكن الأخرى إلى أقصى الشمال .

فالحميريون كانوا يقيمون بأقصى الجنوب من الجزيرة العربية ، والأشوريون كانوا يقيمون بأقصى الشمال من العراق ، ولكن التشابه بين

لهجة حمير ولهجة أشور أقرب جدا مما بين اللهجة الحميرية واللهجة القرشية بمكة ، والمسافة بين اليمن والحجاز أقرب المسافات .

فاللغة الحجازية لم تتطور من اللغة اليمانية مباشرة ، وإنما جاء التطور من العربية القديمة إلى الأشورية إلى الأرامية إلى النبطية إلى القرشية ، فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما فى الزمان ، أو فى درجات التطور ولم يكن تقاربا يقاس بالفراسخ والأميال .

هذه هى البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء إسماعيل ، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين أو فقهاء الإسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التى حفظتها أسانيد اللغة والثقافة واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة .

ومما يدعو إلى احترام روايات النسابين فى هذا الباب أنهم عرفوا الحقيقة التى كشفها علماء الأحافير فى الزمن الأخير . فقال ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط » .

هذا من جهة الأصل واللغة ، ومن جهة الكتابة يقول الشاعر المنتصر ابن المنذر المدينى :

ملوك بين حيطى وسعفص فى الندى

وهوز أرباب الثنية والحجر

وربما اختلفوا فى مسألة الكتابة لأنها طارئة لم يتعلمها منهم غير القليلين . أما النسب ومرجعه إلى نبات والنباتيين ، فالتوافق فيه واضح بين رواية النسابين وتحقيق الأحافير .

مُدن القوافل

أكثر غوامض التاريخ يخلقها المؤرخون . لأنهم ينظرون إلى التاريخ كأنه حسبة أرقام لإحصاء السنين والأيام ، أو كأنه أطلس مواقع ومعالم ، أو كأنه سجل حوادث وأنباء .. ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة ، وهى أنه وصف نفوس إنسانية وأن حوادثه وأنباءه ومعالمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام إنما هو تبع لوصف النفوس الإنسانية لما بقى فيه غموض ، أو بقى فيه الغموض الذى يغمض علينا لسبب مجهول .

وقد غمض على المؤرخين شيء كثير من أحوال الرسالات النبوية ، لأنهم لم يرقبوا حالة مشتركة فى جميع هذه الرسالات وهى الحالة النفسية التي تكون عليها الأمم فى طور واحد ، وذلك هو طورها حيث تتصل البداوة والحضارة ، فلم تتهيأ النفوس للرسالة النبوية فى حالة قط كما تهيأت لها وهى قائمة بين البداوة والحضارة ، ولم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها ، أو فى الصحراء المنعزلة دون غيرها ، وإنما عرفت هذه الرسالات على الدوام فى مدينة حولها صحراء ، أو فى صحراء على مقربة من مينة ، ولهذا كانت مدن القوافل وما فى حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذى يرشحها لقيام الدعوات الدينية .

لم اختص الله الأمم السامية بالرسالات النبوية ؟ لِمَ تظهر هذه الرسالات في الهند أو في الصين أو فى القارة الأوروبية ؟ لِمَ كانت هذه الرسالات هي الدور الذى تهيأت له أمة واحدة فى وسط العالم : أمة وسطا كما نعتها القرآن الكريم ؟

تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها ، حتى ننظر في الأحوال النفسية التى يكون عليها الإنسان بين الحضارة والبداوة ، ولا تهيئه لها الحضارة على انفراد ، ولا البداوة على انفراد ، بل لابد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين ، ولم يحدث قط أنهما التقيا وامتزجا على هذا النحو فى غير البلاد التى قامت عليها الحضارات الأولى ، وظلت زمنا طويلا جامعة بين الصحراء والمدينة والأقطار المتحضرة ، وكأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة ، ثم نهضت بها ونشرتها فى جميع أنحاء العالم ، فهي دورها الأكبر بين سائر الأدوار التى توزعتها الأمم والعصور .

لماذا كانت مدن القوافل أو المدن القريبة من الصحراء ، أصلح البلاد للرسالة النبوية ؟

إنها صلحت لذلك لأن الأحوال النفسية التى تتوافر فيها لا تتوافر في حضارة العمران المتصل ، ولا تتوافر فى الصحراء المنعزلة ، ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة فى بيئة أخرى كما تتم فى مدينة حولها الصحراء ، فأما القطر الذى يتصل عليه العمران فهو مختلف من هذه الناحية ، وأما الصحراء التى تنعزل عن العمران فهى من هذه الناحية مختلفة كذلك ، وسنرى أوجه هذا الاختلاف في عرض موجز لهذين الطرفين المتقابلين ثم نعود إلى الوسط الذى يلتقيان لديه .

أن القطر الذى تتصل فيه الحضارة وتتلاحق فيه مظاهر العمران يعطينا المشترعين والكهان ولا يعطينا الأنبياء المرسلين أو الرسل المجاهدين .

ففى هذا القطر يسرى العرف وترتقى العادات الاجتماعية ، ويستقر نظام القانون والمعاملة وقد يتقدم أهله في إدراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم .

بل هو قد يتقدم قبل البداوة إلى إدراك عقيدة الوحدانية ، لأن الدول الكبار تنشأ فى مبدأ أمرها من قبيلة تتسلط على قبائل أصغر منها ، ثم يجتمع من القبائل شعب كبير يتسلط على شعوب أصغر منه ، فتقوم دولة الحضارة من امتزاج هذه القبائل والشعوب ، وتتقدم إلى الإيمان بالوحدانية كلما اشتركت فى عبادة واحدة يفرضها الشعب الذى سادت عبادته على مختلف العبادات .

فالقبيلة القوية تفرض علي القبائل الصغيرة أن تطيع ربها كما تفرض عليها أن تطيع أميرها ، ثم يجتمع من هذه القبائل شعب كبير يفرض علي الشعوب التى دخلت في حوزته أن تطيع ربه وأن تدين بديانته ، ولا تزال كذلك حتى يتوحد لها رب معبود تدين له جميعا وتؤمن بوحدانيته ، وتؤمن بسيادته على جميع الأرباب زمنا ، حتى يبطل التعدد ويستقر التوحيد .

إن دولة الحضارة التى تقوم على هذه الأسس قد تسبق البداوة إلى الإيمان بالوحدانية ، ولكن مسألة الدين فيها تؤول إلى سلطان الكهان ، وهم أعداء الأنبياء ، وعداوتهم لهم تتكشف للعيان حتى في الأمم التى تعودت أن تتلقى الرسالات النبوية منذ عهد بعيد .

فلما توطد سلطان الكهنوت فى بنى إسرائيل خرج من الكهان أنفسهم من يتنبأ وينكر دعوى النبوة على غير أصحاب الكهانة ، وقال زكريا صاحب آخر كتاب – قبل الأخير – من كتب العهد القديم :

« .. يقول رب الجنود أنى أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد ، وأزيل الأنبياء أيضا والروح النجس من الأرض ويكون إذا تنبأ أحد بعد أن أباه وأمه - والديه - يقولان له : لا تعيش لأنك تكلمت بالكذب باسم الرب ، فيطعنه أبوه وأمه - والداه - عندما يتنبأ ، ويكون فى ذلك اليوم أن الأنبياء يخزون كل واحد من رؤياه إذا تنبأ ، ولا يلبسون ثوب شعر لأجل الغش ، بل يقول : لست أنا نبيًا أنا إنسان فالح الأرض لأن إنسانا اقتنانى من صباى ، فيقول له : ما هذه الجروح في يديك ؟ فيقول : هى التى جرحت بها فى بيت أحبائى » .

ويحدث أحيانا أن يتصدى الكاهن للنبى حماية لعرش الملك كما فعل الكاهن أمصيا حين وبخ النبى عاموس وأنذره بالرحيل من بيت إيل :
« فأرسل أمصيا كاهن بين إيل إلى يربعام ملك إسرائيل قائلاً : قد فتن عليك عاموس فى وسط بيت إسرائيل لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله . لأنه هذا قال عاموس : يموت يربعام بالسيف ويسبى إسرائيل عن أرضه ، فقال أمصيا لعاموس : أيها الرائى إذهب . اهرب إلى أرض يهوذا وكل هناك خبزا ، وهناك تنبأ . وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك ، وبيت الملك .

« فأجاب عاموس وقال لأمصيا ، لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبى ، بل أنا راع وجانى جميزة فأخذنى الرب من وراء الضأن ، وقال لى الرب إذهب تنبأ لشعبى إسرائيل » .

وقد ينقسم الكهان والأنبياء إلى معسكرين عند الاختلاف على ولاية العهد ، كما حدث عندما وثب (أدونيا) بن داود لاغتصاب العرش .. :

« وأعد لنفسه عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون أمامه ، ولم يغضبه أبوه قط قائلا : لم فعلت هذا وهو أيضا جميل الصورة جدا . وكان كلامه مع .. أبياثار الكاهن وأما ناثان النبى .. فلم يدعه » .

وحدث فى أوقات شتى أن مساومة السياسة وصلت إلى الإيمان بالاله المختار ، فترك الملوك عبادته وعبدوا (البعل) وصنعوا له التماثيل ، فتزوج آخاب ملك إسرائيل بنت ملك صيدا « وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه في السامرة » .

وحدث هذا من أحد أبناء داود . فلم يستقم آحاز في عينى الرب كداود أبيه « بل سار فى طريق ملوك إسرائيل وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعليم »[1] .

وكان النبى أرميا ينعى علي الأنبياء أنهم يتواطئون علي نسيان اسم الاله « كما نسى آباؤهم اسمى لأجل البعل » . واستمرت هذه المساومات إلى عهد النبى هوشع الذى تخيل أمة إسرائيل مزفوفة إلى (يهوا) لا تدعوه باسم البعل وتنزع أسماء البعليم من فمها .

حدث هذا بين بنى إسرائيل ولم يطل بهم عهد الملك والاستقرار ولم يزل أكثرهم رعاة يتنقلون فى البادية ، ولم يزل من هؤلاء الرعاة أناس يجهرون بالنبوة بين حين وحين ، فليست دعوة النبوة بالدعوة التى تشيع وتجتذب إليها الإسماع في مواطن الحضارة القديمة بعد استقرار العمران فيها بعاداته وآفاته مئات السنين أو ألوف السنين ، وليس بالنادر فى هذه

(١) الإصحاح السادس عشر من سفر الملوك الأول .

المواطن أن يعلم الكهان حقيقة الوحدانية ويتركوا الشعب وشأنه يعبد الأصنام والأرباب المتعددة ويتخذ له فى كل إقليم ربا مقصورا عليه ويستبقون إله الدولة الأكبر لمراسم الدولة الكبرى فى الأعياد والمواكب التى يشهدها أصحاب التيجان ورؤساء الكهان .

وإذا شاع الفساد في مواطن الحضارة ، فالمسألة فى هذه الحالة مسألة تشريع وقانون أو مسألة تنظيم وتدبير ، وربما حالت ألفة العادات الفاسدة دون التنبه لإصلاحها بالتشريع أو بالتنظيم .

وأوضح الأمثلة على موقف الحضارة بالنسبة للدعوات الدينية هو مثل الملك أخناتون بالديار المصرية . فإن دعوة أخناتون بلغت بالتوحيد أعلى مرتقاه فى تلك العصور ، وبلغت بتنزيه الإله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الأمم فى البلاد الشرقية أو الغربية ، ولكنها دعوة جاءت من طريق الأوامر والقوانين ولم تلبث أن ذهبت بذهاب الملك الذى أصدر تلك الأوامر والقوانين ثم عادت الحضارة إلى مجراها كأنها لم تنحرف عنه فى عهد الملك الراحل طرفة عين .

فليست بلاد العمران المتصل مهدا صالحا للرسالة والنبوة ، فما حال الصحراء التى انقطع ما بينها وبين العمران كل الانقطاع ؟

ألم يكن شأنها فى أمر الرسالة النبوية شأن العمران المتصل فما هو بأصلح منه ولا أيسر .

فليس فى الصحراء التى انقطع ما بينها وبين العمران من شريعة غير شريعة العدوان ، ولا عمل للقبائل فيها غير الإغارة والاستعداد لدفع

الغارات من الآخرين . وربما تفاهموا على آداب الجوار والمهادنة كأنها من التدبيرات العملية التى لا ترتقى إلى طبقة الفضيلة والعقيدة ، وربما تحلى بعض الناس فيها بمناقب الشجاعة والسخاء وما إليها من مناقب الميادين وشمائل السيادة والرئاسة . أما أن يتعارف المقاتلون المنقطعون عن العمران علي الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والاستقامة التى ينشرونها باسم الاله ويستمعون وحيها من نذر السماء فذلك من وراء التخيل فضلا عن التفكير .

وقد عرفت في البداوة حالات قريبة من عقيدة التوحيد ولكنها لم تعرف حتى كان أصحابها معروفين لأهل العمران في المدن المجاورة ، ولولا ذلك لما اتصل خبرها بالتاريخ .

فحالة البداوة التي ترشح أصحابها لعقيدة التوحيد هي حالة البدوى المترقى من عبادة الجن والعفاريت الذين ينتشرون فى كل موطن إلى عبادة رب كريم يرعاه حيث سار وحيث أقام ، فهذه الحالة من البداوة ترشح صاحبها للإيمان بالاله الموجود فى كل مكان . لأن الإيمان بإله « محلى » محصور فى مكان واحد عبث ينفر منه طبعه ولا يلائم مطالب عيشه ، ولا يتكفل له بالأمان الذى يتطلع إليه فى حله وترحاله ..

وكثير من أهل البادية الأقدمين من يجمعون بين عقيدة التوحيد وبين الوثنية على نحو يوافقهم فى حالتى المقام والمسير فيتخذون لهم تماثيل يحملونها معهم ويرمزون بها إلى الاله ، وقد بقيت هذه التماثيل عند قبائل بنى إسرائيل إلى ما بعد أيام داود عليه السلام ، وهى التماثيل التى كانوا يسمونها بالطرافين ويقتنيها أصحاب كل بيت كما يقتنون اللوازم المنزلية .

ولكن هذا التوحيد كتوحيد أهل الحضارة الذى تقدم ذكره – كلاهما لا يخلق الجو الذى يلائم الرسالة النبوية ، ولابد لهذا الجو من شىء يأخذه من البداوة وشىء يأخذه من الحضارة ، ولم يتحقق ذلك فى غير مدينة القافلة وما إليها .

لابد من النخوة الحية التى تتوقد بما تعتقد وتحس فى أعماقها أن العقيدة حياة تحياها وليس قصاراها أنها تدبير من المجتمع أو قانون من الدولة .

لابد من بساطة التصديق الذى لا يعرف التردد ولا يحسن اللف والدوران وتخرج الكلمات وتزييف الشعائر والأحكام .

لابد من الاستغراق فى الإيمان على وجهة واحدة لا تتحمل ولا تتأول ولا تجعل العقيدة أجزاء مفرقة تتوزعها النصوص والفتاوى وتتعاورها المتون والشروح .

لابد من الجمع بين سهولة التغيير وصعوبة التغيير فى وقت واحد ، وهذه خصلة تتيسر للبداوة ولا تتيسر فى الحضارة ، فليس أكثر من التغيير فى حياة البدوى لأنه أبدا على عزم السفر والانتقال ، وليس أكثر من الثبات فى حياة البدوى لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ينوط الفخر كله بما بقى له من التراث القديم .

وهذه هى حصة البداوة في تهيئة الجو للرسالة النبوية .

أما حصة الحضارة فهى أصول الاستقرار وقواعد الشريعة وحماية المعاملة وأسباب السخط والثورة والدعوة إلى التغيير .

وهذه الأسباب موفورة في مدينة القافلة من جوانبها الحسنة ومن جوانبها السيئة على سواء ، وعندها حصتها وافية لقيام الدعوة النبوية فى زمان بعد زمان .

فمن الأسباب الحسنة التى تهيأت بها مدينة القوافل للرسالة النبوية « شقة الحرام » أو الحرام المقدس ، أى المكان الذى تبطل فيه العداوات ويتلاقى فيه الناس من كل ملة ونحلة على سلام .

فهذا الحرم المأمون من مأثورات المدائن المطروقة بحكم موقعها وتشعب الموارد منها وإليها .

وقديما نشأت مدائن كهذه بين دولتين متناظرتين على عداء دائم لا يهدأ إلا فى تلك المدائن المطروقة ، كمدينة تدمر أو بعلبك في موقعها يين دولة القياصرة من الغرب ودولة الأكاسرة من الشرق ، ويتبع هؤلاء وهؤلاء إخلاط من كل قوم وكل لغة وكل عقيدة ، وبينهم ما لابد أن يكون بين هذه الإخلاط من التنافر أو من الخصومة أو من التراث والدخول أو من التزاحم فى المصالح والتجارات . فإن لم يكن هنالك ملاذ يأمنه الجميع وحرم يتسع لعبادة كل عابد وولاء كل حاكم ، تقطعت العلاقات وأحجم الوارد وبارت التجارة وكسدت الأسواق .

ومن المدائن ما يقوم فى أمة واحدة متفرقة القبائل والبطون يتربص بعضها لبعض فى كل موقع وكل موسم ، ولا غنى لها عن موقع واحد فى موسم معلوم تنسى فيه هذه الفوارق ويتلاقى الناس فيه للمعاملة والمعاونة لا للقتال والانتقام .

فهذه الشقة الحرام إحدى الأسباب الحسنة التى تتهيأ بها المدائن على حافة الصحراء لرعاية الحرمات وفهم القداسة فى البيع والمناسك ، وكفى بكلمة « البيعة » نفسها دليلا علي فضل المدائن المطروقة فى رعاية حرم العبادة من أقدم العصور ، وكفى بكلمة « الاحترام » دليلا على الصلة بين هذه المحرمات وبين شعور التوقير والرعاية .

ومن الأسباب الحسنة تقرير الحقوق وإقامة القواعد فى المعاملات وتواضع المختلفين والمؤتلفين على مبادىء الأخذ والعطاء والذمة والوفاء ، وعمل الحاضر للغائب والقريب للبعيد على ثقة واطمئنان .

وليس فى وسع أحد أن يزعم أن الحقوق والقواعد التى يتعارف عليها الناس فى مدن القوافل تصان فى كل صفقة وتحفظ فى كل علاقة . فقد يكون الغش فيها أكثر من الصدق ، والخداع فيها أكثر من الأمانة ، ولكنها على أسوأ الأحوال ملزمة للمشتركين فيها لا يجترىء القوى على الجهر بنكرانها والعدوان عليها ، سواء كان العدوان على قوى مثله أو على ضعيف غير مرهوب الذمار .

ومن الأمثلة التاريخية على ذلك حرب الفجار وحلف الفضول فى مكة المكرمة ، وهى من أكبر مدن القوافل ومن أعظم النماذج لها فى جميع ما ذكرناه .

ففى حرب الفجار أجار زعيم من هوازن قافلة للنعمان بن المنذر على غير العرف المتفق عليه ، اعتزازا بعزته ومنعته ومكانة النعمان بن المنذر فى الأمم العربية ، فهاجت لها حرب استمات فيها الفريقان حتى شد بعضهم نفسه بالحبال لكيلا يفر من القتال .

وفى حلف الفضول كان سبب الحلف أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائل وحبس عنه حقه فاستعان عليه الزبيدى جماعة من الرؤساء فلم يعينوه ، فوقف الرجل على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس وصاح يطلب الغوث ، فمن جراء ذلك اجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار ابن جدعان فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ثم مشوا إلى العاصى ابن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه ، وقال أحدهم :

سيعلم من حوالى البيت أنا

أباه الضيم نمنع كل عار

وقال ابن قتيبة أن قريشا قد سبقها إلى مثل هذا الحلف قبيلة جرهم ، فتحالف منهم ثلاثة هم الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة وفضيل بن الحارث ، فسمى لهذا حلف الفضول وجاءت قريش فسمت حلفها بهذا الاسم لأنه مقصود لما قصده الأحلاف الأولون .

وليس بالقليل ما تعلمته الأمم من إقامة « الحوزة » التى يدين لها الجميع بالرعاية ويتعودون عندها أن يجعلوا الذمم والعهود فى حماية الإله المعبود ، ومن الجائز أن تعدد الأرباب وتناقص الدعاوى فى موطن واحد يجاور فيه كل دين ، نقيضه ، قد فتح الأعين على ما وراء ذلك من السخرية والتهافت ، ولاسيما أعين الطارئين العابرين من أهل البادية الدارجين على البساطة واجتناب المتناقضات .

أما الأسباب السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب قوية كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة .

وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال . فإن تجارة العالم إذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت في كل مدينة إلى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المماكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور علي الرحال والمطايا وجند الحراسة ، ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ، ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام ، وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم إلا بالاشتباك فى الحرب مع دولة أخرى ، أو بانفاق أموال فى الغزو والحصار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها ، وقد يغلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول إلي المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات .

كذلك صنع أنتيجون خليفة الإسكندر مع أهم هذه المدن فى زمانه وهى سلع (أو البتراء) فجرد عليها حملتين ولم يفلح فى غزوها ، وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها إلى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار .

واشتهرت سدوم بين هذه المدن بالظلم وسوء المعاملة وسلب الغرباء وتدليس القضاء ، وفى قضائها يقول المعرى :

وأى امــرىء فى الناس ألفى قــاضــيــا

ولم يمض أحكامـــا كـــحكم ســـدوم

ومن أمثلة هذا القضاء فى احتياله على الشريعة أن رجلا اسمه حضور رأى طارئا غريبا أعجبه فى رحله بساط ملون فدعاه إلى منزله ليبيت فيه وسرق منه البساط ، فلما طلبه الرجل قال له إنك حالم ، وأن تفسير البساط الملون فى الرؤيا أنك تزرع أرضا ينمو فيها النبت من كل لون ، ثم ساقه إلى القاضى ليعطيه أجره على تفسير رؤياه ، فقضى له بالأجر المطلوب .

ومن أمثلتها أنهم سرقوا اليعازر خادم إبراهيم عليه السلام ، فلما أخذ بتلابيبهم ضربوه ورماه أحدهم بحجر وساقه إلى القاضى يطلب منه أجره على فصده ولم يخلصه من حكم القاضى إلا أنه ضربه بحجر وأسال دمه ثم قال له إننى نزلت عن أجرى كى تعطيه لغريمى !

وفى المشنا أسماء يزعمون أن اليعازر هذا أطلقها على قضاة سدوم وهى شقارة أى الكاذب ، وشقرورة أى المحتال ، وكذبان أى المزور ، ومضل دين أى المتجانف فى دينونته وقضائه ، وليس أكثر من حكايات التدليس التى تروى عنهم فى كتب المشنا والمدراش .

ولا ينسى القارىء أن الجريمة الكبرى التى أحصاها القرآن الكريم علي أهل مدين – ومدائن الحجر عامة – أنهم يختلسون ويطففون الكيل :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ

أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٨٥) ﴾ [هود : ٨٤، ٨٥]

ولا يلبث الترف أن يجنى جنايته على هؤلاء المحتكرين فيغريهم بكل مفسدة ويجلب إلى بلادهم كل فاسد ، وشر هذه المفاسد فى أعين أبناء الفطرة من قبائل البادية رذائل الشذوذ وتدنيس غريزة النسل التى تصونها تلك القبائل على فطرتها ، ولم توجد مدينة من مدائن القوافل سلمت من هذه الرذائل ، حتى قالت كتب المدراش أن طوفان نوح إنما كان من جرائر هذا الشذوذ فى قومه ، وأنه كان فاشيا فى بيت المقدس يوم أنذر النبى حزقيال قومه بالنفى أو بالسبى والتشريد[١] .

هذه الأسباب جميعا هي التى هيأت مدن القوافل للدعوات الدينية ، لأنها دعوة تتهيأ أسبابها بين الحاضرة والبادية ولابد لها من التقاء هذه وتلك ، ولا غنى لها عن صفات المدينة وصفات الصحراء . ولحكمة بالغة قال النبى صلوات الله عليه : « ما من نبى إلا وقد رعى الغنم » .. ولحكمة بالغة قامت مدينة القوافل بدورها في تاريخ بنى الإنسان . فنشأ الحكماء والنساك فى الصين والهند على مثال كنفشيوس وبوذا ولم ينشأ فيهم الأنبياء المرسلون والرسل المجاهدون . إذ كانت أمانة النبوة المجاهدة شيئا غير أمانة الإصلاح والتعليم ، وما عهدنا سورة العقيدة تملأ الوجدان كله وتشغل الحياة كلها كما عهدناها في المرسلين إلى الأقوام الذين عاشوا علي هذه الرقعة الوسطى من العالم ، وتلقوا عقائدهم كأنهم يصلون

---

(١) صفحة ٢٤٦ من المجلد الأول وصفحة ٤٢٠ من المجلد السادس من أساطير اليهود .

الأرض بالسماء صلة الحكم والدم ، ولا يحسبونها سمة من سمات الأدب والمعرفة وكفى ، أو نصا من نصوص الشريعة والنظام وحسب ، أو نهجا من مناهج السلوك ولا زيادة .

واحسب لو أننا بدأنا دراسة التواريخ الدينية في الشرق العربى على ضوء هذه الحقيقة منذ بداءة النظر في هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفى والإنكار تارة والفهاهة وسوء الفهم تارة أخرى ، بل كان من الميسور لهم أن يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة ، وأن يملأوا فراغ التاريخ بما يسده ، بدلا من خلق الفراغ حيث لا فراغ .

إن بعض الفلكيين قد عرفوا أماكن الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكبرة ، لأنهم قدروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والإحجام .

وقد عرف بعض الكيميين أماكن عناصر لم يشهدوها فى الطبيعة ، لأنهم قدروا نسبة الكهارب والنواة فيها إلى العناصر المشهودة .

ولو أننا تتبعنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : إن إبراهيم لم يوجد .. بل لقالوا : هنا مكان لإبراهيم لابد أن يشغل ، واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها أن يربطوا بين أور وأشور وبيت المقدس وجاشان والبتراء ومكة ، لأنها نسق واحد يدل الأخير منه على الأول كما يتقدم منه فى زمانه ووضعه على الأخير ... فكلها دعوات لابد فيها من شخص الرسول ولابد فيها من عنصرى

الحضارة والبداوة ، ولابد فيها من تمام المجزوء ووصل المقطوع واطراد مراحل التطور على نهجه الوحيد ، وليس له نهج وحيد أصلح من نهجه الذى هيأته أسباب الدعوات موقعا بعد موقع ، كما تعينت مواقع الكواكب فى دراسة الفلك ومواقع العناصر فى دراسة الكيمياء .

أو لعلنا نصل إلى النتيجة من درب قريب إذا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقياسه الذى لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يرسمها الواقع والعقل . فإن هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية فى التمييز بين الخطأ والصواب ، وما علينا إذا أردنا أن نمتحن حادثة التاريخية أو سلسلة من الحوادث التاريخية ، إلا أن نسأل أنفسنا : كيف ينبغى أن تحدث ؟ فإذا ارتسمت لنا على الترتيب الذى يقبله العقل ويطابق الواقع فذلك هو الامتحان الصادق وما نستخلصه منه هو الصواب كأصدق ما يمكن أن يصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدها شهادة العيان .

إذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدائن القوافل فليس أولى من بلاد النهرين فى العصر القديم أن تبدأ منها الدعوة الأولى ثم تتلوها الأخرى على حسب مكانتها ومكانها من حيث النظر إلى الطرق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة .

فالدول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذى اشتهر فى علم السياسة باسم نظام « حكومات المدائن » لأنه يقوم على مدن أربع أو خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التى تزرع مرعاها أو ترعى ماشيتها فى المزارع الطبيعية وتسافر بالقوافل على حسب

مراحلها ، ويجوز أن تتغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن إلى فترة قصيرة كما يجوز أن تتفرق وأن تنفرد كل منها بحكومتها ، ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور إلى أقصاه في الأزمنة القديمة .

وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها في وادى النهرين ، وفى العالم كله : يبدأ من مدينة (أور) في الجنوب وينتهى إلى مدينة أشور شمالا ، ثم يتجه غربا وجنوبا إلى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز ، حيث تلتقى قوافل الشمال وقوافل الجنوب فمدينة (أور) أهم هذه المدائن لأنها تتلقى التجارة من البحر ومن البر وتنقلها من الشرق إلي الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، كما تنقلها من الشرق إلي الغرب ومن الغرب إلي الشرق ، كما تنقلها بين الجنوب والشمال .

ويليها فى مكانها ومكانتها مدينة أشور لأنها تأخذ من الجنوب وتوزع على ما حولها ، وقد تصل قوافلها إلى أقصى الشمال من القارة الأوروبية كما تصل إلى آسيا الصغرى وأوربة الشرقية .

وفي مدينة (أور) بدأت دعوة إبراهيم ، وإلى مدينة (أشور) انتقلت ولم يطل بها القرار فى هذه النقلة العاجلة .

وهنا كان مبدأ الدعوة النبوية التى لم يكن لها نظير فى غير هذه البقاع من أوطان الأمم العربية الأولى .

ويطرد الترتيب بزمانه كما يطرد بمكانه ، فمن أشور إلى حبرون أو بيت المقدس ، إلى مدن خليج العقبة إلي مدينة الحجاز المقدسة ، وعندها نهاية المطاف .

جاء في تاريخ مكة قبل أيام إسماعيل أن مضاض بن عمرو كان يعشر (أى يفرض ضريبة العشر) على من دخل مكة من شمالها ، وأن السميدع كان يعشر على من دخل مكة من أسفلها ، وجاء في العهد القديم أن الخليل قدم العشر لصاحب بيت المقدس (ملكى صادق) لأنه سادن الإله العلى فى محرابها الأعلى .

نظام واحد في مدن القوافل يدل عليه هذان التاريخان المنفصلان .

وتتوالى الدعوات النبوية بعد ذلك علي حسب المكانة بين مدن القوافل ، وعلى حسب المكان من بقاع الهلال الخصيب والجزيرة العربية .

فلما بدأ تاريخ الدعوة النبوية من أور إلى أشور إلى بيت المقدس إلى مدن الجنوب ، كانت هذه المدن الجنوبية على غايتها من الازدهار وعلى غايتها من الفساد ، وكان لها دورها الذى انتهى بكوارث الزلازل أو الهزيمة .

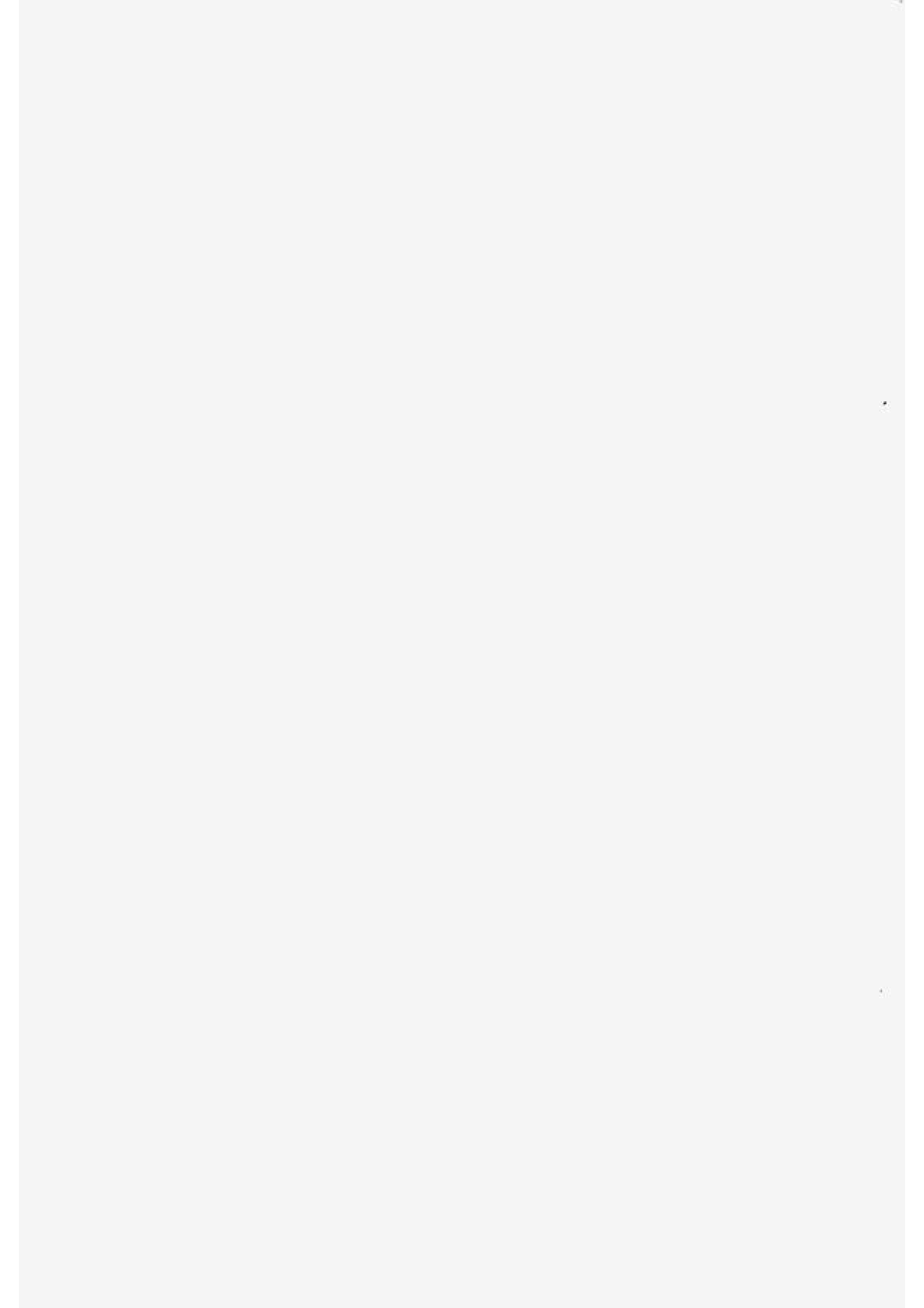
وبقيت شواهدها فى خرائبها تنطق بما كان بينها من صلات ومعاملات : ففى البتراء محاريب الحجارة السود التى تساقطت من السماء ، وفيها هيكل البنت أو الربة المصرية « إيزيس » .. وما إيزيس ؟ أتكون هى العزة التى عبدت زمنا فى الجنوب ؟

تكون أو لا تكون ، فالرواة الذين أرخوا ظهور الأصنام فى الكعبة المقدسة بمكة لم يدرسوا الآثار المصرية ولم يدرسوا الأحافير التى درسها المصريون فى القرن العشرين ولكنهم أرّخوا الأصنام فقالوا : إن سيد مكة فى زمانه [عمر بن لحى] سافر إلى الشام وعاد منها بطائفة من

الأصنام ، وأن أبناء إسماعيل بالحجاز تعودوا عبادة الأنصاب لأنهم كانوا يحملون معهم الحجارة المقدسة للتبرك بها كلما ابتعدوا عن الحرم ، ثم انتقلوا من التبرك بها إلى عبادتها مع طول الزمن ، وكانت روايتهم هذه مصدقة لما فعله اتباع إبراهيم وموسى وسائر الأنبياء في الأماكن الأخرى ، فهكذا تحولوا من عبادة الإله الواحد إلى عبادة الأنصاب والتعاويذ والتماثيل والطرافين .

وسواء صح هذا كله أو لم يصح ، فالصحيح الذى لا شك فيه أن الصلة الدينية والثقافية واللغوية والتجارية لم تنقطع قط بين النبطيين والمكيين .. وأننا لو سلكنا التاريخ الدينى طردا وعكسا ، ثم سلكناه عكسا وطردا لما كان له من مسلك أقوم وأثبت من بدايته ونهايته بين (أور) في جنوب العراق ومكة فى وسط الحجاز !

وإذا كان التاريخ يرتسم على هذه الصورة معقولا وموافقا للواقع أو ما ينبغى أن يقع ، فلا يقع ، فلا وجه للشك فيه ، بل الوجه كل الوجه أن نلتمس من طريقه هذا أسباب اليقين .



النبــوة

عثر الباحثون فى آثار بابل وأشور على كلمات كثيرة فى الألواح المسمارية من مصطلحات علم الفلك القديم ، ومنها أسماء المنازل والبروج ومجاميع الكواكب والنجوم .

وأكثر الباحثين فى الآثار البابلية والأشورية معنيون بمباحث التوراة وتواريخ الأنبياء ، لعلاقتها بأرض بابل أيام الخليل ثم أيام السبى بعد عصر الخليل بأكثر من ألف سنة ، فهى علاقة تمتد من أقدم العصور الأثرية إلى أحدثها ، أى من قبل عصر الخليل إلى ما بعد عصر الميلاد .

فعاد الباحثون إلى كتب العهد القديم يعارضون عباراتها على الكلمات المسمارية ولاسيما الكلمات التى تطلق على الشئون السماوية ، فتوقفوا عند كلمات مختلفة كانوا يمرون بها ولا يلتفتون لمعنى فيها غير ظاهر معناها ، وعنّ لبعضهم أن بعض الأنبياء من العبرانيين كانوا على علم بالفلك ، وأن النصوص التى كُتبت بها نبوءاتهم تثبت علمهم به على نحو قاطع أو على ترجيح يقرب من اليقين .

وليس لإبراهيم كما هو معلوم نصوص محفوظة منسوبة إليه بألفاظها ، فرجعوا إلى أقدم النصوص المنسوبة إلى الأنبياء بعد إبراهيم ، وهى نبوءات يعقوب فعارضوها على معلوماتهم من اللغة المسمارية ، واختاروا منها ما كان من قبيل الطوالع الفلكية وهى الطوالع التى احتواها الإصحاح التاسع والأربعون من سفر التكوين ، وفيها ينبىء يعقوب أبناءه بما يصيبهم فى آخر الأيام ، فتراءى لهم أن التوافق بين ألفاظها ومنازل

السماء أوضح من أن يعزى إلى المصادفة ، وهذا هو الإصحاح الذى وجهوا إليه معظم البحث فى كلام يعقوب :

« ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يا بنى يعقوب وأصغوا إلى إسرائيل أبيكم .

« راوبين أنت بكرى ، قوتى وأول قدرتى ، فضل الرفعة وفضل العز . فائرا كالماء لا تتفضل ...

« شمعون ولاوى أخوان ، آلات ظلم سيوفهما ، فى مجلسهما لا تدخل نفسى .. بمجمعهما لا تتحد كرامتى . لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا .

« يهوذا إياك يحمد أخوتك .. يهوذا جرو أسد .. جثا وربض كأسد وكلبوة ، من ينهضه ، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب ، رابطا بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه ، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه .

« زبولون عند ساحل البحر يسكن ..

« يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر ...

« دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل ، يكون دان حية على الطريق .. يلسع عقبى الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء .

« جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره .

« أشير خبزه سمين وهو يعطى لذات ملوك .

« نفتالى إيله مسبية يعطى أقوالا حسنة .

« يوسف غصن شجرة مثمرة على عين ... فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام ، ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعيد يديه ...

« بنيـامين ذئب يفتـرس فى الصـباح يأكل غنيـمة وعند المسـاء يقسـم نهبا ... » .

* * *

هذه الطوالع درست باستفاضة وتدقيق وكتب خلاصة درسها الأستاذ أريك بروز فى كتابة طوالع يعقوب وبلعام(١) فانتهى منها إلى وحدة بين كل اسم من أسماء الاسباط وبين برج من أبراج السماء .

فراوبين الفائر كالماء يقابل برج الدلو ، وقد جاء في مدراش التكوين أن أباه قال له : جعلت نفسك دلوا ، وبرج الدلو فى منطقة البروج على صورة إنسـان قائم باسط يديه وآخذ بإحداهما كوزا مقلوبا ليسكب منه الماء ، وفى الكلمة جناس بين كلمة راب بمعنى نام واسم روابين .

وشمعون ولاوى إخوان ، طالع يشير إلى برج التوأمين ، وهو برج إله الحرب زجال عند البابليين ويصورون أحدهما وفى يديه خنجر والآخر فى يديه سـلاح شبـيه بالمنجل ، وإلى هذا تشيـر كلمـة آلات الظلم التى فى سيوفهما ، وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان فى السماء كأنهما يطاردانه ويعرقبان رجليه .

---

(١) The Oracles of Jacob and Balaam by Eric Buirows

ويهوذا ... ربض كأسد وكلبوة . إشارة إلى برج الأسد . وقد كان عند البابليين برجان : أحدهما برج الأسد أرجولا والثانى أرماح وهو أحد نجوم الدب الأكبر ، وأمام الأسد فى البروج علامة الملك Seonis Rougulus ... وإلى هذا يشار بالقضيب الذى تخضع له ملوك .

وزبولون عند ساحل البحر يسكن . إشارة إلى برج الحوت ، وكان عند البابليين على صورة أصبعين منفصلتين إحداهما ترمز إلى الدجلة Diglat والأخرى إلى الفرات Purattu .

ويساكر إشارة إلى برج اليحمور « حمار جسيم رابض بين الحظائر » .. ويلفت الباحثون النظر إلى التشابه بين اللون الأشقر وبين يشاكر أو يساكر ، وإلى ورود اليحمور بمعنى حمار الوحش ومعنى الظبى فى اللغة العربية .

ودان .. حية على الطريق يلسع عقبى الفرس ، والمراد صورة الحية الشمالية أو عنق الحية ، وموقعه إلى شمال برج العقرب .

أما قوله « يلسع عقبى الفرس » فالإشارة فيه إلى النعائم الصادرة Sagittaru وصورتها كالسنتاوْر الذى له جسم فرس ورأس إنسان ، ويضعون السلاح على مقدمه وعلى مؤخره ، وقد يكون فى هذا تفسير طالع (جاد) الذى يأتى بعد « دان » ويزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره .

وأشير طعامه سمين ، والكلمة العبرية (لحم) تنصرف إلى برج السرطان وإلى جانبه علامة الملك ، ومن ثم يعطى لذات ملوك .

وعلى هذا النمط يمضى علماء الأحافير فى تفسير هذه الطوالع ، ومن تفسيراتهم ما هو قريب ومنها وما هو بعيد معتسف ، لارتباط الجناس اللفظى تارة بمدلول الفلك وتارة بمدلول النسب والتاريخ .

وقد صنعوا مثل ذلك فى دراسة طوالع بلعام كما جاءت فى الإصحاح الثالث والعشرين وما بعده من سفر العدد ، وقد اشتملت على تكرير عدد السبعة ، وعلى اسم الثور والحمل والظبى والأسد ، وعلى طوالع الأمم التى ليست من إسرائيل ، وعارضوا المصطلحات الفلكية على أقوال الأنبياء الآخرين ، وثبت على الأقل من هذه المعارضات أن معرفة الفلك كانت شائعة عند كتاب هذه الطوالع ، سواء كتبت على أيام الأنبياء الذين نسبت إليهم أو كتبت بعد أيامهم عندما تحقق بعض الطوالع أو بدا أنه متحقق عما قريب .

* * *

فإذا صحت هذه التخريجات - كلها أو بعضها - فهذا موضوع من الموضوعات التى تطابقت ، فيها الأحافير وزخبار التواريخ الأثرية والتواريخ القديمة ، إذ كانت التواريخ مجمعة على معرفة الأنبياء الأوائل بالنجوم ، وإن اختلفوا فى المقصود بعلم النجوم .

وندع المبالغات من قبيل مفاخر يوسيفوس ودعواه أن إبراهيم هو الذى علم أحبار المصريين أسرار الكواكب وحساب الفلك ، فليس الخبر كله فى هذه المسألة خبر تواريخ وروايات . لأن العقل يفرض بغير حاجة إلى التواريخ والروايات أن يكون رؤساء القبائل المترحلة على علم بمواقع النجوم ومطالع الأفق ومهاب الأنواء ، وقد كان الأنبياء الأوائل رؤساء

لقبـائلهم لا تبـرم هذه القبـائل أمرا من الرحلة والإقامـة إلا بمشـورتهم وتوجيـهـهـم ، ومـقـام الأنبـيـاء فى بـابل حـيث يرقب الناس الكواكب لأنهم يعـبـدونهـا ولأنهم يربطون مـواسـم الزرع والرى ، خليق أن يشـغلهم بـهـا للمحاجّة فى شئون العبادة وللنظر فى شئون المعاش .

وقد جاء فى القرآن الكريم أن إبراهيم كان يطلع على سحر الكهان ، فـمن مـوافـقـات الأحـافـيـر أنهـا تـأتى بالسند المكتـوب الذى يشـرح لنا تفصيلات هذه الأخبار ، ويكاد أن يعين لنا الوقت الذى كتبت فيه طوالع الأنبياء ، لأن تقسيم بروج الفلك قد مر فى أدوار متلاحقة من تاريخ بابل ، بعضها محدود على وجه التقريب .

والحد الفاصل بين النبوة والكهانة فى السلالة العربية مرسوم أو كأنه مرسوم ، فكان الأنبياء هم أول من تولى أمر الدين فى أمم السلالة العربية وكانوا يسوسون أمر الدنيا فيما تتطلبه الرئاسة ، ومنه علم النجوم .

ثم افترق عمل النبى وعمل الكاهن ، ووقع بينهمـا العداء أحيانا كمـا رأينا فى غير هذا الفصل ، فـأصبحت الكهانة وظيفة تعارض النبوة فى كثير من الأوقات .

وهنا الفرق الأعظم بين النبوة والكهانة .

فالكهانة وظيفة ، ولكن النبوة ليست بوظيفة ، ولم يحدث قط أن أحدا عين لعمل النبوة كما حدث كثيرا تعيين الكهان لعمل الكهانة .

إن النبوة التى تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر فى غيـر السـلالة العـربية ، فـمـا من ديانة كـبرى أو صـغرى فى أنحـاء العـالم إلا يسـتطيع

المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ إلى عمل الكهان ، وما من كهانة إلا وهى وظيفة قابلة للتعيين .

أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها فى غير السلالة العربية ، والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرى أن النبى لا يعينه أحد ولا ينبعث بأمر أحد ، ولكنه ينبعث بباعث واحد من وحى ضميره ووحى خالقه ، وقد يأتى ليصدم العبادات التى يقوم الكهان على شعائرها ومراسمها ، وهم أنفسهم مرسومون معينون .

والفرق بين النبى وبين الكاهن فى جوهر العمل أوسع جدا من الفرق بينهما فى التعيين والاختيار .

فالكاهن موكل بالشعائر والمراسم والأشكال ، ويحرص عليها ويأبى أن يشاركه أحد فيها .

ولكن النبى تعنيه روح الدين وحقيقته فى الضمير قبل هذه الشعائر والمراسم والأشكال .

سريرة الإنسان هى وجهة النبى وغايته من التبشير والإنذار ، وأما الكاهن فوجهته نظام المجتمع وتقاليد الدولة وما إليها من الظواهر أو الواجبات العامة .

ولم تخل الديانات الكبرى من أحبار معينين يوجبون على الناس الاستقامة ويحذرونهم من غضب الإله على الذين ينحرفون عن سبيلها .

ولكن الإله هنا أشبه برئيس الديوان الذى يجرى الأحكام وفقا للمأثور من نظام الدولة ، والكاهن أشبه بمندوبه وأمين سره فى المحاسبة على الشريعة : كلها مسألة نظام ومجتمع ، وكلها مراسم وتقاليد .

أما النبى فالعالم الذى يصوره لنا هو حيُّه ، والإله قائم على ذلك العالم لأنه على صلة قريبة بكل من فيه من خلقه ، وكل كائن من تلك الخلائق رهين برضاه وغضبه ، وذو شأن فى أن دعوة الدين مقدم على شأن المجتمع والدولة ، وأهمه وأصدقه ما كان فى الضمائر والنيات .

والنبى ذو شأن حى فى دعوته يَبْخَع نفسه ولا يريحه دون أن يبرىء منه ذمته .

وليس كذلك جماعة الكهان الذين لهم محل مستقر وعمل راتب وعلاقة بالناس كعلاقة المصالح والأشغال .

وهنا أيضًا نرجع إلى « القبيلة » ولا سيما القبيلة فى حالة الشعور بالخطر كائنا ما كان ، فضلا عن الخطر الأبدى الذى يحيق بالحياة وما بعد الحياة .

فلا ينتظر من المصلح أو المعلم أو الكاهن فى بلاد الحضارة والعمران أن تخامره نخوة اللحم والدم ، كما تخامر النفس التى تعودتها فى كل شعور وفى كل علاقة ، ولم تعرف حالة غيرها فيما بينها وبين الناس .

وإذا كان هذا الطابع ملازما لبعثات الرسالة حول مدن القوافل جميعا فقد عرفنا ما نفتقده إذا افتقدناه سرا من أسرارها ، وعرفنا كيف نتتبع آثارها إذا انقطعت الصلة بين سوابقها ولواحقها ، فلا نخبط على ضلال ، ولا نضيع البحث فى شكوك محيرة للسالك ، ولا موجب لها على هذا المهيع المسلوك .

أنبياء من غير بنى إسرائيل

كلمة النبى عربية لفظا ومعنى .

عربية لفظا ، لأن مادة النبأ والنبوءة أصيلة فى اللغة .

وعربية معنى ، لأن المعنى الذى تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى : فهى تجمع معانى الكشف والوحى والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير ، وهى معان متفوقة تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ، فالكشف مثلا تؤديه فى اللغة الإنجليزية كلمة Revelation والوحى تؤديه كلمة Iispiration واستطلاع الغيب تؤديه كلمة Divination أو Ora-cle ولا تجتمع كلها فى معنى النبوة كما تجتمع فى هذه الكلمة باللغة العربية .

وقد وجدت كلمة النبوة فى اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعانى الجديدة من الألفاظ القديمة .

فكلمة النبى تدل على معنى واحد لا تدل على غيره ، خلافا لأمثالها من الكلمات فى كثير من اللغات .

والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلع

على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار .

وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم : يثرون وبلعام وأيوب ، ومنهم من يقال إنه ظهر قبل إثنين وأربعين قرنا وهو أيوب .

وقصة بلعام تروى لنا ما حدث بين شيوخ مديان (مدين) بعد خروج بنى إسرائيل من مصر ، فإن بالاق ملك موآب قد استعان عليهم بالنبى بلعام من تخوم العراق ليبطل دعواهم باسم النبوة ويدحض أقوالهم بأقوال من قبيلها ، فجاء بلعام وحكم بتفضيل عبادة الله على عبادة بعل الذى كان يومئذ معبودا للموآبيين .

وأما يثرون فهو نبى مدين قبل خروج بنى إسرائيل من مصر ، ويظن بعض الشراح أنه هو شعيب المشار إليه فى القرآن ، ولعل شعيبا هو قريبه (هو باب) أو شوباب بمعنى محبوب الله .. وبين النطق العربى والنطق العبرى تقارب محسوس ، ومن شراح التوراة من يقول : إن « يثرون » لقب وليس باسم يدعى به نبى مدين ، فلا يبعد إذن أن يكون شعيب اسمه الذى لم يذكروه .

ومجمل القصة مع قصة بلعام يفيد أن النبوة كانت معهودة متكررة فى تلك الأرض قبل خروج بنى إسرائيل من مصر ، وأيام أن كان موسى سائحا فى الأرض لم يتلق الوحى ولم يرجع إلى مصر ليخرج بقومه منها ... أما أيوب فالرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات

وكشوف فى بلاد العرب « Alarms and Explration in Arabia يحسبه من أهل عمان ، وغيره يحسبه من أهل نجد ، وزمنه متباعد بين المؤرخين وشراح التوراة .

ومنهم من استعان بعلم الفلك على تحديد زمنه ، لأنه ذكر النعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب فى القبة السماوية ، وفى إشارته إلى عين الثور وقلب العقرب من منازل الفلك ما يفهم منه زمان تلك المقارنات على تقدير الفلكيين المحدثين ، وقد ذكر المفسر هالس Hales أن هذه المقارنات تجعل تاريخ أيوب قريبا من سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد .

ومما يقرب هذا التقدير ويدل على اتصال أيوب بالبلاد المصرية أنه ذكر الأهرام والمدافن التى يبنيها الملوك لأنفسهم ، ولكنه إذا لم يبلغ هذاالحد من القدم فلا شك عند جمهرة الشراح فى سبقه لعهد الخروج من مصر ، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التى دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهواه » فى صلب كتابه ، وإنما ورد فى المقدمة والذيل وهما مضافان بعد عصره كما هو راجع عند الشراح .

ولم تكن حجته قط فى الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والأسلاف ، وقد جاء فى مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء فى الجزيرة العربية ، وكلهم متفقون على أنه من أبنائها وأن اختلفوا فى مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

ومن جامعي التوراة من يضع سفره بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية من كتاب العهد القديم .

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ، ولكنه أشار إلى أقدم أدوات الكتابة كما هى معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر ، وليست طبعا على الطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذى كان يطبع فى البلاد الشرقية جميعا على نحو واحد .

أما العقيدة كما تفهم من سفره المجموع فى العهد القديم ، فغاية فى السمو والكرم والتنزيه .

أنه ينكر عبادة الشمس والقمر ، ويصف الله القدير بأنه أعلى من السماوات وأعمق من الهاوية وأعرض من البحر ، وسوى بين الحر والعبد قائلا : « أو ليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟ » ويحمد من الغنى أن يكون أبا للفقراء وأن تكتئب نفسه على المساكين ، وأن يبكى لمن عسر يومه، ويستعيذ بالله أن ينظر إنسان إلى امرأة غير امرأته وأن يطمع فى مال غير ماله .

وأجل من ذلك شأنا فى تاريخ العقيدة الدينية ، أنه كان أول من نص على البعث فى كتب العهد القديم ، وكانت تربيته الإلهية التى انتهى منها إلى هذه العقيدة تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الأقربين والأبناء ، وتدرج من القول بالزوال والعدم إلى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان فى أول السفر يقول : « الذى ينزل إلى الهاوية

لا يصعد » ويقول : « الإنسان يضطجع ولا يقوم » و « إذا مضت سنوات قليلة أسلك فى طريق لا أعود منها » ويتساءل : « إن مات رجل أفيحيا ؟ » ... ثم انتهى من هذه التجارب إلى الأمل فى خلود النفس ولقاء الله « فبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله » .

وعلى الجملة يبدو سفر أيوب غريبا فى وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بنى إسرائيل أن يجمعوا فى التوراة كتبا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه فى بقاع فلسطين الجنوبية محفوظا يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان ، ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فإنه عزاء صالح للمتعزين وعبرة صالحة للمعتبرين ، ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة فى مصر والشام ، ولا نعرف كتابا من كتب التوراة ظفر فى رأى النقاد الغربيين بالإعجاب الأدبى الذى ظفر به سفر أيوب ، فقال توماس كارليل عنه : إنه واحد من أجل الأشياء التى وعتها الكتابة ، وأنه أقدم المأثورات عن تلك القضية التى لا تنتهى .. قضية الإنسان والقدر والأساليب الإلهية معه على هذه الأرض ، ولا أحسب أن شيئا كتب مما يضارعه فى قيمته الأدبية » .

وقال فيكتور هيجو : « إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان » .

وقال شاف Schaff « أنه يرتفع كالهرم فى تاريخ الأدب بلا سابقة وبغير نظير » .

أما بلعام ويثرون فقد ذكر الأول فى كتب العهد القديم لأنه نصر بنى إسرائيل فى الخصومة بينهم وبين المؤابيين ، وذكر الثانى لما بينه وبين موسى من المصاهرة وما كان له من الفضل فى تعليمه نظام الحكم وسياسة القبائل ، وغيرهم ولا شك كثيرون لم يذكروا فى المراجع اليهودية إذ كانت هذه المناسبات لا تستوعب تاريخ البقاع بين تخوم العراق وتخوم العقبة وما وراءها من أرض الجنوب .

وهذا بعض القرائن على مكانة النبوة فى أرض الجنوب مما يلى سيناء والحجاز ، ومن القرائن الأخرى فى كتب العهدين القديم والجديد يفهم تردد أن تلك البقاع كانت وجهة الأنبياء فى كل عصر تحدثت عنه تلك الكتب . فإبراهيم توجه إلى جيرار وموسى توجه إلى مدين (مديان) وبولس الرسول قال فى كتاب غلاطيه : إنه ذهب إلى بلاد العرب قبل أن يأتى إلى دمشق ، ولم يفتأ بنو إسرائيل إلى عهد المسيح ينعون على الشمال أنه لا يخرج منه شيء حسن ، وينتظرون النبوءات من برية الجنوب .

ويجب أن يتأنى المؤرخ طويلا عند ملاحظة هذه القرائن المتعددة ، فهى فى تاريخ الخليل دليل على الوجهة التى يجب أن يبحث عنها المؤرخ إذا أراد البحث الصحيح عن مسلك الخليل فى أيامه الأخيرة ، فإنما يكون

مسلكه المعقول إلى طريق الجنوب ، ولا يعقل له مسلك إلى بيت المقدس يستقر عليه قراره ، فإن المصادر الإسرائيلية نفسها تقول : إنه كان غريب الدعوة والموطن فى حبرون ، وأنه اشترى مدفنه من الحيثيين ، وما لم تكن له دعوة ولا موطن فى الأرض ، فالجنوب الذى اتجه إليه ، واتجه إليه أصحاب الدعوات النبوية أحرى أن يكون قبلته ومرجعه ، وليس من الغريب أن تتعمد المصادر اليهودية إغفال هذه القبلة والتعلق ببيت المقدس بعد أن قام فيها عرش داود ، فإنها الدعوة التى يقومون بها ويسقطون بنفيها ، وفى ذلك وحده تفسير يغنى عن كل تفسير .

العقائد والشعائر

من الألف الثالثة إلى الألف الثانية قبل الميلاد ، أقام فى البلادالعربية أناس من أتباع كل عقيدة دينية عرفت فى تلك العصور .

وكان مركزها الأكبر فى بلاد النهرين ، حيث تتابعت الدول وتتابعت معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة .

عبدت فيها الكواكب ، وعبدت فيها الملوك ، وعبدت فيها قوى الطبيعة ، وعبدت فيها الأرباب العليا التى تعم عبادتها أرجاء الدولة ، وعبدت فيها الأرباب المحلية التى يدين بها أبناء كل إقليم على حدة ، ولا تشترك الأقاليم جميعا فى عبادتها .

وقامت الشعائر على اختلافها مع كل دين من هذه الأديان ، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين من غلات الزراعة فى مواسمها ، وعرفوا الصلوات فى الهياكل بقيادة الكهان ، كما عرفوا الصلوات فى البيوت أو فى المدافن الملحقة بها ، وعرفوا الديانات التى تؤمن بالروح والجسد ، كما عرفوا الديانات التى تؤمن بالجسد ولا تذكر شيئًا عن الروح ، أو التى تؤمن بأن الروح يلتصق بالأعضاء فلا ينتقل إلى العالم الآخر مادام فى الجسد بقية باقية .

ومنهم من كان يفهم أن العالم الآخر ناحية من هذا العالم الأرضى أو هاوية فى أعماقه ، ومن كان يفهم أنه آت بعد حين فى آخر الزمان .

وشوهد من الآثار والأحافير أن هذه الديانات تتغير كلما تغيرت الدولة القائمة فى مكانها ، فيقضى الدين الجديد على بعضها ويستبقى بعضا منها أو يحوله إلى صورة أخرى .

ومعظم هذه الشعائر والعبادات له علاقة بدعوة الخليل إبراهيم ، أما بالإقرار وإما بالإنكار والتحويل .

وسبيل الباحثين إلى تصفية هذه الشعائر والعبادات عسير ، بل جد عسير لاختلاط الأزمنة واختلاط الشعوب واختلاط البقايا فى العصر الواحد ، فلا ندرى على« التحقيق » ما كان من عقيدة هذا الفريق وما كان من عقيدة غيره ، ولا وسيلة إلى الجزم بالقديم منها والحديث .

ويصدق هذا على العقائد والشعائر التى يقبلها أناس ويستنكرها أناس آخرون ، ولكنه لا يصدق على العقائد والشعائر التى يمكن أن يقبلها أتباع العبادات المتناقضة فى وقت واحد ، كالحج وقد كان مفروضا فى الجاهلية وظل مفروضا فى الإسلام مع اختلاف العقيدة والحكمة فيه ، وكالقول عن أصل الخليقة وقد اتفقت فيه الأديان الكتابية على الجملة وظهر من الآثار والأحافير أنه كان من عقائد الأمم الغابرة قبل الأديان الكتابية ، وما لم يأت نص بالمخالفة فليس ما يمنع تعاقب الأديان على قول واحد فى هذه الأمور .

والمتواتر من سيرة الخليل إبراهيم أنه شهد عبادات الأقوام فى عصره من أرض النهــرين إلى وادى النيل ، وأنه تنقل بين أقطار تتناقض فى بعض العبادات وتتلاقى فى بعضها على اتفاق قريب أو بعيد ، فإذا نظرنا فيما أبقى وفيما ترك ، وعرضناه على المشهور من عبادات أولئك الأقوام فليس من العسير أن نستخلص رسالته عليه السلام وما فيها من الجديد والقديم ، ومن الوفاق أو الخلاف .

وحاصل ما يقال هنا قبل تلخيص العقائد والعبادات فى زمانه أن ظهوره عليه السلام قد كان ولا ريب على مفترق من الطرق يختلف فيه الجيلان فى البيت الواحد ، فضلا عن الملتين أو القطرين .

وهذه طائفة من العقائد والشعائر التى كانت لها علاقة بدعوته ، وينبغى النظر فيها قبل التصفية التى نخلص منها إلى بيان رسالته ورسالة الخالفين من بعده .

(١) قصة الخليقة

وجدت قصة الخليقة منقوشة بالخط المسمارى على الألواح التى عثر عليها المنقبون عند مدينة الموصل ، ونقلوها إلى المتحف البريطانى بلندن حيث تعاون المفسرون على تفسيرها ، وهذه خلاصتها :

« كان الأفق الأعلى لا يسمى بعد بالسماء ، وكان الأفق الأدنى لا يسمى بعد بالأرض ، ولما تفتح الهاوية ذراعيها .

« وكان الماء يغمرها جميعا ، وليس من إنسان ولا حيوان يجوس خلالها .

« وولد يومئذ أقدم الأرباب لخم ولاخامو .

« ثم ولد آشور وكيشور » .

ويلى هذا بعد كلام مفقود أو مطموس فى الألواح المكسورة كلام عن الخلق فى اليوم الرابع حيث صنع منازل لأعظم الأرباب ، وصنع بروج الفلك على صور الحيوان ، وقسم السنة إلى أربعة فصول ، وإلى اثنى عشر شهرا فى كل فصل منها ثلاثة أشهر ، وجعل فيها أيام المواسم والأعياد .

« وصنع للسيارات منازل تشرق فيها وتغرب ، ولا يصدم بعضها بعضا فى الطريق ، ووضعها مع منازل بعل وحى .

« وأقام لها مواصد على جوانبها ، واغلاقا على اليمين واليسار .

« وأقام فى الوسط نيرين . أقام القمر يسيطر على الليل ويسير فيه إلى مطلع الفجر ، وقدس فى كل شهر أياما ، ليبرز فى غرة الشهر قرنيه وينير أجواز السماء » .

ثم يلى هذا كلام ناقص عن اليوم السادس يتلى بعد اتمامه على الوجه الآتى :

« واجتمعت الأرباب وخلقت الوحوش والأنعام والدواب ، ومنها جماعة بيتى (أنا أشور السماء) .. وكانت فيه بهجة .

« والإله المشرف جعل فيها اثنين ... » .

* * *

وفى المتحف البريطانى لوح عليه صورة شجرة جلس إلى جانبها رجل وامرأة ، ووراء المرأة حية ، وقد بسطا ايديهما إلى ثمرتين بأسفل الأغصان . وفحوى قصة خلق الإنسان .. أن الإله مردوخ فاتح الإله (أيا) رب الماء العذب فأفضى إليه بأنه سيخلق الإنسان من دمه وعظمه ، وأمر حاشيته أن تضرب عنقه ليسيل دمه ، فنجم منه الإنسان ، ولم يمت الإله مردوخ لأن الإله لا يموت ، ولكن الإنسان قضى عليه بالموت بعد ذلك لأنه طمع بآماله إلى خلود كخلود الأرباب .

(٢) قصة الطوفان

وتؤلف قصة الطوفان البابلية من اثنى عشر فصلا على حسب البروج : وراوى القصة يسمى (اسدبار) وقد عبر بحر الموت ليصعد إلى السماء ويلقى زستور الذى ارتفع إليها بعد نجاته من الطوفان ، والباقى من ألواح هذه القصة فى المتحف البريطانى يحكيها على هذا المثال :

« ابن بيتا واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان ، واخزن البذور واخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة ، وليكن طولها ستمائة قدم فى ستين عرضا ... وتدخل السفينة وتحكم إغلاقها ، وتضع فى وسطها الحبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند ، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها ....

« .... وقال الله ليلا ! إنى سأرسل السماء مدرارا ، فادخل إلى جوف السفينة وأغلق عليك بابها ، وتغطى وجه الأرض وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء، ولم ينتظر أخ ، ولم يعرف جار جاره. ستة أيام وست ليال ، والريح تعصف والأنواء تطغى ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر وسكنت العاصفة التى ماجت كموج الزلزال . سكنت العاصفة وانحسر البحر وانتهى الطوفان ، وعج البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طينا وطفت أجسادهم على وجه الماء .

« ثم استوت السفينة على جبل نيزار .. وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد من مقر تهبط عليه ، فأرسلت عصفور السمانة فعاد وما هبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ،

ثم أطلقت الحيوانات فى الجهات الأربع ، وبنيت على رأس الجبل مذبحا فقربت لديه قربانا وفرقته فى آنية سبعة وفرشت حوله الريحان ، وشمت الأرباب رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعاظم الأرباب من بعيد ، وارتفعت أقواس السحاب تحييها عند اقترابها » .

وقد علم المنقبون أن هذه القصة منسوخة من مصدر قديم أقدم منها ، فهذه الألواح لا يقل تاريخها عن ألفين وخمسمائة سنة ، والمصدر الذى نقلت منه يرجع إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد .

وعلم المنقبون فى جميع آثار الأرض التى كشفت فى العالم القديم أو العالم الجديد أن قصة الطوفان عامة لا تنفرد بها الآثار البابلية ، ولايقل تاريخها فى القدم عن تاريخها فيما بعد .

(٣) عبادة الكواكب

ومن كلامهم عن الخليقة والطوفان نعلم أنهم كانوا يؤمنون بإله عظيم خلق الآلهة الصغار وقدر لها منازلها فى السماء .

وهذه الآلهة الصغار هى الأجرام العلوية ، وأشهرها القمر ، وقد عمت عبادته بلاد الساميين (أو العرب الأوائل) من وادى النهرين إلى سيناء ، ويسمونه سين ، ومنها أخذ اسم سيناء ، ولعله فى الأصل من مادة السنى والسناء .

وكان له اسم علم فى وادى النهرين هو (نانار) وهو الذى يتوجهون إليه بالعبادة ، وكان له مركز فى مدينة (أور) بلد الخليل إبراهيم ، ومركز فى شمال العراق ومعه هناك إله آخر يسمونه مردوخ ، أو المريخ .

وفى صلواتهم للقمر يقولون : « يارب . يا من قدرته الوهابة تمتد ما بين السماء والأرض ، ومن يجلب الغيوث والمواسم ، ويسهر على الأحياء ،

ومن يعظم السماء عالية وصيته ، ومن يعظم فى الأرض عالية وصيته ، ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية . مشيئتك أنت فى السماء مشرقة ، ونسألك أن تكشف لنا على الأرض ، فإن مشيئتك تطيل الحياة وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولا عجيبا ، وأنت تجرى العدل على قضاء الإنسان ، وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .. أنت رب الأرباب ما لك من شبيه ولا نظير .. » .

وكانوا منذ أقدم العصور على عهد السومريين (أو الشمريين) يرفعون الصروح لرصد الكواكب واستطلاع الطريق ، وهى الصروح التى يسمونها (زجرات) أو أماكن عالية ، ويعلل المؤرخون المنقبون ذلك بنشأة السومريين فى بلاد جبلية ، وأن الجبل والشرق والبلد يطلق عليها فى لغتهم اسم واحد وهو (كور) ومعناه فى العربية قريب من هذا المعنى ، لأنه يطلق على مجتمع القرى[1] وعلى العمامة وعلى الكارة التى تحمل على الرأس أو الكتف.

وكانت هياكلهم المبنية ترصد للأرباب السماوية ، وتنصب فيها التماثيل باسمائها ، ومن هنا عبادة الأصنام .

وأشهر الكواكب المعبودة بعد القمر كوكب الزهرة (عشتار) وكوكب المريخ (مردوخ) . وينسبون إلى الزهرة أنها ربة الحب لتألقها وزهوها

---

(١) الدول المدفونة تأليف باثريك كارلتوز

Buried Empires by PatrickLarleton .

وتقلب أحوالها ، وينسبون المريخ إلى أنه رب الحرب لاحمرار لونه كلون الدماء .

على أنهم عبدوا الشمس قديما باسم (شماش) وإن لم تكن عبادتها عامة بينهم كعموم عبادة القمر .

ويقول وولى Woolley فى كتابة عن إبراهيم . وهو من أشهر علماء الأحافير : « إن الإلهة كانوا عند السومريين على ما يظهر ثلاث طبقات : الإلهة العظيمة التى تخصص لها هياكل الدولة ، والآلهة التى دونها وهى التى تقام لها المعابد فى مسالك الطرق ، ودون ذلك آلهة الأسرة ، والأغلب على الآلهة العظيمة أنها كانت تشخص قوى الطبيعة كالشمس والقمر والماء والأرض والنار والبرق والنضال والخصب والموت ، وعندها تكمن جميع القوى ويكون التفوق بينها على حسب أحوال الربابنة المتعددة ، وقد كانت لها أقاليم تغلب العبادة لكل منها على إقليم ، ومن ثم لا يفرض الولاء الكامل له فى غير ذلك الإقليم . ففى أور عبادة نانار ، وفى أريكة عبادة أشتار ، وقد يتنازعان فتصبح كل قوة مشلولة من جراء ذلك النزاع .

« والآن وقد غلبت مدينة لارسا على إقليم الجنوب ، فقد أصبح شماش إله الشمس خليقا أن يبسط سلطانه على المدن الأخرى التى دخلت فى طاعته ، وأصبحت سطوة بابل مرادفة لسطوة مردوخ . ولم يكن فى السماء قرار ولا برهان إلا بمقدار ما فى الأرض بين البشر . كلا ولا كانت ثمة شريعة للأخلاق أرفع من شريعتهم » .

وقد كانت لهم حجةٌ إلى الشمال لاعتقادهم أنه مركز القطب الثابت ، ولكن التنازع بين دول الشمال ودول الجنوب حال دون الاتفاق على عبادته ، ويظهر أن الصابئين أو السابحين الذين ظلوا يعبدونه فى الجنوب بقيت نحلتهم فى مكانها على خلاف مع من حولها .

(٤) عبادة الملوك

وفى متحف أشمول[1] بانجلترا أسماء الأسر التى حكمت بابل من بعد الطوفان إلى أيام سراجون ، وقد جاء فى الألواح التى حفظت أسماءها أن الأسرة الأولى تولى منها الملك ثلاثة وعشرون ملكا وكانت مدة حكمهم جميعا أربعة وعشرين ألف سنة وخمسمائة وعشر سنوات ...

وكتَّاب الألواح مجمعون على أن الملوك الأوائل الذين حكموا بعد الطوفان قد هبطوا من السماء إلى الأرض لحكمها بعد أن طهرها الله وعاقبها على فسادها .

فهم أرباب سماويون تجب عبادتهم على الرعايا .

وأشهر من حكم منهم فى مدينة (أور) أورنامو Ur Nammu صاحب الصرح الشاهق الذى أقيم لعبادة القمر ، وله تمثال نقل إلى متحف بنسلفانيا بأمريكا .

وقد خلفه ابنه دنقى أو شلقى - على حسب اختلاف المنقبين فى أساليب ترتيب الحروف والنطق بها - وهو أحد العواهل السومريين الذين

---

(١) ينسب هذا المتحف إلى أشمول Ashmole الذى أهداه إلى جامعة أكسفورد سنة ١٦٧٧ .

فرضوا عبادتهم على جميع البلاد توحيدا للدولة ، وزوج بنته لأمير عيلام (غير بعيد من السليمانية فى بلاد الكرد فى العهد الحاضر) ليضم إليه الإمارات المجاورة ، واتخذ أصحاب الأقواس الطوال من جند أور ، وخرج بهم وبالفرق القوية من البلاد الأخرى إلى الشمال لغزوه والحاقه بدولته ، فامتدت مملكته من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال بوادى النهرين ، ويقدر المؤرخ المتخصص لهذه الحقبة (باتريك كارلتون) فى كتابه عن الدول المدفونة أنه تولى الملك سنة ٢٢٧٦ قبل الميلاد .

ولم يكن دنقى بالوحيد الذى فرض عبادته على البلاد كلها ، بل كان هذا شأن جميع الملوك الذين أخضعوها لسلطان واحد ، ومن لم يفلح فى إخضاعها قنع بالعبادة من رعاياه حيث ينفرد بالسطوة فى بعض الأقاليم ، أو قنع بالكهانة الأولى بين رؤساء الدين .

ولم يتعاقب على (أور) من هؤلاء العواهل كثيرون ، لأن العواهل الذين ضموا البلاد جميعا إلى دولتهم قلائل متناثرون بين الأزمنة المتباعدة ، ومنهم السومريون والأكاديون والبابليون .

إلا أن مدينة (أور) عرفت عبادات شتى غير عبادة القمر وعبادة العواهل ، ومن هذه العبادات عبادة الأسرة بدلا من الدولة ، شاعت مع ضعف الدولة وسقوط هيبتها وقلة الرغبة فى الإنفاق على الضحايا والقرابين التى تقدم على محاريبها فاكتفى الناس ببيوتهم يدفنون موتاهم فيها ويتقربون كلهم بمثل طعامهم وهم أحياء بين ظهرانيهم ، وقد كانت أعمال الحفر تبرز للمنقبين طبقة بعد طبقة من أعماق الأرض ومن أعماق

التاريخ فى وقت واحد ، ومن قيمة القربان تبدو قيمة الثقة بالأرباب أو تطور العبادة بين الماديات والمعانى الروحية .

(٥) الضحايا البشرية

وتدل الأحافير على قدم الضحايا البشرية فى العبادات التى سبقت عهد الساميين بوادى النهرين وبقاع الهلال الخصيب ، وأنها بقيت إلى ما بعد وفود الشعوب السامية إلى تلك البقاع .

وتدل الأحافير بمدينة (أور) على قدم تلك العادة فى عبادة الملوك خاصة إذ كان الملوك يدفنون ومعهم حاشيتهم ووزراؤهم ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل بالضرب العنيف ، ولهذا يعتقد (وولى) فى كتابه (أور الكلدانيين Ur of the chaldees أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقارا ساما يخدرهم ويميتهم ، لإيمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب إلى حالة فى السماء كحالتهم فى الحياة الأرضية .

ووجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعا يشبه رأس الحيوان ، والمظنون أن هذا الزى كان مقدمة للذبح الرمزى واجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس فى الاحتفالات العامة ولا سيما الاحتفال بعيد رأس السنة(١) .

---

(١) أصول الشعائر السامية الأولى تأليف هوك

Origins of Early Senitic Ritual by Hooke

ووجد فى حفائر (أور) تمثال جدى مربوط مقيد فى الشجرة ، لعله رمز لاستبدال الضحية الحيوانية بالضحية البشرية ، وتاريخه فى تقدير (وولى) سابق لعصر الخليل بألف وخمسمائة سنة .

ولكن الضحية البشرية بقيت إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ، ويتضح هذا من الإصحاح الثانى والعشرين فى سفر الخروج حيث حرم على بنى إسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا إلى الله ، ويتضح هذا أيضا من الإصحاح العشرين من سفر اللاويين حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطى ابنه قربانا للرب ملوك .

ومع هذا كان بعض امرائهم ينذر أبناءه ليحرقهم على المذبح قربانا إلى الله ، كما فعل يفتاح ونذر « نذرا للرب قائلا : إن دفعت بنى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة يكون للرب وأصعده محرقة[1] » .

ونعى عليهم النبى أرميا أنهم « بنوا مرتفعات .. ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار .. » .

(٦) الختان

وروى هيرودوت أبو التاريخ أنه سأل الفينيقيين والسوريين عن عادة الختان فقالوا : أنهم أخذوه من المصريين ، وأن المصريين كانون يتحرون به النظافة والطهارة .

---

(١) إصحاح ٢٠ قضاه .

وحقيقته التي تدل عليها المقارنة بين العادات أنه اختصار لعادة الضحية البشرية نشأ مع تقدم الإنسان في الحضارة والمدنية .

ففي أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسرى قربانا على محراب الهه ، ثم تدرجوا من قتلهم إلى قطع أعضائهم وتدرجوا من قطع أعضائهم إلى قطع غلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة .

ولهذا بدأ الختان بالرجال ولم تنشأ عادة الختان بالنساء إلا بعد ذلك بزمن طويل .

وانتقل الختان من اعتباره علامة تسليم لإله الأعداء ، إلى اعتباره علامة تسليم للإله الذي يعبده أبناء القبيلة ، وعندئذ وجب على النساء كما وجب على الرجال .

ومن بقايا عاداته الأولى أن شاؤل اشترط على داود أن يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لبنته ميكال ، فقدم له مائتين كما جاء في الإصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الأول وليس بالصحيح أن الإسرائيليين اعتبروه علامة لقبيلتهم تميز الإسرائيلي من غيره ، وإنما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم ، وفرضه المكابيون على الأدوميين والأتوريين حين هزموهم ، وجاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين أن أبناء يعقوب أوجبوا على الرجل الذي اغتصب أختهم دينا أن يختتن هو وقومه الكنعانيون .

(٧) المعابد والمحاريب

لم يعرف عن قوم إبراهيم - أو المنتسبين إليه على الأصح - أنهم أقاموا لهم هيكلا قبل الهيكل الذى بناه سليمان عليه السلام .

وكان الخليل يبنى المحاريب على الأماكن العالية ، ويختار للمحراب موضعا إلى جوار الشجر والماء ، ثم تعددت المحاريب فتعددت المعبودات وحسب العامة أن كل محراب منها قد أقيم لمعبود غير المعبودات فى المحاريب الأخرى ، وخلطوا بين أرباب كل إقليم فعبدوا الأوثان التى كان يعبدها أبناء البلاد الإصلاء من قبلهم ، وخيف عليهم الاختلاط والفناء فيمن حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء المحاريب فى الأماكن العالية وقصر العبادة والقربان وجميع المراسم الكبرى على هيكل واحد وكان هذا الهيكل فى مبدأ الأمر خيمة تحمل ، ثم بنى بالحجارة رسم الخيمة وتقسيمها .

ولم يكن هذا هو الأثر الوحيد من آثار نظام المعابد فى وادى النهرين .

فقد بقيت عبادة الأسرة زمنا طويلا ممثلة فى عبادة الأوثان التى تسمى بالطرافين ، وكانوا يعتقدون أن حيازة الطرافين تحفظ لمن يحوزها حقوق الأسرة من الرئاسة إلى البركة والميراث ، ولهذا أخذت راحيل الطرافين معها قبل الهجرة من حرانة ، وظلوا يحتفظون بالطرافين بين ذخائر الأسرة المقدسة إلى ما بعد السبى كما يؤخذ من الإصحاح العاشر فى سفر زكريا .

(٨) العالم الآخر

ولا يخلو دين أمة قديمة من الإيمان بعالم آخر غير عالم الأحياء ، لأن الإيمان بالأرواح والأطياف شائع بين القبائل البدائية الأولى ، وكلهم كانوا يعتقدون أن الإنسان يبقى بعد موته لأنهم يرونه فى أحلامهم ، ومن هنا جاءت عبادة الأسلاف .

ولكن الإيمان بالعالم الآخر نوعان : نوع ينظر إلى العالم الآخر كأنه جزء من هذا العالم المشهود ، ينتقل إليه الميت للإقامة فيه ، وأكثر الأمم القديمة يسميه الهاوية ويجعله تحت الأرض بعيدا من النور .

ونوع ينظر إلى العالم الآخر ويؤمن بأنه عالم الحساب والجزاء والتفرقة بين الأبرار والأخيار ، وأنه هو عالم الخلود والحياة الباقية ، بعد الحياة الفانية فى هذه الدنيا .

وبين هاتين العقيدتين فى العالم الآخر عقيدة متوسطة تجمع بين اعتقاد الهاوية واعتقاد الخلود ، فالموتى جميعا يذهبون إلى الهاوية ثم ينجو منهم فى آخر الزمان من يدينون بالإله الحق ، فيعودون إلى حياة كحياة الدنيا البابلية ، ويتم قضاء الموت الأبدى على الآخرين .

كانت الديانة البابلية من النوع الأول .

وكانت الديانة المصرية من النوع الثانى .

وكان العبريون يأخذون بجزء من هذه وجزء من تلك ، ويدينون بالعودة إلى الدنيا فى آخر الزمان ، وإن غيرهم من الأمم لا يعودون .

وتراجع الصلوات البابلية اليوم فلا يرى فيها شىء يشير إلى النعيم فى العالم الآخر . وإنما ينحصر الدعاء فى طلب الخيرات الدنيوية وطول العمر والسلامة من الأمراض والأحزان .

وكانت طائفة من البابليين الأقدمين تعتقد أن الروح تلازم الجسد بعد الموت ، فلا تزال عالقة به محيرة بين هذا العالم والعالم الآخر حتى يبلى رفاته ولا تبقى منه بقية تعلق بها ، ولهذا كانوا يتركون الموتى للجوارح والوحوش تنهشهم وتبيدهم لتستريح الأرواح من عذاب الحيرة بين الدنيا والآخرة .

(٩) التوحيد

والتوحيد كذلك توحيدان :

توحيد الإيمان بإله واحد خلق الأحياء وخلق معهم أربابا آخرين وتوحيد الإيمان بإله واحد لا إله غيره .

ولم تعرف أمة قديمة ترقت إلى الإيمان بالوحدانية على هذا المعنى غير الأمة المصرية ، فعبادة (أتون) التى دعا إليها إخناتون قبل ثلاثة وثلاثين قرنا كانت غاية التنزيه فى عقيدة التوحيد كما عرفها الأقدمون .

ومن علماء المصريات - وفى طليعتهم برستيد وويجال - من يرى بعد المقابلة بين صلوات إخناتون والمزامير المنسوبة إلى داود ، أن حكماء الإسرائيليين كانوا يطلعون على أسرار المحاريب فى مصر ، ولا سيما الأسرار التى كانت محجوبة عن الدهماء ، إذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأحبار وتلاميذهم المختارين .

ومن أسماء الملوك فى بلاد العرب الجنوبية يبدو أنهم عرفوا الوحدانية التى يغلب فيها إله واحد على سائر الآلهة ، واسم إيلومى أيلوم الذى تولى الملك فى بابل الجنوبية معناه أن الله هو الإله الحق .

ويقول عبد الله فلبى فى كتابه سوابق الإسلام : إن هذه الكلمة هى شهادة الوحدانية فى طورها الأول ، ومن مرادفاتها فى أسماء الشعب إيل رب ، وإيل ملك ، وإيل راب ، وكلها من قبيل القول بأن الله هو الرب وأنه هو الملك وأنه هو الرئيس المطاع ، ولا يقال هذا إلا لتغليب إله واحد على سائر الآلهة ، أو لنفى صفة الآلهية عن سواه .

(١٠) الشرائع

ويلحق ببحث الشعائر والعبادات بحث الشرائع والآداب الاجتماعية ، وقد وجد العمود الذى نقشت عليه شريعة حمورابى كاملا ما عدا سطورا مطموسة أمكن اتمامها من مصادر أخرى .

وتتضمن هذه الشريعة عقوبة الإغراق للسحر والخيانة الزوجية والإحراق لمن يختلس مالا من بيت محترق ، وكان للنهر فى هذه الشريعة قداسة يمتحنون بها من يلقونهم فيه من السحرة والمسحورين ، وفيها عقوبات القتل على السرقة والاغتصاب .

ومن غرائبها أنها تعاقب البنت البريئة بذنب والدها « فإذا ضرب رجل بنت إنسان حر ضربا أسقط حملها فعليه عشرة مثاقيل من الفضة غرامة لإسقاط حملها . فإن ماتت فبنته تقتل .. »[1] .

---

(١) المادة ٢٠٩ من شريعة حمورابى من كتاب أقدم شرائع العالم تأليف شبريك إدوارد The World's Earliest Laws

ولا يشبه هذه الأحكام فيما رواه العهد القديم غير عقوبة عاخان لأنه سرق من غنائم القتال في وقعه عاى التي انهزم فيها الإسرائيليون .. « فأجاب عاخان يشوع وقال : حقا إني قد أخطأت إلى الرب إله إسرائيل .. رأيت في الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومئتى مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها وأخذتها وها هي مطمورة في الأرض وسط خيمتي والفضة تحتها .. فأخذ يشوع عاخان ابن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ما له وجميع إسرائيل معه وصعدوا بهم إلى وادي عخور . فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم . فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوه بالنار ورموه بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه .. »[(١)] .

ومن أحكام حمورابي في مسائل الزواج تحريم تعدد الزوجات من طبقة واحدة وتحريم الزواج من الجواري إذا رزق الرجل أولادا من زوجته المكافئة له في طبقته أو من إحدى جواريها .

« المادة ١٤٤ » فإذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولادا فلا يجوز له أن يتزوج من سرية » .

« المادة ١٤٥ » وإذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له وأراد أن يتزوج من سرية وأن يؤويها في بيته فهذه السرية لا تكون مع زوجته في منزلة واحدة » .

---

(١) سفر يسوع الإصحاح السابع .

« المادة ١٤٦ » وإذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولادا وجعلت نفسها فى منزلة السيدة لأنها حملت أولادا فلا يجوز للسيدة أن تبيعها بالفضة بل تقيدها وتبقيها مع الخدم » .

ولا يجوز حرمان ابن السرية من ميراث أبيه بعد الاعتراف بنسبه .

« المادة ١٧٠ » فإذا كان لرجل أولاد من زوجته وكان له أولاد من سريته ، وكان قد ناداهم بأبنائى فى حياته وعدهم مع أبنائه من زوجته ، ثم ذهب لقضائه فالأبناء من الزوجة والأبناء من السرية يتقاسمون الميراث على السواء ، ويختار أبناء الزوجة القسمة والاقتراع » .

وتجرى المقارنة كثيرا بين شريعة حمورابى والشريعة العبرية ، ويزعم بعض الفقهاء من علماء اليهود المعاصرين أن الشريعة العبرية تخالف شريعة حمورابى فى تمييز الأصغر بالميراث ، فالأستاذ جوزيف جاكوب يعلل تفضيل إسحاق على إسماعيل ، وتفضيل يعقوب على عيسو ، وتفضيل يوسف على إخوته بأن الشريعة العبرية كانت لذلك العهد تأخذ بالحكم الذى كان شائعا فى بعض الشرائع الأولى : وهو اختصاص الابن الأصغر بالحصة الوافية من الميراث Ultimogeniture .

قال هذا الفقيه : إن مؤرخى العهد القديم لم يدركوا معنى هذه السنة القديمة فحاولوا أن يصححوها بالتعليلات التى خطر لهم أنها كفيلة بتصحيحها[1] ولكن القاعدة تطرد اطرادا لا يمكن تعليله بالمصادفة ، فلما

(١) المأثورات الشعبية فى العهد القديم تأليف فريزر

Folklore in the Old Testament by Frazer .

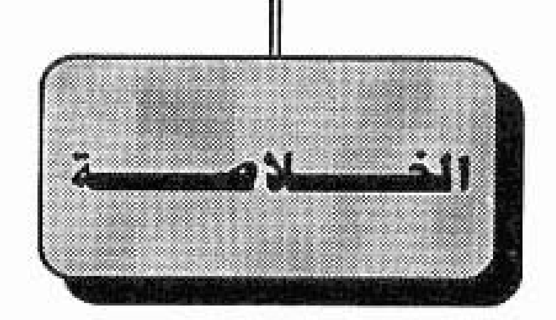
قدم يوسف ولديه منسى وإفرايم إلى أبيه يعقوب ليتلقيا بركته حوّل الجد يمينه إلى أفرايم ويساره إلى منسى ، وهكذا تولى داود الملك وهو أصغر أبناء أبيه وكان جده فارز أصغر التوأمين اللذين ولدتهما تامار بنت يهودا ، وقد اتبع داود هذه السنة فولى سليمان عرش الملك من بعده وهو أصغر من أخيه أدوناى .

ويخطر لبعضهم أن هذه السنة قديمة فى عشيرة الخليل ، وأنه هو صلوات الله عليه كان أصغر من أخيه .

* * *

وإلى هنا نقف بالمقتبسات من تواريخ الأحافير والتعليقات عليها ، لأن كشوف الأحافير الأخرى لا تعنينا فى موضوع هذه الرسالة ، وليس فيها ما ينبنى عليه رأى فى سيرة الخليل على فرض من شتى الفروض .

الباب السابع





الآن وقد انتهينا من معالم الطريق كما رسمتها لنا المصادر والتعليقات يصح أن نبدأ بتلخيص السيرة على هدى تلك المعالم ، ويحق لنا أن نقرر « أولاً » أن قرائن الثبوت فى سيرة الخليل أقوى جداً من كل قرينة للشك ينتحلها من يتحدث باسم العلم ، والعلم من حديثه براء .

فالذى يقول : إن وجود الخليل مشكوك فيه من الوجهة العلمية يظلم العلم ويحمله جريرة لا يحملها ، لأن سيرة الخليل ليست من السير التى يشك فيها العالم ، بل هى سيرة يبحث عنها العالم ان لم يجدها ، إذ كانت الدعوات النبوية سلالة واحدة يرتبط اللاحق منها بالسابق ، ولا يمكن الرجوع ببداءة لها أصدق من بداءتها بدعوة إبراهيم .

إن الدعوات النبوية التى بدأتها دعوة إبراهيم سلالة لم يظهر لها نظير فى غير الأمم العربية ، والأمم السامية ، وقد ختمت بدعوة محمد ، وجاءت دعوة محمد متممة لها ، فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها ، بترتيب كل منها فى زمانها ، وعلاقة كل منها بمكانها ، فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة .

دعوات لم تظهر فى العالم كله على غير هذا النسق ، لأنها ارتبطت بظاهرة غير متكررة حول مدن القوافل التى اختصت بها بلاد الأمم العربية ، وكانت بداءتها فى زمانها على ترتيب مكانتها الجغرافية حيث نشأ الخليل إبراهيم . فهى نشأة لازمة فى موقعها وفى عصرها ، والنشأة التى من هذا القبيل تواجه العلم بحقيقة ضرورية ، فلا يشك فيها . بل يكون موقفه منها على نقيض الشك من طرف إلى طرف ، لأنه يبحث عنها إن لم يجدها ، عليه أن يجدها وأن يهتدى إليها .

ومن قرائن الثبوت – كما أسلفنا – أن هذه الدعوات النبوية نسبت إلى أصل واحد وهو السلالة السامية ، وقبل أن يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات ، وقبل أن يعرفوا علامة الوحدة فى التصريف والاشتقاق وقواعد النحو وحركات النطق وأجهزة الكلام ، فلم يكن فى وسع الذين قالوا بوحدة أصلها قبل مئات السنين أن يخترعوا هذه النسبة لو لم تكن نسبة صحيحة فى مراجع لا تخترع ، ولا يسهل اختراعها .

وعلم المقابلة بين الأديان حديث كعلم المقابلة بين اللغات ، فإذا جاء هذا العلم الحديث مطابقاً للأخبار الأولى عن ديانة القوم فى عصر إبراهيم – فتلك قرينة ثبوت وليست بقرينة شك ، ومن خالف ذلك فهو لا يفرق بين الشك والثبوت .

لم يكن من السهل أن توجد فى وطن واحد عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك ، وأن تتعدد الأرباب مع تمييز رب منها على سائرها .

ليس من السهل أن يوجد هذا الخلط من العبادات فى وطن واحد ، فقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الشمس والقمر ، أو يعبدون القمر دون الشمس ، أو يعبدون القمر ولا يعبدون المريخ والزهرة .

وقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الأصنام ولا يعبدون معها الملوك ، وقد يعبدون أرباباً كثيرة ولا يميزون رباً منها على سائرها .

أما عبادتها جميعاً فى وطن واحد فهى حالة لا يمكن اختراعها ما لم تكن حقيقة واحدة .

ونحن قد علمنا اليوم أنها حقيقة واحدة لأننا فككنا ألغاز الكتابة واستخرجنا أسرار الأحافير ، وعلمنا منها تسلسل العبادات واختلاط السكان والحدود وتطور العقائد على حسب أحوال المعتقدين .

وقد علمنا اليوم أن عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس ، خلافاً لبادرة الظن الأولى ، إذ يسبق إلى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يبدأ بها في العبادة .

بل علمنا اليوم أن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشترى وليس الشمس أو القمر ، ولهذا يطلقون عليه اسم جوبيتر ويستمدون هذا الاسم من كلمتين بمعنى أبى الآلهة Dawes Pater .

وفى القرآن الكريم .. ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ﴾ .

ومما علمناه اليوم أنهم أقاموا للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم إذا غابت الكواكب ، فعبدوها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل .

في القرآن الكريم : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ .

وفيه : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

* * *

وما علمناه اليوم من مقابلات الأديان أن التوحيد جاء بعد تعديد الأرباب وتمييز واحد منها ، وأن أهل بابل خاصة كانوا يرون فى قصة الخليقة أن الإله الأكبر خلق الأرباب كما خلق سائر الموجودات الأحياء وغير الأحياء ، وتوحيد الإله على هذا النحو هو الذى يسمونه فى العصر الحديث بالهينوثيزم Henotheism ويطلقونه على طور خاص من أطوار التوحيد البدائى لم يكن لزاماً أن يوجد فى كل أمة .

وفى القرآن الكريم : ﴿ .. فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ .

وفيه : ﴿ ... قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

أما عبادة الملوك فى بابل القديمة فنحن نعلم اليوم أنهم كانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان ،لأننا قرأنا الآثار وكشفنا عن الأحافير ، وادعاء الملوك أنهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت وارد فى القرآن الكريم : ﴿ إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ﴾ .

هذه المطابقات نعلمها اليوم من الكشوف والأحافير ، وسواء آمن العالم العصرى بالقرآن أو لم يؤمن به ، فالمسألة هنا هى مسألة التفرقة بين قرائن الثبوت وقرائن الشك فى سيرة إبراهيم ، فليس من قرائن الشك على كل حال أن تروى أخبار العبادة عن عصر إبراهيم على الوجه الذى حققته الكشوف الحديثة ، وعلى خلاف القصص التى تخترع اختراعاً بغير سند من الواقع ، لأن الاختراع لا يجمع بين الحقائق المتفرقة من عبادات

القوم ، وهى عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك وتعديد الأرباب مع تمييز واحد منها على الآخرين ، وهى المرحلة البدائية فى طبيعة التطور بين التعديد والتوحيد .

قلنا فى مقدمة هذا الكتاب أن الشك فى وجود إبراهيم لا يستند إلى سبب ، لأن الغرائب والخوارق لم تبطل وجود شىء قط ، ومنها أثبت ما فى السماء وهو الشمس ، وأثبت ما فى الأرض من صنع الإنسان وهو الهرم الأكبر .

ويحق لنا بعد ما قدمناه أن نقول : على الأقل إن أسباب الثبوت أقوى من أسباب الشك جميعاً ، إن كانت له أسباب .

العصـر

معظم المنقبين يعينون تاريخ إبراهيم فى زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويجعلونه معاصراً لدولة الرعاة فى مصر ودولة العموريين فى العراق .

وولادة الخليل فى هذه الفترة ترجحها الكشوف والأحافير ، كما ترجحها النتائج التى تمثلت فى سيرته عليه السلام ، وكلها دلائل على تنازع السيطرة وتنازع العقائد واضطراب الأمور والاضطرار إلى الرحلة الدائمة من أور إلى أشور إلى فلسطين إلى مصر إلى بيت المقدس ثم إلى صحراء الجنوب .

وتقترن زلازل الطبيعة وزلازل السياسة فلا يستقر لأحد من المقيمين فى ديارهم قرار ، فضلاً عن القبائل الرحل فى طلب المرعى وطلب الأمان .

سقطت دولة بابل وغلبتها عليها قبائل عيلام من الشرق وقبائل عمور من الغرب ، وعاش العموريون والعيلاميون تارة فى قتال وتارة فى حلف مزعزع خوفاً من دولة الأشوريين فى الشمال .

وسقطت دولة مصر وغلبتها قبائل الرعاة ، ثم بقيت على خوف وحذر من الشرق ومن فراعنة الجنوب الذين احتفظوا بعروشهم فى الصعيد .

ليس أشقى من حياة العشائر الصغيرة بين هذه القلاقل وهذه المنازعات التى يشترك فيها المغامرون من أبناء العشائر الكبرى ، وهم يزحفون للسيطرة على الدول كلما سنحت لهم الفرصة العاجلة ، ولا يقنعون بالتحول من بقعة إلى بقعة طلباً للمرعى والأمان .

وكانت عشيرة الخليل صغيرة ولاشك بالقياس إلى العموريين والرعاة وسائر القبائل التى تحتل بقاع الهلال الخصيب .

ولو لم تكن صغيرة لما أمكن أن تهاجر من جنوب العراق إلى شماله إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط إلى مصر إلى فلسطين كرة أخرى فى حياة زعيم واحد .

قد ألجأتها المجاعة إلى مصر ولم تلجىء قبيلة أخرى إلى مثل هذه الهجرة من القبائل التى أصيبت بالمجاعة فى صحراء فلسطين .

وحدث غير حادث يدل على قلة هذه العشيرة فى عددها وقوتها ، أنها ظلت على هذه القلة بعـد أيام إبراهيم فى أيام يعـقـوب .. ومن أبرز الشواهد على ذلك فى حياة البداوة خاصة أن جيرانها كانوا يجترئون على نساء زعمائها فطمع أبيمالك فى سارة واعتدى شكيم على ابنة يعقوب ، وكـانت العـشـيـرة نزيلة إلى جـوار الأقـوياء الذين يضـيـفـونهم أو يـأبون ضيافتهم كما يشاءون .

ليس أشق من حياة عشيرة صغيرة بين العشائر الكبرى فى أيام الزعازع وتقلب السلطان ، ولاسيما الحياة إلى جوار الدولة البابلية ، وكل سلطان جديد هناك فهو رب جديد يدين الناس بالعبادة ويسومهم أن يسجدوا له ولا يقنع منهم بطاعة الرعية للرعاة .

وقد حفظ لنا سفر دنيال مثلاً من شتى الأمثلة على قيام هذه العبادات مع قيام السلاطين ، فإن السلطان الجديد يعلن ولايته بالطبول والزمور ويفرض على كل مستمع أن يسجد لتمثاله على قارعة الطريق ، ومن أبى السجود أحرقوه بالنار .

« فنبوخذ نصر الملك صنع تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً ، وعرضه ست أذرع ، ونصبه فى بقعة دورا فى ولاية بابل ، ثم أرسل ليجمع المرازبة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات ليأتوا لتدشين التمثال .. ونادى المنادي : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناى والعود والرباب والشيطر والمزمار .. أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب ، من لا يخر ويسجد ففى تلك الساعة يلقى فى أتون النار .. » .

وحفظت لنا الأرواح الأشورية صورة جيحو ملك إسرائيل (سنة ٨٤٢ قبل الميلاد) وهو ساجد يقبل الأرض بين يدى شلمنصر ومن ورائه أمراء دولته يحملون الجزية صاغرين .. ومن كان يتقاضى الملوك أن يسجدوا له عند تقديم الطاعة لا جرم يتقاضى الرعايا دون طبقة الملوك أن يسجدوا له ويعبدوه ، وبخاصـة حين يؤسس دولة جديدة قامت على أنقاض دولة ذاهبة ، ولابد له من توطيد هيبته وقمع المخالفين له ، وأولهم الذين ينكرون دينه كما ينكرون دنياه .

والحوادث التى أحصاها لنا الرواة من سيرة إبراهيم خليقة أن تحدث فى مثل تلك الفترة ، سواء منها ما حدث فى العراق أو ما حدث فى الطريق إلى وادى النيل .

وربما صح أنه عاصر حمورابى أو كان فى عصر قريب من عصره ، ولكن الأحوال لم تتغير قبل عصر حمورابى وبعد ولايته بسنوات ، فهى أحوال الدولة المتبدلة والسيطرة المتقلبة ، ومن علاماته الكبرى أنها تدعو حمورابى إلى نقش أحكام شريعته وإقامة الأنصاب التى تذكر الناس بتلك

الأحكام ، ولا يكون ذلك إلا آية من الآيات على أن الشـريعـة قـد نسـيت وهانت واحتاجت إلى تذكير .

إن كانت شريعة جديدة فموعدها القمين بها زمان كذلك الزمان .

قد كـان إبراهيم زعيم قـبيلة بادية ، وكـان تهـافت العـروش ، وتبـدل العبادات والكهانات من حوله خليقاً أن يريبه فى أمرها وأن يحـبب إليه النجاة من طوارقـهـا وطوارئها ، وكانت القبائل القـوية حـول العـواصم تتنازع السلطان فـهى فى شـاغل بالسيطرة عن العبادة . أمـا العشيـرة الصغيرة فهى مغلوبة على مرافقها وعلى ضمائرها ، ولا عصمة لها إلا أن تعتصم بإله قدير أقوى من الغالبين ومن المغلوبين : إله لا تحصره هياكل العـاصمـة وتماثيلهـا ولا يتغـير من باديـة إلى باديـة فـوق بطاح الصـحـراء وتحت قبة السماء .

إن وجود إبراهيم فى عصر كذلك العصر حقيقة لا غرابة فيها ولا محل فيها لاختراع المخترعين .

النشـــأة

من الحقائق ما يبده السامع ، لأنه على قربه لم يلتفت إليه .

كان جندى أوربى يقدح فى الشرق وأبنائه وكل ما فيه أثناء الحرب العالمية الأولى ، ويقول أنه «باءة السوء فلا يخرج منه شيء حسن ولا يأتى منه خير .

وقال له محدثه : انك تدين بدين جاء من الشرق !

فوجم الرجل وأخذته الدهشة لأنه لم يتنبه إلى هذه الحقيقة لحظة واحدة طول حياته ، وهو يدين بدين السيد المسيح ، ويستمع إلى الانجيل كلما ذهب إلى الكنيسة ..

ومثل هذه الحقيقة ما ذكرناه آنفاً عن نسبة إبراهيم العربية ، فإنها أصح نسبة ينسب إليها ، ولكنها تبدو لمن يسمعها وكأنها غريبة يقال لمن يزعمها : من أين جئت بهذه الأحدوثة التى لم نسمعها قبل الآن ؟

فلا يقال عن إبراهيم أنه إسرائيلى ، لأن يعقوب هو أول من تسمى بإسرائيل ، ويعقوب حفيد إبراهيم .

ولا يقال عن إبراهيم أنه يهودى ، لأن اليهودى ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب ، ولم يكن ينسب إليه إلا بعد أن أصبح اسمه علماً على الأقليم الذى قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب .

ولا يقال عنه أنه عبرى إذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف ، فإن

إبراهيم كان يتكلم بلغتيفهمها جميع السكان فى بقاع النهرين وكنعان ، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية فى تلك الأيام .

وقد يقال عنه أنه سامى ينتمى إلى سام بن نوح ، ولكنها نسبة إلى جد وليست نسبة إلى قوم ، وقد تكلم باللغة السامية أناس كالأحباش ليسوا من السريان ، ولا من الأراميين ولا الحميريين .

فإذا فتشنا عن نسبة لإبراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية ، كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب .

وأصح التقديرات أنه نشأ فى أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق وكانت هذه الأسرة مع الذين جاءوا من « أرض البحر » كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس ، وقد وردت أسماء العرب التى لاشك فيها بين الأسر المالكة فى جنوب بابل ، خلال عهد طويل يحيط بعصر إبراهيم على أقدم تقديراته ، فلم يمض على أسرته بمدينة (أور) زمن يفصله من عشيرته البادية ، وينسيها معيشة البداوة التى تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب في العراق إلى أقصى الشمال .

ومن جملة أخباره يتبين أنه عليه السلام قد نشأ على مفترق طريق بين جميع العهود .

مفترق طريق بين عهد الكهانة وعهد النبوة .

ومفترق طريق بين إباحة القرابين البشرية وتحريمها .

ومفترق طريق بين التعديد والتوحيد .

ومفترق طريق بين الإيمان بالهاوية والإيمان بالحياة الأخرى .

ومفترق طريق فى عبادة الأسرة الواحدة ، فلا تلبث الأسرة الواحدة أن تختلف بين طريقين : أب وابنه وأخ وأخوه .

وتاريخ بابل يومىء إلى عصر قريب من القرن التاسع عشر قبل الميلاد يصح أن تفترق فيه جميع هذه الطرق .

ففى حوالى هذه الفترة ضاعت هيبة الهياكل .. وسقطت مكانة كهانها وندرت القرابين فى محاريب الدولة وتحولت إلى مدافن الأسرة حيث تسكن الأسرة مع موتاها فى دار واحدة .

وحوالى هذه الفترة تعاقبت الدول وتناقضت أوامر العبادة وتصارع الأرباب فاستحقوا سخرية العباد أجمعين .

وانتهى قبل ذلك عهد الملوك الذين كانوا يسومون وزراءهم وحواشيهم أن يدفنوا أنفسهم معهم وهم بقيد الحياة ، وبطل إيمان العلية بالحياة بعد الموت فى جوار هؤلاء الملوك ، فتفتحت الأذهان لسماع شىء جديد عن اليوم الآخر ومعنى الخلود بعد الفناء .

ولعل الصابئة كانوا فى ذلك العصر يدينون بالبقايا المصفاة من هذه العبادات ، ولعلهم خلطوا من أجل ذلك بين إنكار الكهانة وإنكار النبوة ، فإذا جاءهم إبراهيم بأول دعوة نبوية لم يميزوا بينه وبين الكهانة التى أنكروها على كهان الهياكل المتداعية والمحاريب الدائرة ، ولعل إبراهيم قد يئس منهم فاتجه إلى قبيلتهم العليا شمالاً حيث كانوا يتجهون إلى نجم القطب أثبت النجوم ، عسى أن يستمع إليه أصحاب القبلة ، وأن يكونوا على استعداد للتفرقة بين الكهانة والنبوة ، فلا يشق عليهم أن يفهموا وحى

الله إلى النبى كما شق عليهم أن يفهموا أن الكهان يتلقون الوحى من الله .

وليس بالعسير علينا فى العصر الحاضر أن نصور لأنفسنا معيشة أبناء العشائر بين الحاضرة والبادية .

فرؤساء العشيرة يقيمون بالمدن وتستبقيهم الدولة فيها ولا تضن عليهم بالرئاسة التى تعينهم على حكم العشيرة فى بداوتها ، وأبناء العشيرة يروحون ويغدون بين الصحراء والحاضرة ليعرضوا على أولئك الرؤساء مطالبهم عند ذوى السلطان ، ويعقدوا صفقات القوافل أو يبتاعوا حاجتهم فى حلهم وترحالهم ، فلا تنقطع الصلة بينهم وبين رؤسائهم ، ولا تنقطع خصوماتهم التى تلجئهم إليهم ، وما انقطعت خصومات أهل البادية قط بين أنفسهم أو بينهم وبين العشائر من حولهم ، فهم أبداً على مطلب من الحكام شفاعة عند الرؤساء .

وأقلق ما تكون حياة العشيرة البادية حين تطغى عليها عشيرة أقوى منها ويبلغ من قوتها أن تسيطر على الدولة فى عواصمها ، وهكذا كانت حياة العشيرة التى تولاها إبراهيم وأبوه أيام طغت على مدينة « أور » أفواج من العيلاميين وأفواج من العموريين ، ولم ينفتح أمامها سبيل للهجرة غير سبيل الشمال .

ومن اليسير أن نتخيل هنا حنكة الأب وثورة الفتى بين تداول الدول وتساقط الحكومات ، فالأب يتابع سادات الوقت ويجرى معهم فيما يجرون فيه ، والابن يأبى إلا ما اعتقد وينفر من المراء والرياء ، ويحفزه إلى

الشمال أمل فى صلاح العقيدة ، أمل فى صلاح الحكومة ، ثم ينقاد الأب بعد طول اللجاج لأن الحنكة لا تغنى عنه شيئاً مع فساد الأحوال وتفاقم الخطر من الأقوياء عن اليمين وعن اليسار .

وإذا صح أن أبا إبراهيم كـان أمـيناً لبـيت الأصنام وكـان يصنع الأصنام على يديه ، فليست الحنكة وحدها هى التى تدعوه إلى المحافظة على تقاليد العبادة القائمة ، بل له مع الحنكة داع آخر من المصلحة والمنزلة الاجتماعية ، ويغلب إذن أن يكون إبراهيم قد تربى للإمامة الدينية وتعلم العلوم التى كانت شائعة بين طبقة الرؤساء الدينيين ومنها علم الفلك والطب والتعاويذ ورقى الأسماء .

واسم إبرام من الأسماء التى تنبىء عن نشأة دينية ، لأنه – على أرجح معانيه – يفيد معنى حبيب الله . وقد كان قدماء السريان يطلقون اسم رأس الأسرة مجـازاً على الإله المعبود فيسمونه الأب تارة والعم تارة أخرى ، وربما كان العم أغلب على هذا المعنى لأن الرجل ينادى كل شيخ مبجل (بياعم ويا عماه) .. ومن هنا اسم عمرام وابرام ، ركب كلاهما من العم والأب ومن كلمة رام التى تعنى المحبة، ولعل التغيير الذى طرأ على اسم ابرام إنما استحدث لكى يفيد معنى حبيب الله بدلاً من حبيب الإله الذى كان يعبده أبوه فى معابد الوثنية .

على أن التعليم لم يكن مقصوراً على أبناء الكهان ، فإن المنقبين الأثريين كشفوا عن أبنية ضخام كانت معدة للمكتبات والمدارس العالية ، ولم يكن من النادر أن يتعلم أبناء العلية دروس الفلك والرياضة والتشريع التى ترشحهم لمناصب الدولة . واهتداء إبراهيم إلى حقائق الأجرام

العلوية من طريق الفلك أمر معقول فى زمانه على الخصوص ، فإنه زمان تبددت فيه هالات الربوبية من حول الملوك وهبطت فيه منزلة الكهانات العليا وتصارعت فيه العقائد بين غالبة ومغلوبة وبين متأصلة فى العواصم ومقتحمة عليها ، ونظر فيه المثقفون إلى الكواكب نظرة جديدة فجعلوها صوراً للأرواح النورانية ونزلوا بها من علياء الربوبية إلى مرتبة الخلائق المسخرة فى الملأ الأعلى ، فإن لم يكن مذهب الصابئة قد تم واستقر فى ذلك العهد فقد كانت له بداءة تحوم على هذه المعانى تستشرف لما وراءها ، ولولا ذلك لما بقيت السريانية القديمة لغة مقدسة فى كتب هذه النحلة ، إذ كانت السريانية القديمة أعرق من السريانية المتشعبة منها ولا يمكن أن تنعزل الطائفة الصابئية بتلك اللغة الأولى ما لم تكن بداءتها ممعنة فى القدم ، إلى ما قبل تدوين اللهجة السريانية الحديثة .

ومن البديهى أن العقائد التى تدعمها الدولة لاتنهدم بضربة واحدة ولا تولى إدبارها لكل منكر يجترىء عليها ، فقد لقى إبراهيم عنتاً شديداً من تلك العقائد المتداعية ، وأشد ما تكون العقيدة دفاعاً عن نفسها حين يشتد الخطر عليها وتحس فى قرارة حصنها أن الضربة تصميها وتزلزل أركانها .

وينبغى للناقد العصرى أن يلمح شيئاً يستوقفه فى قصة إبراهيم ووعيد الدولة له بالاحراق إن لم ينته عن تسفيه أربابها .

فمن المسلم أن الاحراق عقوبة مقررة فى شريعة بابل ، وأن النار لم تكن مجهولة فى بلد من بلاد الأنبياء الآخرين ، ولكنهم لم يتعرضوا

للاحراق فى أرض غير أرض بابل ، ولم يرد خبر قط عن نبى غير إبراهيم توعده قومه بإحراقه ، ومنهم من نشأ فى بلاد تحرق القرابين الحية فى المحاريب . فليست أخبار الأنبياء إذن مما يرسل جزافاً أو مما تنقطع فيه المناسبة بين النبى والبلد الذى يبعث إليه .

وسيأتى الكلام عن معجزات إبراهيم فى موضعه ، ولكن موضع الالتفات هنا لمن يصطنع الدراسة العلمية أن يلاحظ شواهد هذا الانفراد بعقوبة الاحراق فى قصة إبراهيم دون قصص الأنبياء .

والعبرة من هذه الملاحظة وأمثالها أن الناقد العلمى مسئول أن يتقصى من الأخبار الأولى مقدار ما فيها من الثبوت ، وليست مهمته كلها أن يأباها جميعاً لأنه وجد فيها شيئاً يأباه .

الجنـوب

انفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم في الحجاز ، وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار ، كأن المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت إليه واقعة بينة البطلان بذاتها غير قابلة للوقوع .. ووضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات دين وإنكار دين ، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون ، فضلاً عن الاجتهاد في طلب الحقيقة قبل أن يوجههم إليه المخالفون والمختلفون .

أما الواقع الغريب حقاً فهو طواف إبراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب ، بل مع تجدد الأسباب التي تدعوه إلى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ولم يكن لإبراهيم وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا إلى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى .

فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد عند بيت المقدس مدفناً لزوجه فاشتراه بالمال من بعض الحيثيين .

أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لاحبارإيل عليون ، وكان إبراهيم يقدم العشر أحياناً إلى أولئك الأحبار .

ومن كان معه أتباع يخرجون في طلب الرعي فلابد لهم من مكان يسيمون فيه إبلهم وماشيتهم بعيداً عن المزاحمة والمنازعة ، وهكذا كان

إبراهيم يعمل فى أكثر أيامه كما تواترت أنباء فى سفر التكوين ، فلا يزال متجهاً إلى الجنوب .

وهناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحى إليه أن يجرب المسير إلى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبتنى لعبادة الله هيكلاً غير الهياكل التى يتولاها الكهان والإحبار من سادة بيت المقدس فى ذلك الحين .

فقد بدا له أن إقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون فى كل مذبح إلى الرب المعبود بجواره ، ومثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان فى مكان واحد ، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء .

فإن كان هذا الخاطر لم يخطر قط فى نفس إبراهيم فذلك هو العجيب الذى يستوقف النظر من سيرة رسول وزعيم ، لكن الرسالة والزعامة معاً اجتمعا إليه ولو مرة من المرات وهو على أهبة الرحلة والاستطلاع .

ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به إلى الجنوب ثم إلى الجنوب إذ لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب ، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود .

وواضح من تواتر التوراة والمشنا والتلمود أن إقامة بيت المقدس إنما جاء متأخراً بعد عصر إبراهيم وعصر موسى بزمن طويل ، وأنه جاء مع عصر المملكة الإسرائيلية وعملت فيه السياسة عملها المعهود .

فبعد موسى بعدة قرون بقيت أورشليم فى أيدى اليبوسيين ، واستولى بنو بنيامين على جيرانهم ولكنهم لم يطردوا منها اليبوسيين .. « فسكن

اليبوسيون مع بنى بنيامين فى أورشليم إلى هذا اليوم » أى إلى الأيام التى كتب فيها سفر القضاة من العهد القديم .

ثم تغلب بنو يهوذا على المدينة فدمروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها ، وعاد اليبوسيون فجددوا بناءها وسكنوها إلى أيام الملك شاؤول ، ثم استولى عليها داود فأقام فيها عاصمة ملكه، وبنى فيها خليفته سليمان هيكلها المشهور .

وبعد هذا جاء ملك من ذرية إبراهيم وهو « يهواش » ملك إسرائيل فهدم سور أورشليم .. وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك والرهناء ورجع إلى السامرة [1] .. ثم اضطجع يهواش مع آبائه . أى مات مرضياً عنه .

فلم يكن لأورشليم هذا الشأن فى حياة إبراهيم ولا فى حياة موسى ، لم يكن لها هذا الشأن من القداسة بين جميع بنى إسرائيل حتى فى عهد داود .

أما « الجنوب » المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة إلى أيام ارميا وما بعدها ، وكانت كلمة « تيمان » مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة ، وهى تقابل كلمة « يمن » فى اللغة العربية بجميع معانيها ، ومنها الإشارة إلى الجنوب .

ففى سفر التثنية يقال على لسان موسى : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير » .

---

(١) الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الثانى .

وفى سفر حبقوق : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » .

وأوضح من ذلك قول أرميا متسائلاً فى مراثيه : « الا حكمة بعد فى تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ » .

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتساءل : كيف يكون هذا الجنوب موصداً فى وجه إبراهيم ؟ وكيف يطوف الأقطار جميعاً ولا ينفتح له الباب الذى لا موصد عليه ؟

إن كان أحد الطريقين مفتوحاً أمامه فليس هو طريق بيت المقدس ، بل طريق الحجاز .

وفى هذا الطريق سلك الأنبياء ، وذكرت المصادر الإسرائيلية منهم من بلغ مدين ، وذكرت منهم من لعله أقام فى نجد أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية .

ولم تذكر المصادر الإسرائيلية صالحا ولا هودا ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء .

فموضع التساؤل هو السكوت عن هذه الناحية ، وليس هو الذكر الذى توحيه البداهة ويوحيه الواقع ويوحيه المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية .

ونقول : إن السكوت موضع تساؤل وهو فى الحقيقة غنى عن التساؤل ، لأنه معلوم السبب والغاية ، وحسبنا من التساؤل أن ينتهى بنا إلى سبب معلوم وغاية مرسومة .

إنما العجيب من ذوى الدعوة باسم البحث العلمى أن ينتظروا الخبر ممن يقضى على دعواهم كلها إذا رووه ، ويثبت دعواهم كلها إذا نفوه .

ومن الذى يكتم مسير إبراهيم إلى مكة إن لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها بإثبات ذلك المسير .

على أن الباحث الذى يتحرى المعرفة لا يصح أن يقف عند النفى ثم يسكت على ذلك لا يحاول الإثبات ما استطاع .

ها هنا رواية عن نشأة الكعبة فى الحجاز على عهد إبراهيم ، فمن ينكرها فعليه أن يستوثق أولاً من أسباب إنكارها ، وعليه بعد ذلك أن يعرفنا بما هو أصح فى التاريخ وأولى بالقبول .

ونفرض أن إبراهيم لم يصل إلى الحجاز لأن المصادر الإسرائيلية لم تذكر رحلته إلى الحجاز ووقفت بها عند جيرار وقادش وبلاد أدوم .

ونفرض أن هذا سبب كاف لنفى الرحلة من الجهة العلمية ، فهذه الكعبة قائمة تحتاج إلى بان يبنيها ، فمن الذى بناها ؟

إن روايات هؤلاء القوم الأميين - قوم مكة فى الجاهلية - تذكر لنا أن مكة عمرت قديماً بأناس من اليمن ثم أناس من النبط ، وكل معلوم عن أحوال الحجازيعزز هذه الروايات ، فإن أقام مقيم فى مكة فسبيله أن يأتى إلى وسط الحجاز من الطرفين ، وهما طرف اليمن فى الجنوب وطرف النبط فى الشمال .

لكن أهل اليمن - فى اليمن - لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعفى على شأنها بين الشعوب العربية ، وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا إلى

الكعبة نظرتهم إلى منافس خطير فهموا بهدمها وتحويل الحجاج إلى معبد يقوم عند الرب مقامها .

أما النبط فى الشمال فمكة هى طريقهم ولا مزاحمة عليها منهم ، وآثارهم الباقية فى البتراء تنطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين فى العبادة واللغة والسلالة ، والنسابون من الحجاز يقولون إنهم نبط وأنهم أخذوا الأصنام من النبط ، وجميع المصادر بعد ذلك تقول أن النبط هم ذرية نبات بن إسماعيل .

ومن النظر العلمى أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد وأن يلتفت إلى كل باب من هذه الأبواب ، لأن الالتفات إليها واجب عليه ، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية ثم يهمله ولا يلتفت إليه ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت أو من الفرض والاحتمال .

أما الأمر الذى لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع . فهو القول بأن إبراهيم لم يذهب إلى الحجاز لأن المصادر الإسرائيلية خلو من هذا الخبر ، ثم يكتفى القائل بقوله ، فلا يضع أمامنا بديلاً منه أولى بالأخذ به والتعويل عليه .

إن إبراهيم صاحب دعوة دينية ، وليس فى المصادر الإسرائيليةما يدل على أنه قد صنع شيئاً لنشر دعوته ، وكل ما ورد منه فى هذا الباب أنه أقام مذبحاً فى كل منزل من منازل الطريق ، ثم ترك البلاد جميعاً فى رعاية الأحبار الذين كانوا مؤمنين بـ « ايل عليون » قبل وفوده إلى كنعان ، ليس فى ذلك مقنع لصاحب دعوة دينية يخرج من دياره فى سبيل هذه الدعوة .

فأقرب ما يرد على الخاطر أن إبراهيم قد ذهب إلى حيث يصنع شيئاً باقياً فى سبيل دعوته ، ولا مذهب له إذن غيرالحجاز ، وهذه هى تتمة السيرة التى لابد منها فى حياة نبى ينتمى إليه سائر الأنبياء ، وإلا كانت نسبة الدعوة إليه من أعجب الأمور .

وقد جاء فى المأثورات جميعاً أن إبراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم فى مدن فلسطين الجنوبية ، وبقيت آثار البتراء (سلع) إلى اليوم وفيها أنصاب من هذه الرجوم فى أماكن العبادة ، حفظوها تذكيراً لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقاباً للمذنبين .

ولم يذكر مصدر من المصادر أن إبراهيم كان يحمل معه حجراًمن هذه الأحجار ، ولكنه إذا تعمد أن يقيم مذبحاً باقياً على طريقته فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة وليس من اعتساف التفسيرات .

يقال إن الحجر الأسود نقل من البتراء عند بناء الكعبة ، وقد تبين بعد ذلك أنهم نقلوا كثيراً من طريق البتراء بعد اتخاذ الكعبة بيتاً للأصنام قبل الإسلام ببضعة أجيال ، وليس من المسائل العرضية أن تتشابه الحجارة فى قوام تركيبها وترصيعها ، هي تختلف فى بنيتها المعدنية والصخرية كما هو معلوم .

وربما سميت مكة وبكة باسم البيت الذى بنى فيها ، لأن البك والبكة كانا يطلقان على البيت فى اللغة السامية الأولى ، ومنها بعلبك بمعنى بيت البعل . وربما كانت من مادة القربان فى السبئية والحبشية لأنهم كانوا يطلقون المقربة على المحراب المقدس ، وبطليموس الجغرافى قد ذكرها

باسم مكربة Macaraba نقلاً عن أهــل اليمــن ، ولكن التصحيف هنـا بعيــد ، ولا تسمى البلدة باسم القربان فيها إلا إذا أصبحت محجة لقصادها من المؤمنين بكعبتها ، وقد مضى على السبئيين زمن وهم يعيشون فى شمال الجزيرة ، فلم يذكروها بهذا الاسم فى أثر من الآثار .

فى مقاييس الكعبة شـاهد لا يجوز إهماله عند البحث فى أصل بنائها ، فإنها قد بنيت مرات كما هو معلوم ، وكان البناة فى كل مرة يحافظون على معالمها القديمة حيث أمكنت المحافظة عليها ، وقد تعذر عليهم أن يحافظوا على أبعاد جوانبها لدخول الحجر (بكسر الحاء) فيها تارة وخروجه منها تارة أخرى ، ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء فى أكثر الروايات ، وارتفاعها الآن سبع وعشرون ذراعاً أو خمسة عشر متراً[١] ولن تكون الخمسة عشر متراً سبعاً وعشرين ذراعاً إلا إذا كان الذراع بالمقاس المقدس عند قوم إبراهيم ، لأنه كما حققه الأستاذ جريفس Greaves الخبير المتخصص فى المقاييس الأثرية يزيد على واحد وعشرين قيراطاً (بوصة) وثلاثة أرباع القيراط ، ويقاس بالتقريب عند مضاهاة الأبنية القديمة التى قدرت بالذراع[٢] .

* * *

---

(١) الرحلة الحجازية ، تأليف لبيب البتانونى .

(٢) مادة الذراع Cubit فى كتاب رفيق الطالب فى مطالعة التوراة Bible Student's Copanion

هذه القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض ، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة إبراهيم إلى الحجاز ، وأنها هى وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية .

وقد جاء الإسلام مثبتاً رحلة إبراهيم إلى الحجاز ، وأثبتها ولاشك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول ، لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع لأنكرت إسرائيل انتساب العرب إلى إبراهيم ، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية مطرودة ، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع .

* * *

الرســالة

إن تاريخ الأديان لا يرسم لنا خطاً واحداً يفصل بين عهدين كلاهما مخالف للآخر كل المخالفة .

فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة ، وما من عهدين من عهود الأديان إلا بينهما تمهيد وتعقيب .

لكن الأمانة التى اضطلع بها الخليل إبراهيم حادث جديد لم تعرف له سابقة فيما وعيناه من تاريخ الدين .

ذلك الحادث الجديد هو أمانة الرسالة النبوية : أمانة نفس حية تخاطب نفوساً حية باسم الاله الذى يتوجه إليه عباده فى كل مكان .

أمانة نفس تخاطب النفوس ، ولا تخاطبهم من وراء المحاريب والهياكل ، ولا بسلطان من نظام الدولة أو نظام الكهانة ، ولكنها نداء ضمير إلى ضمير .

وهذه هى الدعوة النبوية التى لم تعرف قط على هذه الصفة فى غير البقاع العربية وبقاع الهلال الخصيب .

وهذه هى الدعوة التى قلنا إنها تستلزم وجود « هداية شخصية » أو تستلزم وجود إبراهيم متصلاً بمن بعده ، لأنها سلالة من دعوات لا يتصورها العقل على غير مثالها الفريد فى تواريخ الأديان .

ولولا أن الشكوكيين باسم البحث والنقد يعملون عمل الآلات فى شكهم ، وفى بحثهم ونقدهم لفهموا أن الشخصية الخرافية جائزة فى

نظام الكهانات أو نظام هياكل الدولة ، لأنها نظم قائمة على « موظفين » دينيين ، يحل أحدهم محل الآخر بلا اختلاف ، ولكن الدعوة النبوية على المثال الذى بدأ به الخليل إبراهيم هى عمل لا غنى فيه عن الشخصية الحقيقية ولا عن التتابع الذى ينعقد بين الشخصيات من سلالة واحدة ، وما من حلقة فى هذه السلسلة الحية إلا وهى تتطلب الحلقة التى قبلها والتى بعدها على السواء .

كانت دعوة إبراهيم هى الفتح الجديد فى تاريخ العقيدة .

فلم يبدأ إبراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك فى عهود الكهانات والهياكل .

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه فى عصره ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام وجهلوا وسر الفداء سر البقاء ، ولكن البداءة قد بدئت وسارت فى طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيها بعد ذاك .

* * *

كان توحيد إبراهيم إيماناً بإله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعاً ، لأنه أعلى من كل عال فى الأرضين أو فى السماوات . ولكنه قريب من كل إنسان .

ولم يكن « يهوا » إله إبراهيم ، لأن قوم إبراهيم لم يذكروا يهوا من بعده قبل خروجهم إلى سيناء ، كما صرحت بذلك كتب التوراة الأولى .

ولكنه كان هو الإله « الايل » وإليه ينسب إليه ابنه إسماعيل .

وكان هو العلى « عليون » وعلى محرابه قدم قربانه إلى ملكى صادق بعد نزوله بكنعان .

فهو إله لا فرق عنده بين وطن قديم أو وطن جديد ، ولا فضل لديه لعشيرة على عشيرة ملكى صادق ، ولا على غيرها من عشائر بنى آدم ، بغير التقوى والإيمان .

إن هذا التوحيد قد رفع مكانة الإنسان فى ميزان الخليقة ، فليس فى الكون إلا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة : هى فضيلة الضمير الذى يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته إلى الله .

وقد برزت فى رسالة إبراهيم عقيدة أخرى غير عقيدة التوحيد ، أو لعلها فى هذه الرسالة أبرز من عقيدة التوحيد ، ونريد بها عقيدة الفداء .

جاء إبراهيم فى مفترق الطريق بين استباحة القرابين البشرية وبين تحريمها .

ولكنها لم تحرم لأنها أغلى من أن تقدم .

وإنما حرمت لأن الله أرحم وأكرم .

ورأى إبراهيم فى رؤياه أنه يؤمر بذبح ابنه ، أعز ما فى الحياة عنده .

رأى ذلك وهو يعلم أن الأرباب تتقاضى عبادها مثل هذه الضحية ، وأن تقريب الأوائل من الأولاد والأوائل من كل نتاج حق مفروض على كل أسرة لرب الأوثان والأصنام .

أيكون إبراهيم أبخل على ربه من عابد الوثن ؟

أيكون الوثن أحق بالضحية من خالق الأرض والسماء ؟

أيرتاب إبراهيم فى أمر الله وهو ينظر إلى شريعة العبادة من حوله ، وإن كانت شريعة شر وضلال !

إن العصيان هنا نزول بالإله الأعلى عن مرتبة الأوثان والأصنام .

فلتكن الطاعـة تنزيهـاً للإله الأعلى عن ذلك الإسـفـاف ، ويفـعل الإله بالآباء والبنين ما يريد .

قال حكيم من حكماء الغرب[1] أن الدين هو الأمر الوحيد الذى يحق له أن يأمـر الإنسـان بما يناقض الأخـلاق ، لأنه يرفـعـه أوجـاً بعـد أوج فى معراج الخلق الشريف .

إن ذبح الأب وليده نقيض الرحمة .

ولكن إيمان الإنسان بعقيدة أعز عليه من ولده ومن نفسه غنيمة أقوم وأعظم من رحمة الآباء للأبناء .

فلا ينبغى أن يضن الإنسان بشىء فى سبيل هذه العقيدة .

ولا ينبـغى أن يبطل القربان بالإنسـان لأن الله لا يسـتـحـقـه كمـا استحقته أوثان الجهالة .

بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله ، فـهـو أعظم وأكـرم من الأوثان .

---

(١) كير جكارد الدنمركى Klerkegaard (١٨١٣ - ١٨٥٥) .

وارتفاع الإنسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف إلى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه .

ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف ، وسمو بالرحمة وبالعبادة إلى أعلى عليين .

* * *

قلنا عن أيوب عليه السلام أن حياته كانت تربية دينية من تجاربها الأولى إلى ختامها ، فعلم فى ختامها ما لم يكن يعلمه فى أولها ، لم يذكر البعث حين كان يتمنى الهبوط إلى الهاوية التى لا يصعد منها من هبط إليها ، ولكنه ذكر بعد اختبار طويل وبلاء شديد ، فقال : « بعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى أرى الله .. » .

ويصدق هذا القول على حياة إبراهيم فى عقائده جميعاً لأنه اختبر حياة الشرك واختبر شعائره وفرائضه ، وخلصت له الهداية بالخبرة والهداية الإلهية .

وأصدق ما يكون ذلك على البعث خاصة ، فإنه لمن مواضع التأمل أن يكون إبراهيم هو النبى الوحيد الذى ذكر القرآن الكريم أنه سأل ربه كيف يحيى الموتى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى .. ﴾ .

ولم يرو القرآن الكريم خبراً كهذا عن نبى غير إبراهيم ، فإنه إذن لمن مواضع التأمل التى ينبغى أن يلتفت إليها من يصطنعون الاستقصاء ، باسم العلم والتاريخ .

فالحق أن عقيدة البعث ظلت خفية فى كتب التوراة ، وأن خفاءها هذا دليل على أنها بقيت زمناً بعد إبراهيم مجهولة غير مفهومة .

إذا اعتمدنا البحث التاريخى وحده لم يجز فى العقل أن يكون إبراهيم قد ذهب إلى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت .

فمن ذرية إبراهيم يوسف وقد كان له صهر من كهان المحاريب المصرية ، ومنهم موسى وله علم بمدارس مصر وأسرارها ، وغير معقول أن يكون إبراهيم قد خرج من أرض الكلدان إلى مصر ولم يخطر له أن يسائل حكماءها فى أمر العقيدة ، وقد كانت فى الوجه البحرى حيث تنزل القبائل الوافدة – محاريب كثيرة يتقرب منها ملوك الرعاة ويشتركون فى شعائرها مع رؤساء الدين .

فلا يجوز فى العقل أن يكون إبراهيم قد ذهب إلى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت ، وأصوب من هذا أن نفهم أن كتب العهد القديم دونت بعد السبى أو نفى اليهود إلى بابل ، فطال العهد بيننا وبين دعوة إبراهيم ، وطالت عصور النكسة بعد اختلاط العبادات الإلهية والوثنية ، ومنها عبادات بعل وعشتروت .

وساعد على خفاء العقيدة بالحياة بعد الموت أنها لم تورث عن إبراهيم مفصلة منتظرة عن سابقة متتابعة ، فجاز أن يكتب المدونون فى سفر الجامعة : « إن ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة .. كلاهما من التراب وإلى التراب يعود . من يعلم روح بنى البشر هل هى تصعد إلى فوق ، وروح البهيمة هل هى تنزل إلى أسفل . إلى الأرض .. ولا شىء خير من أن يفرح الإنسان بأعماله . لأن ذلك نصيبه .. » .

وانقضت قرون قبل أن يسمع من دانيال « أن الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء للحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار .. » .

وجاء عصر السيد المسيح ولما ينحسم الخلاف بين طوائف بنى إسرائيل التى تقول بالحياة الأخرى وطوائفهم التى تنكرها وتتحدى المؤمنين بها أن يؤيدوها بسند من كتب التوراة . وضرب السيد المسيح المثل بالعازر والرجل الغنى ، وفيه إشارة إلى النعيم والعذاب بعد الموت ، فكان عقيدة من عقائد الأناجيل لم تتقرر على هذا الوجه فى كتب التوراة .

وقد مضى زهاء عشرين قرناً بين عصر إبراهيم وعصر المسيح ومضى زهاء أربعين قرناً بينه وبين هذا الزمن الذى غلب فيه أتباعه على أقطار الدنيا .

ولكن أمراً ابتدىء قبل تلك القرون لم يكن لينتهى إلى هذه النهاية لو لم يبدأ ذلك الابتداء .

ولم يكن ذلك الأمر عقيدة التوحيد أو عقيدة الفداء أو عقيدة الثواب والعقاب .

فقبل ذلك ما سمع الناس بتلك العقائد على نحو من الأنحاء .

وإنما سمى أبا الأنبياء لأنه كان رائد الدعوة النبوية فى العالم الإنسانى بأسره ، وكأنها الرسالة الخاصة من خالق الكون إلى كل مخلوق من بنى آدم وحواء .

المعجــزة

قلنا فى صدر هذه الرسالة : إن الاهتداء إلى عقيدة التوحيد كان فتحاً علمياً صحح نظر الإنسان إلى الكون والحياة ولم يكن قصاراه أنه فتح دينى يصحح إيمانه واعتقاده .. « لأن حقائق الكون الكبرى لا تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بإرادة ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضى بها إلى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى .. » .

ونقول فى ختام الرسالة : إن الإيمان بإمكان المعجزة فتح كفتح عقيدة التوحيد ، لأنه يخلص العقل من حجر الحالة الواحدة التى تغلق عليه أبواب الاحتمال غير باب واحد ، هو الواقع المحدود كما يراه .

إن عقل الفيلسوف « ديكارت » قد نظر فى الممكنات والمستحيلات فتقرر عنده أن تغيير الحقائق الرياضية نفسها ممكن غير مستحيل ، وأن تغيير العقل الذى ندرك به تلك الحقائق ممكن كذلك غير مستحيل .

وعلماء العصر قد تخلصوا من ربقة القوانين التى سميت زمناً بقوانين الطبيعة ، ووقر فى أذهان أجيالها أنها تقيد الظواهر الطبيعية ، فلا يستطيع العقل أن يفسرها بغيرها .

فالقانون الطبيعى اليوم فرض من فروض، وقد تصلح الجاذبية زمناً لتفسير حركات الأفلاك ، ثم تأتى النسبية فيثبت لبعض العلماء أنها أصلح لتفسيرها وأوسع نطاقاً من الجاذبية .

ومهما يبلغ من دقة القانون الطبيعي فهو لا يحصر كل حقيقة ولابد من جزء غير محصور موكول إلى التقدير والترجيح .

والإيمان بإمكان المعجزة نظر متصرف يصل إليه المؤمن بعقيدته ولم يبلغ مبلغ ديكارت فى عمق الفلسفة أو مبلغ العلماء فى تمحيص القوانين الطبيعية .. فإذا سأل سائل : هل يمكن أن تجرى المادة على غير هذه الصورة ؟ فالذى يقول بالإمكان أصدق نظراً ممن يجيب بالاستحالة والامتناع ، وأصوب فى وزن الكون جملة واحدة ممن يفرضون عليه صورة محدودة من أقدم آباده إلى غاية ازاله ، إن كانت للآزال غاية .

فالمعجزة ممكنة ليست بمستحيلة .

لأن مواد الكون كله ترجع إلى أصل واحد ، وليست خصائص هذه المواد مجعولة فيها بإرادتها وليست كل خاصة منها مستقلة عن سائرها ، فإذا جاز أن يتشكل الأصل الواحد بجميع هذه الأشكال فاختلافها جائز فى أحوال غير هذه الأحوال ، ولا وجه على الإطلاق للجزم باستحالة هذا الاختلاف .

إن الذى أروع فى الأصل الواحد كل هذه الصور قادر على أن يودعه صوراً أخرى .

وعلى الذى يجزم بالاستحالة أن يقيم الدليل . أما القائل بالإمكان فالواقع هو دليله الذى يقيس عليه .

فليس المقياس الحق للمعجزة أن تسأل : هل هى ممكنة أو غير ممكنة ؟ .. كلا بل المقياس الحق أن تسأل عن حكمتها ولزومها ، فإن الذى يدبر الكون كله يتنزه عن العبث ، فلا يصنع شيئاً لغير حكمة ، ولا تفوت هذه الحكمة إدراك الناس ماداموا هم المقصودين بإدراكها .

ذلك هو مقياسنا للمعجزات ، وذلك هو المقياس الذى اعتمدناه فى كتابتنا عن الرسل والدعوات الدينية ، وخلاصته التى نعيدها فى هذه السيرة أن دعوة إبراهيم تفسرها حوادث عصره وتاريخ قومه ومن بعده ، وإرادة الله فى هذه الحوادث هى إرادة الله فى كل معجزة ، فليس فى القول بهذه أو بتلك إخلال بقدرة الله على جميع الحالات .

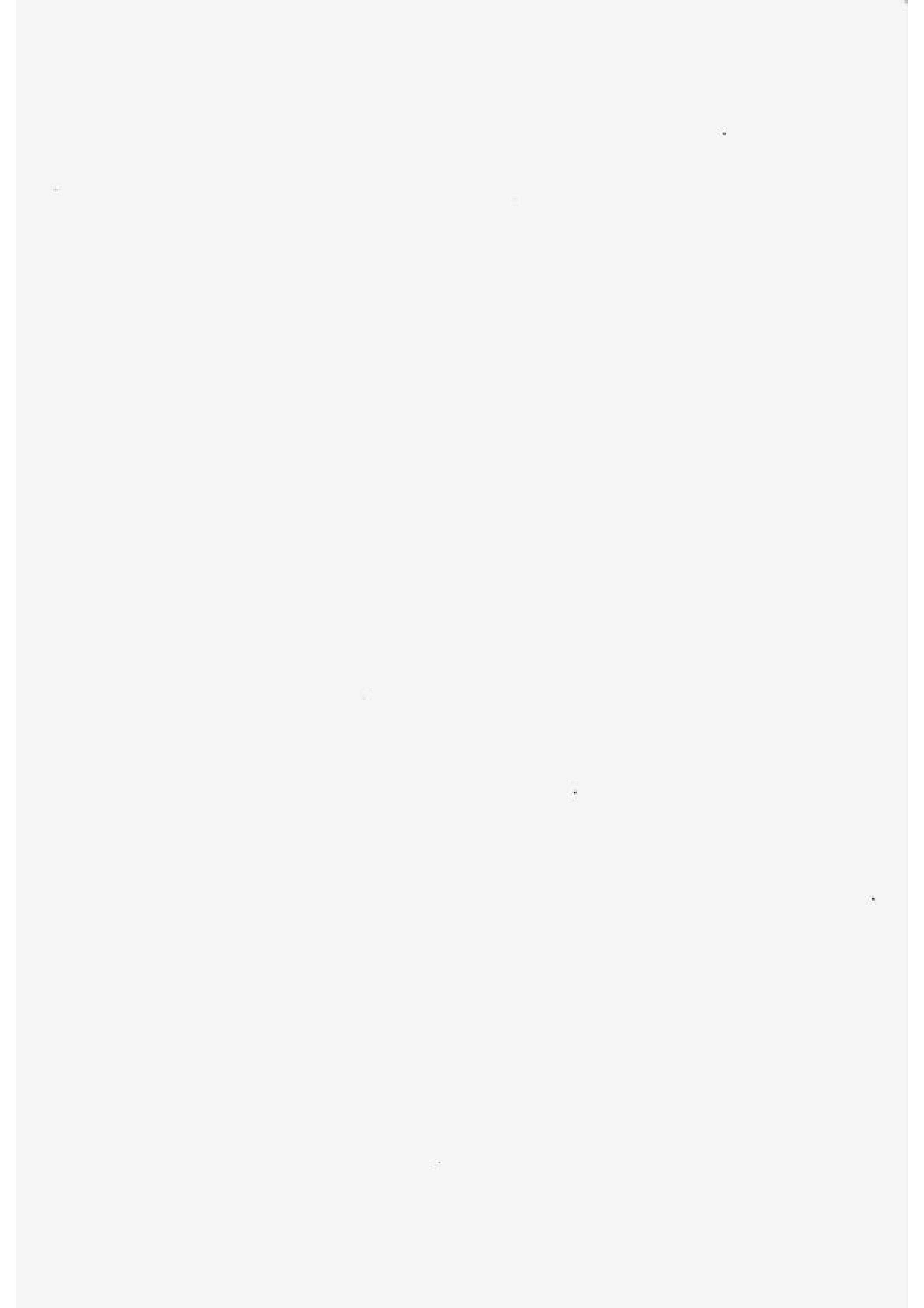
ونحن لا نستحسن أسلوب المفسرين الذين يفترضون الفروض لتيسير قبول المعجزة ، فإن المعجزة متى وقعت لابد أن تكون معجزة ، ولابد أن يكون الناس فى النظر إليها بصراء بحقيقتها غير مخدوعين فيها .

فالإيمان الصحيح أن المعجزة ممكنة .

والإيمان الصحيح أنها ممكنة لحكمة .

ومن الحق أن نبرز حكمة الله فى الحوادث كما نبرزها فى المعجزات ، وهذا الذى نصنعه فى دراسة الدعوات الدينية ومنها دعوة الخليل .

* * *



خاتمة المطاف

وينتهى المطاف بقصة الخليل إلى العصر الحاضر .

ينتهى إلى العالم الحديث فيه ألف مليون إنسان ، يقرأون قصتهم قصة آبائهم وأجدادهم فى العقيدة الإلهية حين يقرأون قصة الخليل .

ومن مبدئها كان مبدؤهم فى الإيمان بالوحدانية .

ومن مبدئها وهى تمتزج بكل ما استطاع آباؤهم وأجدادهم أن يمزجوها به منذ صوابهم وخطئهم ، ومن علمهم وجهلهم ، ومن صدقهم ووهمهم ، ومن أفكارهم وأساطيرهم ، ومن كل ما يفقهون وما لا يفقهون .

تراث ضخم غاية فى الضخامة .

فكيف انتهى به المطاف بعد أربعة آلاف سنة أو دون ذلك أو فوق ذلك بقليل ؟

كيف توزن كفتاه : كفة الصواب والعلم والصدق والإنكار ، وكفة الخطأ والجهل والوهم والأساطير .. ؟

إنها النفس البشرية بما لها من قوام صالح وغير صالح .

وأنها لن تنفصل شطرين يوضع أحدهما فى كفة ويوضع الآخر فى كفة تقابلها .

بل خذها جملة أو انبذها جملة ، ووازن بين الغنم والخسارة فى الحالتين .

ومن يفطن لما حوله يفطن لهذا الشأن فى كل عقيدة عظيمة وكل فكرة عظيمة وكل فاتحة عظيمة تتلوها الخواتيم على قدرها من العظمة .

فالنوع البشرى لم يشرب قط فكرة عظيمة مع جرعة ماء ، ولم يستكمل عقيدة عظيمة بين ليلة وصباح .

وندع الغيب وعلوم الأبد وننظر إلى الدنيا المشهودة ومادتها التى تتناولها الأيدى كل يوم .

فمن أقدم القدم نظر الإنسان فى بنية المادة ، ثم انقضى عشرون ألف سنة يصيب فيها ويخطىء ، ولما يدرك خصائص الذرة جميعاً ، ولما يفقه من خصائصها التى عرفها سراً وراء القشور .

وندع الزمن وتياراته الخفية ، وننظر إلى المكان وتياراته التى تقاس وتكال .

يهبط ماء النيل ماء طهوراً من السماء ، ويخترق الثرى فيأخذ من كل ما فيه من تراب وأذى ومن صفاء وكدر ، ويستفاد من الخليط كم يستفاد من الصفاء .

وهكذا كل ما يعبر طبيعة الإنسان وطبيعة الأرض ، وطبيعة الدنيا وما فيها من أتربة الزمان وأتربة المكان .

تقبلها جملة أو ترفضها جملة ، وتوازن بين الغنم والخسارة فى الحالتين .

وازعم إن شئت أنه غنم أنت مخدوع فيه ، ولكن تزعم أيضاً أنك مخدوع فى حب حياتك فليست هى أفضل حياة . مخدوع فى حب نسلك فليس هو أولى بالبقاء من جميع الأحياء .. مخدوع فى هذه الألوان والأصوات فليست هى ألواناً ولا أصواتاً ولكنها هزات فى الفضاء أو هزات فى الهواء ، وأنت مع هذا لا تعرف شيئاً ما لم تعرفها بهذه الأسماء .

ولقد مرت بنا في أبواب هذه الرسالة اخلاط من طبائع الملايين يمزجون بها عقائد الروح وأقداس الضمير . ولا ينفصل المزيج من المزيج في روح ولا في ضمير .

من يقبلها جملة يبقى له تاريخ الإنسان كما كان وكما هو الآن .

ومن يرفضها جملة ماذا يبقى لديه ؟

إن عليه أن يذكر ماذا يرفض ليذكر ماذا يبقى .

إنه لا يرفض الدنيا بتواريخ الدول والحضارات وكفى .

إنه ليرفض هذه ويرفض معها كل بارقة أمل ، وكل نفحة عزاء ، وكل هاجسة سر ، وكل ركن من أركان الثقة والعزيمة أخذه الإنسان من الدين وأخذ منه أعمالاً وأحلاماً وخلائق وأطواراً وبواعث وأفكاراً لا تحصيها الأوراق كما تحصى تواريخ الدول والحضارات .

ولا يزال في جوانب الأرض من يعبد الحجر ..

ولا يزال في جوانب الأرض من يقدح النار من الحجر .

ولا غضاضة من هذا وذاك على ودائع الكهرباء في الكون ، ولا على عقيدة التوحيد في أعلى مراتب التنزيه .

وإن في العالم اليوم لمن يعيش فيه وكأنه لم يولد فيه إنسان يسمى إبراهيم .

وربما بقي في العالم شبيه هذا الرجل بعد ألف سنة .

بل ربما كان هذا الرجل خيراً من ألوف يضلون بالنبوءات والأنبياء حيث يهتدي المهتدون .

ولكنهم يسقطون من الحساب .

ويذكر فى الحساب ألوف الملايين فى مائة جيل ، يقرأون قصة ضمائرهم حين يقرأون قصة إنسان واحد مضى ولم يمض لسبيله ، بل مضى على سبيله دعاة وهداة ، ولا يزالون ماضين وحاضرين .

أليس هذا الإنسان حبيب الإنسان ؟

أليس هذا الإنسان حبيب الرحمن ؟

محتويات الكتاب

الموضــــــــوع	الصفحة